جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

مقومات الحضارة
وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم

إعداد
عمار توفيق أحمد بدوي

إشراف
الدكتور محسن سميح الخالدي

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في أصول الدين بكليـة الدراسـات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

2005

بسم الله الرحمن الرحيم

مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم

إعداد الطالب

عمار توفيق أحمد بدوي

نوقشت هذه الاطروحة بتاريخ: 2005/7/19م وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة

1- الدكتور محسن سميح الخالدي (مشرفاً ورئيساً) ....

2- الدكتور موسى البسيط (ممتحناً خارجياً) ....

3- الدكتور محمد حافظ الشريدة (ممتحناً داخلياً) ....

مقومات الحضارة

وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم

إعداد

عمار توفيق أحمد بدوي

إشراف

الدكتور محسن سميح الخالدي

الملخص

لقد قسمت البحث إلى تمهيد وأربعة فصول، بينت في التمهيد تعريف الحضارة والمدنية في اللغة والاصطلاح، وبينت الفرق بينهما.

وتحدثت في الفصل الأول، عن مقومات الحضارة، والأسس التي تقوم عليها، وهي أسس لا تقوم الحضارة الرشيدة إلا بها.وهذه الأسس هي: الإيمان بالله ﷻ، والتصور الاعتقادي الصحيح، والعلم، والعمل الصالح، والأخلاق، والشمولية، والخطاب الإنساني العام، والاقتصاد المزدهر، والأمن والنظام السياسي المستقر.

وتحدثت في الفصل الثاني، عن ضوابط الأمان في استمرار الحضارة، وديمومتها، وهي ضوابط تصون الحضارة من الانحراف، وتدفع عنها شر الأفول، والانهيار. وتتمثّل هذه الضوابط في: التناصح والمحاسبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراعاة السنن الإلهية.

وتحدثت في الفصل الثالث: عن عوامل انهيار الحضارة، وأفول نجمها، وهي: الكفر، والظلم، والترف والفواحش والذنوب، والاستكبار والطغيان، والنزعة المادية الصرفة، والفساد الاقتصادي.

وتحدثت في الفصل الرابع، عن مستقبل التمكين للحضارة الإسلامية، وذكرت في هذا الفصل البشائر الإيمانية الصادقة في مستقبل التمكين، وأوضحت أن الحضارة الإسلامية هدفها الإنسان، وذكرت علامات تدهور الحضارة المادية المعاصرة، كما ذكرت أن الحضارة الإسلامية هي وارثة الحضارات.

والله ولي التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي من علينا بالإسلام، والصلاة والسلام على نبينـا محمـدٍ المبعـوث رحمـة للعالمين، وآله وسلم. والحمد لله حمداً يليق بجلاله العظيم، ويوازي جوده الكريم، وخيره العميم. أحمدك ربي حمد الشاكرين المنيبين المخبتين الخاشعين الراجين. وأثنـي عليـك الخيـر كلـه، أشكرك، ولا أكفرك. وبعد؛ فإن أشرفَ ما حوتْ النقولُ، وفكّرتْ به العقُـولُ، هـو كتـاب الله المجيد، سعادةُ الدارين، ورسالةُ الثقلين. والحجةُ البيضاء، والنّور الوضاء، والشفاء، والدواء.

وأستأذِنك ربي الغني الجواد، بالوقوف على بابك، وأسألك أن تفيض على نفسي الـضعيفة، من نور سلطانك، وأن تفتح لي خزائن رحمتك، فاغسل اللهم أوصـاب قلبـي، وأدران نفـسي، بِطُهرٍ من عندك، تثلج به صدري، وتيسر به أمري، واجعلني أهلاً لقراءة كتابك، والتمعن فـي آياتك، وبصرني بصائر القرآن، وأنلني حسن تأويل الفرقان، واحلل به عقدة من لـساني، فـإني أسألك؛ وأنت الذي لا ترد السائلين، أن تلهمني علماً نافعاً، ولساناً خاشعاً، ودليلاً ساطعاً، فـأين اللهم حجةً قدسية هي لك على لساني، وثبت بها جناني، واكسني هيبةً من جلالك على كيـاني، واقبل اللهم عملاً، هو لك، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، وثقّل به ميزاني، واعف يا رب عـن تقصيري، وجرأتي، وكليل تفكيري، فما قصدت إلا جلالك، آمين.

أهمية الموضوع:

لقد عزمت النية، وشددت العزيمة على خوض غِمارٍ؛ هو مضمارٌ هام، كَتَـب فيـه سـدنةُ العقيدة، وأهلُ الفِكر، ونهض به الكِبار من كلّ مِلة؛ ألا وهو موضوع الحضارة، التي هي حديثُ الساعة، ولغةُ العصر؛ فركبتُ متْنَها، وحللْتُ سرجها، وجلّيتُ عواملَ بنائِها، ووقفتُ على فِكـاكِ عراها. وكلّ ذلك بمنظار ترى منه تفصيلَ كل شيء؛ إنه منظور القرآن. فمـن رأى بـه؛ رأى الحق أبلج، ورأى الباطلَ يتلجلج.

والحضارةُ؛ كلمةٌ لها إيقاعٌ خلاّب، ورنّةٌ باهرة، تُشدي الأسماع حروفُها. والأبلغ مـن ذلـك حينما تقترن بالقرآن الكريم؛ فتصبح حروفُها نورانيةً وهاجةً بالنّور. وتزداد الحضارة نـضارة، إذا ما صفتْ معالمها في أعز العلوم، وأشرفِها، وظهرت صورتُها الرائعة في أرقى الفهوم، وهو علم تفسير القرآن الكريم، وفهمه؛ فاغتسلتْ في قُراِته، وانجلى محياها، ندياً، طرياً.

والبائسون الغُمر؛ يحسبون أن الحضارةَ، منبتّةُ الجذور من القرآن الكـريم، وأنهـا رهـن سفسطةِ كلام المتفلسفين، أو رغاءٌ زائف لمؤرخ جهول. وهذا ظن البـائس المحـروم، والغِـر الظلوم.

وما من شك، أن الكتابةَ في حقول التفسير متشعبةٌ متنوعة. غمس الكتّاب في بحـر مِـدادِها أقلامهم؛ فأبدعت قرائحهم من ذلك الغوص لآلئ؛ ازدان بها جِيد الحياة، وهنأتْ بها زهرتُها.

مسوغات البحث:

وربما يقول قائل: لِم لا تنغمس يراعةُ كاتب هذه الرسالة في تحقيـق التـراث العـاطر، أو استنهاض ما استكن من المسائل الدقيقة في علم التفسير؟ وهو سؤال وجيه.

ومع أني ُأجل التراث الزاهي المجيد، ومسائل التفسير الدقيقة، بيد أني أدعـي؛ أن الـزمن المعاصر، والوقتَ الحاضر؛ لهو أحوج ما يكون أن يسير على وهج، ونَهج القرآن الكـريم. إذ اقتحامنا الحياةَ المعاصرة يقتضي أن نشمخَ بالكتاب الكريم، والذكر الحكـيم. نفـصل أبجـدياتِ السعادة، ونضئُ أحمر اللون، لخطورة الانزلاق فيما يدمر الحياة.

وقناعتي المطلقةُ بأن قرآنَنا دستور الحياة الخالد؛ أوقدت في نفسي حرارةَ الحماسِ المشبوب في تتبع مقومات الحضارة الصاعدة، وعوامل أفولها، وكسفِ شمسها، إضافة إلى ذلك؛ أن مـن حقّ القرآن على أهله أن يحملوه نبراساً على مناكِبِ الحياةِ المعاصرة؛ فتتجه الأبحاث في نَبعِـه الرائق، ونَميره الدافق، وحول حِماه المصون؛ لِتَبرز لهجةُ التحدي الصارخ في آياته الزاكيـات؛ وهي تدق مطارقَ التهديد من تعكير الحياة، وكذلك؛ وهي تبذر بذور الخير، تُضوع الكون أنفاسه العاطرات.

وربما يلوح في خيال قصير نظرٍ سؤال، أو رجلٍ مغرور، يقول: أين أنتم من الحضارة؛ حتى تخوض غمارها في بحث، والحضارةُ في يدٍ غير يدكم، ومنارها في غير أرضكم؟ والجواب؛ أين كانت "حِراء" من امبراطوريتي الروم، والفرس؟ كان النور في "حِراء" ينسج خيوطَ الفجر الوليد، بينما كانت تغطّ امبراطورياتُ الجاهليةِ بخمر الغرور، والاستكبار. ونحن اليوم ننسج خيوطَ الفجر القادم، والأملَ الزاحف؛ الذي سيمزقُ ليلَ الظلام، ويمحو ظلماتِ الحضارةِ المادية. ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[سورة الصافات:173].

مشكلة البحث:

لقد كنتُ مدركاً منذ أن وقع اختياري على عنوان الرسالة "مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم" أني سأخوض بحراً عاتي الموج، وصخراً صلْداً يشقّ على السالكين فَلْقُه، ولكني استعنت بفالق الحب والنّوى؛ فمهد الله تعالى لي السبيل، وانبجس الصخر الأصم، وتصدع الجبل الأشم،﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الحشر:21].

لقد ثورتُ آياتِ القرآن؛ فثارتْ معها نسائم الرحمة الإلهية في مقوماتِ الحضارة. وثورتُ الآياتِ مرةً أخرى؛ فثارتْ معها عواصفُ الغضبِ الرباني في عوامل أفول الحضارة. قال عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه: "من أراد علماً فليثور القرآن؛ فإنه خير الأولين، وخير الآخرين"[2].

(1) هو: الإمام الحبر فقيه الأمة أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري، حليف بني زهرة كان من السابقين الأولين ومن النجباء العالمين شهد بدرا وهاجر الهجرتين. ومناقبه غزيرة روى علماً كثيراً.توفي في عام32هـ. ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**. 23مج. تحقيق شعيب الأرنؤوط ونعيم العرقسوسي. ط9. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1413هـ. ج1 ص461. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة**. 8مج. ط1. تحقيق محمد علي البجاوي. بيروت: دار الجيل. 1412هـ/1992م. ج4ص233.

(2) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**. 20مج. ط2. تحقيق حمدي السلفي. الموصل: مكتبة العلوم والحكم. 1404هـ-1983م. ج9 ص135. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**. 8مج. ط1. تحقيق محمد السعيد زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية. 1410هـ. ج2 ص332. وفي رواية أخرى "فإن فيه علم الأولين والآخرين" رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح. ينظر: الهيثمي، علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. 10مج. القاهرة: دار الريان للتراث. بيروت: دار الكتاب العربي. 1407هـ. ج7ص165. ومعنى يثور: " أي لينقر عنه، ويفكّر في معانيه، وتفسيره، وقراءته". ينظر: ابن الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد:

وكنت كلما قرأتُ أقوالَ الكِبار من علمائنا حولَ الحضارةِ؛ أزداد عزماً ومضاء؛ لأحققَ ما بدأت به، واتخذته عنواناً. فمن علمائنا من عد دراسةَ الحضارة، دراسةً تحليلية، وعرضها على ضوء مبادئ الإسلام؛ "هو واجب الساعة"(1). ومنهم من عد "الحضارة فريضة إسلامية، لا تقل أهمية عن أي فريضة أخرى في الإسلام"(2). ومنهم من أطلق مصطلح "الفقه الحضاري"(3). وهكذا.

والكتابةُ في الحضارة، وتحليلِها؛ إبحارٌ عميق، وغوصٌ دقيق، فيما وراءها. فما من حضارةٍ بزغَ نجمها؛ إلا بمقوماتٍ رفعتْه إلى سماء الظهور. وما من حضارة أَفَلَ نجمها؛ إلاّ وشدته عواملُ الغروب. ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾[سورة يوسف:111]. فالمؤمن يتدبر الحدثَ، وما وراء الحدثِ، ويستفيد من أخطائه في تصويبِ المسيرةِ الحضارية(4).

ولما وصلَ بي المطافُ إلى ما كتبه مفكرو الحضارةِ المادية المعاصرة، وعر المسلك، وضاق الطريق؛ لأني صممت منذ البداية على أن أدرسها من مصادرها، ومن أقوال كبار أساتذتها؛ فاستغرق ذلك الوقتَ، والجهد، والصبر المضني. والتقطتُ ضالّتي بالمنقاش من تلك الكتب التي صرفتُ وقتاً في دراستها. وخرجت بما أرضاني. وانتقيت من قائمة الحضارة المادية الغربية، أكابر مفكّريها،(5) وسيجد القارئ كل ذلك مسطوراً في محله من هذه الرسالة.

النهاية في غريب الحديث. 5مج. تحقيق محمود الطناحي. المكتبة الإسلامية. ج1ص229. لم يذكر الطبعة، ولا بلد النشر، ولا التاريخ.

(1) المودودي، أبو الأعلى: **نحن والحضارة الغربية**. 1مج. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1403هـ/1983م. ص85.

(2) زقزوق، د.محمود حمدي: **الحضارة فريضة إسلامية**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة الشروق. 1422هـ/2001م. ص36.

(3) القرضاوي، د.يوسف: **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة**. 1مج. ط1. بيروت: دار الشروق. 1417هـ/1997م. ص210. وأول من أطلق هذا المصطلح المفكّر والشاعر الأديب السوري بهاء الدين الأميري رحمه الله. وذلك ما ذكره القرضاوي.

(4) وليس الأمر كما قال الفيلسوف هيجل: "الدرس الوحيد الذي نستفيده من التاريخ هو أن أحداً لم يتعلم التاريخ" ينظر: صبحي، د.أحمد محمود: **في فلسفة التاريخ**. 1مج. الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية. 1975 م. ص151. لم يذكر الطبعة.

(1) درستُ ما كتبه المؤرخ الإنجليزي الحضاري المتعمق "توينبي"، وقرأت ما كتبه الفيلسوف الألماني الأحوذي "اشبنغلر"، والمفكّر الهولندي ج.دي. بويس، ووقفت مع الفيلسوف الألماني الناقد "اشفيتسر"، وتمعنّت فيما كتبه الفيلسوف المؤرخ

الدراسات السابقة:

حري بي في هذا المقام أن أذكر دراساتٍ سابقةً، مهدتْ الطريقَ، وكشفتْ أبعاداً هامة في الدرس الحضاري. وهي على أضربٍ:

الأول: دراسات تناولت موضوع الحضارة من زاوية إسلامية، وحلّلت جوانب فيها: ومن هذه الدراسات:

1-كتابات الأستاذ مالك بن نبي. ومنها: "شروط النهضة" و"ميلاد مجتمع" و"مشكلة الثقافة".

2-الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني، في كتابه "الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها".

3- الدكتور محمد البهي في كتابه "الدين والحضارة الإنسانية".

4-الدكتور شوقي ضيف في كتابه"الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة".

5-الدكتور محمود زقزوق في كتابه "الحضارة فريضة إسلامية".

الثاني: دراسات تاريخية تناولت موضوع الحضارة جزئياً من وجهة نظر إسلامية، منها:

1-الدكتور عماد الدين خليل، في كتابه "التفسير الإسلامي للتاريخ". ودار فيه مع القرآن حيث دار؛ فالدراسة تاريخية على ضوء القرآن الكريم.

2-الدكتور عبد الحليم عويس، في كتابه "تفسير التاريخ علم إسلامي".

3-الأستاذ عبد الحميد صديقي في كتابه "تفسير التاريخ".

4-الدكتور محمد رشاد خليل في كتابه "المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره".

الثالث: دراسات تناولت منهج الحضارة على ضوء القرآن. منها:

الفرنسي"لوبون"، وما خطته يمين الفيلسوف الفرنسي المعاصر" جارودي". ووقفت طويلاً مع ما كتبه الفيلسوف والمؤرخ الحضاري الأمريكي "ول ديورانت" في كتابه القيم"مباهج الفلاسفة"، وما كتبه المفكر الفرنسي الأمريكي ألكسيس كاريل، وقرأت ما كتبه الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون، في كتابه"نصر بلا حرب".

1-الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، في كتابه"منهج الحضارة الإنسانية في القرآن". ركّز فيه على جوانب محددة، منها الإنسان، الكون، المعرفة... الخ.

وهناك تقارير عن كُتُبٍ، ومقالات حول موضوع البحث، منشورةٌ على شبكة الانترنت. ولا شك بوجود دراسات أخرى، ومساهمات عديدة، لم تسنح لي فرصة الإطلاع عليها. وفي ظني المتواضع يحتاج موضوع الحضارة إلى دراسات متعددة؛ حتى يستوفي حقه.

منهجية البحث:

نهجت فيما كتبت نهج التحليل، والتدبر للقرآن الكريم، والآيات التي تحدثت عن الحضارات، مقوماتٍ، وعواملَ أُفول. فبعد أن جمعتُ ضميمةً شذيةً من الآياتِ القرآنية، حول كلّ موضوع؛ عدتُ بعدها إلى ذخائر التفسير؛ استعين بها على فهم النص، وتحليله، وعدت إلى مراجع ذات صلة به. وكانت رحلةً ماتعة؛ قضيتها متدبراً للقرآن الكريم. وعدت إلى كتب الحديث الشريف، فيما اقتضته الحاجة، وخرجت الأحاديث الشريفة، وترجمت للأعلام الذين وردت أسماؤهم في الرسالة. وصنعت فهارس عامة تشمل: المحتويات، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأعلام.

طريقة التوثيق:

وثّقتُ المراجع باسم الشهرة، ثم اسم المؤلف، عدد المجلدات، والطبعة، وبلد النشر، ودار النشر، والسنة، والجزء إن وجد، والصفحة. فإذا تكرر المرجع بعد ذلك؛ اكتفيت بذكر اسم الشهرة، واسم المرجع.

خطة البحث:

وسلكت خطة البحث الآتية:

قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول. وهي كما يلي:

مقدمة.

تمهيد. وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الحضارة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: تعريف المدنية في اللغة والاصطلاح.

الفصل الأول: مقومات الحضارة في القرآن الكريم

المبحث الأول: الإيمان بالله ﷻ والتصور الاعتقادي الصحيح.

المبحث الثاني: العلم.

المبحث الثالث: العمل الصالح.

المبحث الرابع: العدل.

المبحث الخامس: الأخلاق.

المبحث السادس: الاقتصاد المزدهر.

المبحث السابع: الشمولية.

المبحث الثامن: الخطاب الإنساني العام.

المبحث التاسع: الأمن والنظام السياسي المستقر.

الفصل الثاني: ضوابط الأمان في استمرار الحضارة وديمومتها وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: التناصح والمحاسبة.

المبحث الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثالث: مراعاة السنن الإلهية.

الفصل الثالث: عوامل أفول الحضارات في المنظور القرآني. وفيه سبعة مباحث.

المبحث الأول: الكفر.

المبحث الثاني: الظلم.

المبحث الثالث: الترف.

المبحث الرابع: الذنوب والفواحش.

المبحث الخامس: الاستكبار والطغيان وغرور القوة.

المبحث السادس: الفساد الاقتصادي

المبحث السابع: النزعة المادية الصرفة.

الفصل الرابع: مستقبل التمكين للحضارة الإسلامية. وفيه أربعة مباحث.

المبحث الأول: البشائر الإيمانية في مستقبل التمكين.

المبحث الثاني: الحضارة الإسلامية هدفها الإنسان.

المبحث الثالث: علامات تدهور الحضارة المادية المعاصرة.

المبحث الرابع: الحضارة الإسلامية وارثة الحضارات.

واسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، فإن ند القلم، أو شط الفكر، ونأى النّظر؛ فأسأله ﷻ أن يعفو عن الزلاّت. فما أصبت فمن توفيق الله، وما أخطأت؛ فهذه طبيعة البشر.

عمار توفيق أحمد بدوي

تمهيد

المبحث الأول

تعريف الحضارة في اللغة والاصطلاح

الحضارة في اللغة.

الفعلُ الثلاثي لهذا المصطلح هو "حضر"، ومنه تصريفات عديدة. وبالعودة تاريخياً إلى أول معاجم اللغة العربية؛ نجد غياباً لهذه الكلمة؛ فإذا ما فتحنا "كتاب العـين"، للخليـل بـن أحمـد الفراهيدي[1] ت 170هـ؛ فلا نجد أثراً لها في مادة حضر[2]. وإذا ما عدنا إلى المعـاجم التـي عاش أصحابها ما بين القرنين الثالث، والرابع الهجري؛ فنجد الكلمة مسطّرة في معاجمهم.

ولقد جرى اللغوي النّحوي ابن فارس[3] ت 395هـ، على عادته المبدعة في الكشف عـن جذر الكلمة، والجامع لأصولها، والمفرع لاشتقاقاتها. فقال:"الحاء والضاد والراء إيراد الـشيء، ووروده ومشاهدته. وقد جيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحداً. فالحضر خلاف البـدو. وسكون الحضر الحِضارة. قال القُطَامي[4]ت 130هـ:

فمن تكن الحِضارة أعجبته فأي رجال باديةٍ ترانا

---

(1) هو: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، الإمام أحد الأعلام وكان رأساً في لسان العرب ديناً مفـرط الذكاء صاحب العربية ومنشئ علم العروض ولد سنة 100هـ. ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**. 23 مج. تحقيق شعيب الأرنـؤوط ونعـيم العرقـسوسي. ط9. بيـروت: مؤسـسة الرسـالة. 1413هـ. ج7ص429-431.

(2) ينظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: **كتاب العين**. 8مج. تحقيـق د.مهـدي المخزومـي ود.إبـراهيم السامرائي. ط1. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. 1408هـ/1988م. ج3 ص101-103. مادة حضر.

(3) هو: الإمام العلامة اللغوي المحدث أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيـب القزوينـي المعـروف بالرازي اللغوي وكان رأسا في الأدب. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج17ص103-106.

(4) هو: عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك. كان شاعراً فحلاً، رقيق الحواشي، حلو الـشعر. أول مـن لقّـب صـريع الغواني. ينظر: القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب: **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**. 1مج. تحقيـق علي محمد البجاوي. ص642. لم تذكر الطبعة، ولا التاريخ، ولا بلد النشر.

قال أبو زيد[1] ت215هـ: الحضارة بالكسر، وقال الأصمعي[2] ت 215هـ: هـي الحـضارة بالفتح"[3]. والذي عند ابن فارس في معنى الحضارة وجدنا مثله عند الجوهري ت 393هـ فـي الصحاح[4]. وقال الصاحب ابن عباد[5] ت 385هـ:"الحِضارة، والحضارة وهي ضد البداوة"[6].

واحتفت المعاجم المختصة بمفردات القرآن الكـريم، بكلمـة الحـضارة؛ فالأصـفهاني، ت 503هـ، استعرض الفعل الثلاثي "حضر" وما اشتق منه في القرآن الكريم. وقـال:" الحـضر: خلاف البدو، والحِضارة، والحضارة: السكون بالحضر"[7].

وأخذتْ كلمةُ الحضارة تستقر في المعاجم اللغوية لاحقاً على المعنى نفسه الذي ذكرته. فـذكرها الزمخشري[8] ت 538هـ في أساس البلاغة[9].

---

(1) هو: الإمام العلامة حجة العرب أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن صـاحب رسـول الله ﷺ الأنـصاري البصري النحوي صاحب التصانيف ولد سنة نيف وعشرين ومئة. ويقال: إن الأصمعي كان يحفظ ثلث اللغـة. وكـان أبو زيد يحفظ ثلثي اللغة. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج9ص494.

(2) هو: الإمام العلامة الحافظ حجة الأدب لسان العرب أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي الأصـمعي البصري اللغوي. ولد سنة بضع وعشرين ومئة. وعن ابن معين قال كان الأصمعي من أعلم الناس في فنـه. ينظـر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج10ص175-183.

(3) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. 6مج. تحقيق وضبط عبد السلام محمـد هـارون. بيـروت: دار الفكر. 1399هـ/1979م. ج2ص76. مادة حضر. وهذا المعنى الذي استعمله القُطَامي، "مفتخراً ببداوة قومه، مستخفّاً بساكن القرى والمدن". ينظر: حـسين، د.محمـد محمـد: **الإسـلام والحـضارة الغربيـة**. 1 مـج. ط4. بيـروت. 1401هـ/1981م. ص5.

(4) الجوهري، إسماعيل بن حماد: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. 6 مج. تحقيق أحمد عبد الغفـور عطـار. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. 1319هـ/1979م. ج2ص633. مادة حضر.

(5) هو: الصاحب الوزير الكبير العلامة الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني الأديب الكاتب. كـان معتزلياً شيعياً. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج16ص511-514.

(6) ابن عباد، كافي الكفاة إسماعيل الصاحب: **المحيط في اللغة**. 11مج. تحقيق الشيخ محمـد حـسن آل ياسـين. ط1. بيروت: عالم الكتب. 1414هـ/1994م. ج2 ص439. مادة حضر.

(7) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.1 مـج. ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1418هـ/1997م. ص137مادة حضر.

(8) هو:العلامة كبير المعتزلة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري. وكان رأسـا فـي البلاغـة، والعربيـة، والمعاني، والبيان، وله نظم جيد. ولد في سنة 467هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج20ص151-156.

(9) الزمخشري، محمود بن عمر: **أساس البلاغـة**.1 مج. بيروت: دار صادر ودار بيروت. 1385هـ/1965م. مـادة حضر. ص130. لم يذكر رقم الطبعة.

وأوردها ابن منظور[1] ت 711هـ، في لسان العرب[2]. وعرف مجمع اللغة العربية القاهري، الحضارة بأنها: "مظاهر الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي في الحضر"[3].

وأنوه هنا على مسألة ذات أثر؛ وهي أن دخول كلمة الحضارة إلى معاجم اللغة؛ لا يعني تاريخ ميلادها. فالأصمعي حجة الأدب، ولسان العرب، والذي بين معناها؛ وهو من علماء القرن الثاني، والثالث الهجري. وإذا أضفنا إلى ذلك الشاهد الشعري الذي اتكأ عليه أهل اللغة للشاعر القطامي ت 130هـ؛ يتبين لنا أن كلمة الحضارة معروفة منذ بواكير التاريخ الإسلامي؛ وذلك إذا افترضنا حياة القطامي منذ القرن الأول الهجري، وهو افتراض صحيح.

وأما القول: إن كلمة حضارة، وتحضر لم تكن شائعة في استعمالات العرب اللغوية أول مرة، وطيلة القرون التي أعقبت الفتوحات الإسلامية؛ فهذا قول فيه تسرع، ومجانب للصواب[4].

الحضارة في الاصطلاح.

تطور مفهوم الحضارة اصطلاحاً، تطوراً مطّرداً، ورأيته واسعاً فضفاضاً، عند كثير ممن وضعوا هذا المفهوم؛ ولهذا سأسلك طريقاً مرسوماً في تعريف الحضارة، أقتبس فيه من المعاني اللغوية، ما يساعد في تأصيل حد اصطلاحي، وأستحضر من شواهد القرآن، واللغة؛ ما يؤسس لهذا التعريف. ولا بأس بالمرور بتعريفات اصطلاحية ذُكرت عن الحضارة، لتتسنى المقارنة بين ما سأصل إليه، وما قيل فيها.

---

(1) هو: القاضي جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري. وحدث بمصر ودمشق. وله نظم ونثر. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. 4 مج. بيروت: دار الكتب العلمية. ج3ص26-27. لم يذكر رقم الطبعة.

(2) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. 15مج. بيروت: دار صادر. مادة حضر. ج4ص196. لم يذكر رقم الطبعة.

(3) مجمع اللغة العربية القاهري، **المعجم الوسيط**. 2مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج1ص180. لم يذكر رقم الطبعة.

(4) هو قول قاله الدكتور عماد الدين خليل. ينظر: خليل، د.عماد الدين: **التفسير الإسلامي للتاريخ**. 1مج. ط1. بيروت: دار العلم للملايين. 1975م. ص174. وهذا الكتاب من أفضل الكتب في نظرية التفسير الإسلامي للتاريخ. ومن بواكير ما كتب في ذلك.

التعريف الأول:

عرف ابن خلدون[1] ت 811هـ الحضارة بقوله: "الحضارة: إنما هي تفننٌ في الترف، وإحكـام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه"[2].

وعد ابن خلدون العمران لوناً من ألوان الحضارة، وهو تابع للترف الذي يأتي منها.

قال: "البناء، واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدعة"[3].

التعريف الثاني:

"الحضارة: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي"[4].

التعريف الثالث:

"الحضارة: هي العادة التي يسير عليها الناس في حياتهم العامة، والخاصة في قطر من الأقطـار في زمن من الأزمان"[5].

التعريف الرابع:

"الحضارة: هي محاولات الإنسان؛ الاستكشاف، والاختراع، والتفكير، والتنظيم، والعمـل علـى استغلال الطبيعة؛ للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلها"[6].

---

(1) هو: ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن الحضرمي الأشبيلي المالكي المعروف بابن خلدون. ولد فـي سـنة 732هـ بمدينة تونس ونشأ بها. وبرع في العلوم وتقدم في الفنون. ولي قضاء المالكية بالقاهرة. ينظر: ابـن العمـاد: **شذرات الذهب**. ج4ص76.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **مقدمة ابن خلدون**.1 مج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعـات. ص172. لـم يذكر رقم الطبعة.

(3) المصدر السابق: ص342.

(4) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**. ترجمة د.زكي نجيب محمود. 14 مج. ط3. القاهرة: الإدارة الثقافية بجامعـة الـدول العربية. 1965م. ج1ص3.

(5) فروخ، د.عمر: **العرب في حضارتهم وثقافتهم**. 1مج. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. ص66. لـم يـذكر تـاريخ الطبعة.

(6) أبو خليل، د.شوقي: **الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة**. 1مج. ط 2. بيروت. دمـشق: دار الفكر المعاصر. دار الفكر. 1417هـ/1996م. ص20.

التعريف الخامس:

"كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتّصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه؛ عقلاً، وخُلُقاً، ومادة وروحاً، دنيا وديناً. فهي - في إطلاقها وعمومها - قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور، وتقلّب الأزمان، وما صورت به علائقه بالكون وما وراءه"(1).

التعريف السادس:

الحضارة: "نظام اجتماعي يجمع بين العناصر المعنوية؛ كالأفكار، والعادات، والأعراف، والقيم، والأذواق، والمشاعر، والمفاهيم، والعناصر المادية؛ كالحرف، والمعايش، والمكاسب، والصناعات، والأطعمة، والألبسة، والوسائل، والأساليب"(2).

وهناك من حلّل الحضارة إلى ثلاثة أصناف: "الصنف الأول: ما يخدم الجسد، ويمتعه من وسائل العيش. الصنف الثاني: ما يخدم المجتمع الإنساني. الصنف الثالث: ما يأخذ بيد الإنسان إلى السعادة الآخرة التي تبدأ منذ إدراك الإنسان ذاته والكون حوله"(3).

وفي دراسة قيمة معاصرة عن الحضارة؛ حاولت الوصول إلى تعريف الحضارة عبر استقراء المعاني اللغوية، وربطها بآيات من القرآن الكريم؛ فبنتْ معنى الحضارة على الشهود، وحلّلت كلمة الشهود في القرآن الكريم، والذي من معانيه شهادة التوحيد، وقول الحق، والتضحية والشهادة كوظيفة للأمة.

وانتهت إلى تعريف الحضارة بأنها: "هي الحضور، والشهادة بجميع معانيها التي ينتج عنها نموذج إنساني يستبطن قيم التوحيد، والربوبية، وينطلق منها كبعد غيبي يتعلق بوحدانية خالق هذا الكون، وواضع نواميسه، وسننه والمتحكم في تسييره، ومن ثَم فإن دور الإنسان، ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه، وتحسينها، وتزجية [تيسير] معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها .."(4).

---

(1) الكروي، د.إبراهيم سلمان: **المرجع في الحضارة العربية الإسلامية**. 1مج. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب. 1999م. ص13. لم يذكر تاريخ الطبعة.

(2) الكيلاني، د.إبراهيم زيد، وآخرون: **دراسات في الفكر العربي الإسلامي**. 1مج. ط3. عمان:1991م. ص247.

(3) الميداني، عبد الرحمن حسن: **الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم**. 1مج. ط1. دمشق: دار القلم. 1418هـ/1998م. ص19، 20.

(1) عارف، نصر محمد: **الحضارة - الثقافة - المدنية**. 1مج. ط1. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1414هـ/1994م. ص59.

وللمفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي، تحليل للحضارة؛ أنها تقوم على ثلاثـة عناصـر؛ هي: الإنسان، والتراب، والوقت؛ فقال: "حضارة = إنسان + تراب + وقت"(1).

تعليق على التعريفات السابقة:

العرض الذي قدمته لتعريف الحضارة عند نخبة من الكتّاب في الحضارة؛ رميتُ منه إلى إظهار الاختلاف، والائتلاف في التعريف. وكيف فسر كل كاتب الحضارة. ومن ثَم آتي على التعريف الذي أراه أصوب مما سبق عرضه، وأبين الأصول التي أتكئ عليها في التعريف المختار، كمـا وعدت.

أما التعريف الأول؛ فابن خلدون يحكي عن مظاهر الحضارة، وعن انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة، كما هو عنوان الفصل الخامس عشر الذي أدرج تحته تعريفه. ومـا قالـه لـيس تعريفاً محدد المعالم والضوابط.

والتعريف الثاني؛ حصر الحضارة في النظام الاجتماعي، وهذا غير كافٍ، للدلالـة عليهـا. فالنظام الاجتماعي جزء من الحضارة.

والتعريف الثالث؛ هو تعريف ركّز على أثر الحضارة. وهو عادة الناس في حياتهم..

والتعريف الرابع؛ يعود بالحضارة إلى الوجه المادي، فقط؛ كون الإنسان، مكتشفاً، ومخترعاً لحياة أفضل.

والتعريف الخامس؛ يجعل الحضارة هي الإنتاج، ويخص به إنتاج الإنسان مادياً، وروحيـاً. وهذا فيه صواب. وفيه نقص سنتمه عند اختيار تعريفنا للحضارة.

والتعريف السادس؛ نقل عن الثاني، وأضاف إليه الجمـع بـين العناصـر الماديـة، والأفكـار والعادات. وأما تصنيف الحضارة؛ فهو مقبول، ولكنه لم يخلص إلى تعريف للحضارة.

وأما الدراسة المعاصرة عن الحضارة؛ فهي دراسة قيمة، ولكن التعريف يقْصر عن التعريفِ العام للحضارة؛ فالألوهية، والربوبية، والتوحيد؛ لا تعني كل الحضارات. كما هو معلوم.

---

(2) ابن نبي، مالك: **شروط النهـضة**. 1مج. ط3. ترجمة عمر كامل مسقاوي. وعبد الصبور شاهين. دار الفكر. 1969م. ص65. لم تذكر بلد النشر.

وأخيراً، فإن تحليل الأستاذ مالك بن نبي؛ هو نظرة تحليلية لعناصر الحضارة، وليس تعريفاً لها.

ولي ملحوظتان على التعاريف السابقة:

الأولى: أنها غير جامعة. ومن شرط التعريف أن يكون جامعاً مانعاً.

والثانية: أنها طويلة جداً؛ افتقدت الإيجاز. "ما قلّ، ودلّ".

وأحسب أن معرفي الحضارة، أظهروا في تعريفاتهم أثَر الحضارة، وأغفلوا المؤثر فيها؛ فذكروا الصنْعةَ، ونسوا الصانع. وشغلتهم مفاتنُها عن سِر إنشائها، وعنصر قوامِها.

وكثرة التعاريف للحضارة؛ جعلت بعض الباحثين يعرضون عنها؛ فقال:" لا أرى حاجة إلى الإطالة في تعريف الحضارة على نحو ما يصنع كثير من الكاتبين، على أني لم أقف إلى الآن على تعريف علمي دقيق، على الرغم من كثرة ما ظهر من كتابات مختلفة عنها"[1].

التعريف المختار للحضارة:

سأستند في تجلية تعريف الحضارة إلى واقع الحضارات، وإلى فحوى الآيات القرآنية التي سردت نماذج من شتى الحضارات. وعلى الجذر اللغوي: حضر. ولست بدعاً في ذلك؛ فلئن عاد "ابن فارس" اللغوي في معنى الحضارة، إلى جذر "حضر"، وأعاده إلى أصل واحد هو "إيراد الشيء، وورودِه، ومشاهدته"؛ فالتعريف الاصطلاحي؛ أجدر بجمع شتات التعريف إلى أصل واحد. ولهذا أقول في تعريف الحضارة؛ بعد طول تأمل وتفكّر، وتدبر.

هي: "**الصورة الحاضرة التي يبدعها الإنسان لما يعتقده في الكون، والحياة**".

(1) البوطي، د.محمد سعيد رمضان: **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**. 1مج. ط1. دمشق: دار الفكر. 1987م. ص19.

مسوغات التعريف المختار للحضارة:

اهتمت التعريفات السابقة بشكل الحضارة، وأثرها. ومنها من حصرها في الحضر. وهذا خطأ؛ فالبداوة لها حضارتها، والريف له حضارته، وأهل الحضر لهم حضارتهم. وهذا واضح لا إنكار له.

وأما قول أهل اللغة: الحضارة ضد البداوة؛ فمعنى ذلك عند أهل الاجتماع، الانتقال من مرحلة إلى مرحلة كما ذكر ابن خلدون في مقدمته[1]. ومن الممكن أن يتبدى الحضري، ويتحضر البدوي، فيقال: "بدوي يتحضر. وحضري يتبدى"[2].

والقول بأن الحضارة من الحضور، ومنه حضور موارد الماء. هذا معنى فيه الانتقال إلى أماكن الحياة على أقل تقدير. فلو افترضنا أن الماء انفجر عند مضارب البدو، هل يصبحون ذوي حضارة؟ فموارد الماء تصنع حضارة شكلية من نوع معين، ولا تصنع كل أشكال الحضارات.

والحضور في المشهد الحضاري، ليس بالضرورة مرتبطاً بالماء. وذلك؛ لإمكانية إنشاء حضارة بادية، وحضارة فلاحة. قيل: "إن المدنية تبدأ في كوخ الفلاح، لكنها لا تزدهر إلاّ في المدن"[3].

ولو تأملنا الحضارات عبر التاريخ، ووقفنا طويلاً مع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الحضارات السابقة؛ سنجد كل حضارة انطلقت من منطلقات معينة في بناء صرحها. هذه المنطلقات اعتمدت في الغالب على تصوراتها، بغض النظر إن كانت صحيحة، أم فاسدة. المهم أنها بنَتْ مستقبلَها، ومظاهرها، واجتماعياتِها على معتقدات آمنت بها، ودارت حولها.

---

(1) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص172و371.

(2) الزمخشري: **أساس البلاغة**. ص130.

(3) ديورانت: **قصة الحضارة**. ج1ص5. وقد سار المترجم في هذا الكتاب على عدم التفرقة بين الحضارة والمدنية.

فالفراعنةُ شادوا الأهرامات؛ تقديساً، وتعظيماً لمن اعتقدوه رباً، ـ فرعونهم ـ. وعبدةُ النار شيدوا حضارتَهم من هذا المنطلق. والحضارة الرومانية قامت على تعدد الآلهة، وتقديسها؛ حتى جعلوا للزنا إلهاً.

والحضارة الإسلامية بنَتْ مجدها، ووطّدت أركانها، وبسقَتْ فروع دوحتِهـا؛ منطلقـة مـن تصوراتها أيضاً.

والحضارة الغربية المعاصرة قامت على أفكار تقدس المادةَ، والمـصلحةَ، وخبطـت فـي الأرض طولاً، وعرضاً؛ من تصوراتها الشوهاء.

ويتبين للباحث المتعمق، دون امتراء؛ أن الحضاراتِ تعكس التصوراتِ والعقائد؛ لما يبدعـه الإنسان في الكون، والحياة. وهي الصورة الحاضرة لتلك التصورات. وستشهد الفصولُ القادمـة من هذه الدراسة شهادةَ الحق للتعريف المختار.

وقد يقول قائل: هل هذا يعني أن الحضاراتِ كلها ذات منطلقات دينية؟ والجواب ليس ذلك بالضرورة، وإن كان ذلك له نصيبٌ وافر من الصحة. ونحن نعتبر الكفر دين، ولكنه دين باطل. قال الله ﷻ عن عقيدة الكفر:﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [سورة "الكافرون:6].

فالحضارةُ العلمانيةُ تبني حضارتَها من تصورها الاعتقادي، والدينيةُ تبني حـضارتَها مـن تصورها الديني. وتترك كلا الحضارتين للإنسان أن يبدع في الكون والحياة في جميع المجالات المادية، والمعنوية؛ من عمران، وخُلُق، وأدب، وفكر، وشعر، ونثر، وصناعة، وتجارة، وثقافة، وقانون، وكل ما ينتجه الإنسان. ترفُّ في أثوابها الناحيةُ الروحية، والماديـة، وتطيـر بهـذين الجناحين في الكون، والحياة؛ فإن أنتجتْ صورةً حسنةً زاهيةً؛ فهي حـضارةٌ صـالحةٌ راقيـةٌ رائعةٌ. وإن أنتجتْ صورةً بشعةً قاتمةً؛ فهي حضارةٌ فاسدةٌ شقيةٌ.

فريشةُ الفنّان ترسم خيالاتِ ما يعتقده. ويراعةُ الشّاعر تُسطر عرائس الشعر، مما يشعر به. وقلم الأديبِ يخط روائع البيان مما يتصوره. وعقْلُ المهندسِ يبدِع روائع البنيـان ممـا ذهنُـه يبلْوره.

وكل ذلك منضبطٌ، ومنطلِقٌ من ما يعتقده الإنسان. فيقال: فـن إسـلامي، وفـن رومـاني. وقصيدةٌ روحيةٌ، وقصيدةٌ إباحية. وهذا الشاعر منطلقاتُه غربيةٌ. وذاك فيها روح الشرق. حتـى قَصةُ الشعر، واللباس، أخذا طابع التصور الاعتقادي.

ولا ننسى أننا نقول: إذا تصرف واحدٌ تصرفاً غير لائق؛ يقال هذا سلوكٌ غيـر حـضاري؛ ونعني: أنه لا يتّفقُ مع الأخلاق العامة. وإذا سلك مسلكاً حسناً؛ قيل: هـذا سـلوكٌ حـضاري. وهكذا.

وكل حضارةٍ تحاسب على معتقداتِها، وتحاكم وفق تصوراتِها. فيقال: حضارةُ الغربِ تنادي بالحرية؛ فهل قتلُ الأبرياءِ حضارةٌ، وحرية؟

وباختصار؛ الحضارة فيها حضورٌ يعكس تصور، ومعتقد أهلِها، أياً كان نوع، وشكل هـذا التصور.

وما أجملَ قولَ الزمخشري في تحليل مفهوم الحضارة! وهو يذكر الجانب الأخلاقي منهـا؛ فقال: "وقريش والأنصار، وثقيف أهل حـضر، وهـم أعـرف بمكـارم الأخـلاق"[1]. فـربط الزمخشري، بين التصرف الحسن، والحضارة؛ وكأن الحضارة في نظره، فِعلٌ، وسلوكٌ، وخُلُقٌ، وعمل.

---

(1) الزمخشري، محمود بن عمر: **الفائق في غريب الحـديث**. 4مج. ط2. تحقيق علي محمد البجاوي. ومحمد أبي الفضل إبراهيم. لبنان: دار المعرفة. ج1ص11. بلا تاريخ.

المبحث الثاني

المدنية في اللغة والاصطلاح

المدنية في اللغة:

الفعل الثلاثي للمدنية هو: "مدن"، ومنه المدِينَة. وكل أرضٍ يبنى بها حصنٌ؛ فهي مدينة[(1)]. وخلت المعاجم القديمة على ما أعلم من كلمة "مدنية". وعرفها مجمع اللغة العربية القاهري: أنها "الحضارة، واتساع العمران"[(2)].

المدنية في الاصطلاح:

التعريف الأول:

الحضارة والمدنية سواء[(3)].

التعريف الثاني:

"المقصود بهذا المفهوم في جوهره؛ يدور حولَ نَمطِ حياةِ المدينة بما يعكسه من قيم، وسلوكيات، ونظم، ومؤسسات..."[(4)].

التعريف الثالث:

هي: "الجانب المادي من الحضارة؛ كالحرف، والمكاسب، والصناعات، والوسائل المادية، والأساليب العلمية. وتمتاز المدنية بالتعميم؛ فهي مِلْكٌ لجميع البشر، ولا تصلح لتميز أمةٍ عن أمة"[(5)].

---

(1) ابن منظور: **لسان العرب**، ج13ص402.

(2) مجمع: **المعجم الوسيط**، ج2ص865.

(3) ينظر: ديورانت: **قصة الحضارة. ج**1ص3. وجدي، محمد فريد: **دائرة معارف القرن العشرين**. 10 مج. ط3. بيروت: دار المعرفة. 1971م. ج8ص553. والكروي: **المرجع في الحضارة العربية الإسلامية**. ص13.

(4) عارف: **الحضارة - الثقافة - المدنية**. ص34.

(5) الكيلاني، وآخرون: **دراسات في الفكر العربي الإسلامي**. ص247.

وهناك من عد الحضارة عقل، وروح. والتمدين عقل بلا روح. وأن التمدين تفسير للحضارة[1].

ومن الباحثين من ذهب إلى "أن ارتقاء حياةِ الإنسان؛ ذو بعدين أساسيين: بعدٌ شكلي، وبعدٌ داخلي، رأوا أن يطلقوا مصطلح (المدنية) على ما يتم من ارتقاء في مضامين الحياة الحضرية. ومصطلح (الحضارة) على ارتقاء الشكلي الذي يتمحور حول وسائل العيش وأدوات الإنتاج"[2]. وهناك من عد المدنية نهاية لمطاف الحضارة[3].

وسواء أكانت المدنية هي الحضارة من حيث المعنى، أم افترقتا؛ فالذي الذي يهمني من ذلك كله، هو الحضارة بالمفهوم الذي رسمته، وبالحد الذي حددته. بيد أني أجنح إلى القول: بأن الحضارةَ أعم من المدنية، والمدنيةُ مظهرٌ خلاّبٌ من مظاهر الحضارة. وأميلُ إلى التعريف الثالث للمدنية[4].

---

(1) ينظر: أحمد، د.أحمد رمضان: **الخلافة في الحضارة الإسلامية**. 1مج. ط1. جدة: دار البيان العربي. 1403هـ/1983م. ص10،9.

(2) بكّار، د.عبد الكريم: **تجديد الوعي**. 1مج. ط1. دمشق: دار القلم. 1421هـ/2000م. ص135.

(3) اشبنغلر، أسوالد: **تدهور الحضارة الغربية**. 2مج. ترجمة أحمد الشيباني. بيروت: دار مكتبة الحياة. ج1ص87.

(4) للاستزادة في معنى المدنية، ينظر: الغلاييني، مصطفى: **الإسلام روح المدنية**. 1مج. ط3. بيروت: المكتبة الأهلية. 1348هـ.ص10-25. والكتاب مفيد جداً، رد مؤلفه على دعاوى اللورد كرومر الحاكم الإنجليزي لمصر، في اتهاماته للإسلام.

الفصل الأول

مقومات الحضارة في القرآن الكريم

المبحث الأول: الإيمان بالله ﷻ والتصور الاعتقادي الصحيح.

المبحث الثاني: العلم.

المبحث الثالث: العمل الصالح.

المبحث الرابع: العدل.

المبحث الخامس: الأخلاق.

المبحث السادس: الاقتصاد المزدهر.

المبحث السابع: الشمولية.

المبحث الثامن: الخطاب الإنساني العام.

المبحث التاسع: الأمن والنظام السياسي المستقر.

المبحث الأول

الإيمان بالله ﷻ والتصور الاعتقادي الصحيح

الإيمان بالله ﷻ؛ هو الأساس الذي تُبنى عليه الحضارةُ الراشدة، والأصلُ الذي تتفرع منه فروعها، وتزدهي به ألوانُها، وتخضر أوراقُها، وتدوم خضراؤها.

وأما التصور الاعتقادي الصحيح؛ فأعني به تلك الرؤية أو التصور عن الله ﷻ، والكون، والإنسان، والحياة. والذي ترسمه العقيدة الصحيحة؛ فيسير الإنسان على دربها، ويستضيء بنورها، ويعلم موقعه في هذه الحياة، ويدرك رسالتَه فيها.

وقلت: الصحيحة؛ خروجاً من العقائدِ الفاسدة، والتصورات المنحرفة التي تنتج نتاجاً فاسداً. فالحضارةُ وليدةُ الأفكار، وثمرةُ التصورات.

وللتصور الإسلامي أهمية بالغة في التفكير، وحركة الحياة. و"لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود"(1). "ومن ثَم لم يكن بد - وقد بعد الناس عن القرآن الكريم ببعدهم عن الحياة الواقعية في مثل جوه - أن نقدم لهم حقائقَ التصور الإسلامي عن الله، والكون، والحياة، والإنسان من خلال النصوص القرآنية،.... إننا لا نبغي بالتماس حقائق التصور الإسلامي؛ مجرد المعرفة الثقافية؛ لا نبغي إنشاء فَصلٍ في المكتبة الإسلامية، يضافُ إلى ما عرف من قبل باسم الفلسفة الإسلامية... إن هذا الهدف في اعتبارنا لا يستحق عناء الجهد فيه! ... إنما نحن نبتغي الحركةَ من وراء المعرفة. نبتغي أن تستحيل هذه المعرفةُ قوةً دافعة؛ لتحقيق مدلولِها في عالَم الواقع. نبتغي استجاشةَ ضمير الإنسان؛ لتحقيق غايةِ وجودهِ الإنساني؛ كما يرسمها هذا التصور الرباني"(2).

والإيمان بالله ﷻ الذي هو أساس كل شيء، لا نقصد به تلك النظريات التي حاولت أن تقوقع الدين في قُمقم، أو عزلتْ الدين عن صناعةِ الحياة؛ أو جعلتْ الإيمان بالله مجرد فكرةٍ جميلةٍ، لا قوامةَ لها في الحياة.

---

(1) قطب، سيد: **خصائص التصور الإسلامي**. 1مج. ط2. مصر: دار إحياء الكتب العربية. 1965م. ص3.

(2) المصدر السابق: ص8.

ولست في هذا المقام مقام المفصل بنقاشِ النظرياتِ الخاطئة، ولا في مقام العـاد لمثالبهـا، والمبين لعوارها. "فالفلاسفة جعلوا الألوهية فكرة مجردة لا مضمون لها؛ فالذات التي لا صفات لها هي فكرة عقلية ليس لها وجود في الحقيقة؛ وهي أشبه بالعدم منهـا بـالوجود؛ ولـذلك ردد علماؤنا كثيراً في مدوناتهم أن المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً"[1].

والذي يهمني؛ هو حديثُ القرآن عن الإيمان بالله ﷻ، فـي إنـشاءِ الحـضارات، وبنـاءِ صروحِها، وهو حديثُ الإيمان الانقلابي[2] بكل مفاهيمه، صانع التصورات الصحيحة، ومـشيد الحضارات العريقة. فالإيمان بالله ﷻ هو الذي ينبثق عنه؛ تصور اعتقادي صحيح، ولا يعرفُ المفهوم البارد لمعنى الألوهية عند الفلاسفة. و" التصور الاعتقادي؛ تصور يستقر فـي القلـب، ويرتضيه العقل، يتفاعل مع المشاعر، وينعكس على التصرفات في واقع الحياة"[3].

و"الإيمان بالله معناه الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيءٍ، ومليكه، وخالقه، وأنـه الـذي يستحق وحده أن يفرد بالعبـادة"[4]. قـال الله ﷻ:﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[سورة الأعراف:54]. والله ﷻ "هو صاحب الخَلْق، والأمر؛ فلا خالق معه؛ فكـذلك لا آمـر معـه"[5]. "وحيث إن الله هو خالقُنا، ومِمدنا باستمرار الوجود، ورازقُنا بعطائه المحمود، والمنعم بجلائـل النّعم، ودقائقها، والذي بيده نواصينا مِلكاً، وتصرفاً، وحياة، وموتاً؛ فهو الذي يملك تحديد طريق سلوكِنا في الحياة فِعلاً، وقولاً، واعتقاداً"[6].

---

(1) الأشقر، د.عمر سليمان: **أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة**. 1مج. ط3. عمان: دار النفـائس.1418 هـ/1997م. ص159.

(2) أقصد بذلك؛ إحداث التغيير الذي يبدأ أولاً في النفس الإنسانية، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾[سورة الرعد:11].

(3) عزام، د.عبد الله: **العقيدة وأثرها في بناء الجيل**. 1مج. القدس: منشورات دار الحديث الشريف. بلا طبعة ولا تاريخ. ص27.

(4) ياسين، د.محمد نعيم: **الإيمان أركانه حقيقته نواقضه**. 1مج. ط1. عمان: 1398هـ/1978م. 6ص. الـسلمان، عبـد العزيز المحمد: **الكواشف الجلية عن معاني الواسطية**. 1مج. ط1. السعودية: نـشر شـركة الراجحـي للـصرافة. 1401هـ/1981م. ص53.

(5) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. 6مج. ط9. بيروت. القاهرة: دار الشروق. 1400هـ/1980م. ج3ص1297.

(1) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: **العقيدة الإسلامية وأسسها**. 1مج. ط3. دمشق. دار القلـم: 1403هـ ـ/1983م. ص254.

وفي الحوار الإيماني ما بين نبي الله ﷺ، يوسف ﷺ، والسجناء في السجن؛ ما يرسم صورةً لهذا الإيمان الذي يثمـر العبـادة، قـال الله ﷻ:﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة يوسف:40]. ومعنى إن الحكم: "في أمر العبادة، والدين"(1).

وتوحيد الله ﷻ هو أساس الإيمان الصحيح بـه ﷻ، قـال الله ﷻ:﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة محمد:19].

وكذلك شهد الله بنفسه على هذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته، وأنبياؤه، ورسـله(2) فقـال ﷻ:﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:18].

والتوحيد الخالص الذي هو أساس الإيمان، بدأت الدعوة إليه مع نزول الرسالة، وبدايةِ التكليف الرباني لنبيه محمد ﷺ. فقال الله ﷻ:﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الإخلاص:1-4]. فسورة "الإخلاص" "مشتملة على توحيد الألوهية، والربوبية، والأسماء، والصفات، جامعة بين الإثبات لصفات الكمال، وبين التنزيه له ﷻ عن الأشباه والأمثال"(3). ولا يفوتني هنا أن أذكر ما قاله علماء التوحيد، عن أنواعه؛ وهي توحيد الله في الربوبية، والألوهية، والصفات(4).

ولا أرى من المناسب هنا الدخول في تفصيلات تلك الشروح المطولة، وأستعيض عنها بمفهوم مبسط لها.

---

(2) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل**. 1مج. ط1. اعتنى به خليل مأمون شيحا. بيروت: دار المعرفة. 1423هـ/2002م. ص516.

(3) الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة: **شرح العقيدة الطحاوية**. 1مج. ط8. تحقيق جماعة من العلماء. خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي. 1404هـ/1984م. ص90.

(1) حكمي، حافظ أحمد: **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**. 3مج. ط1. تحقيق عمر بن محمـود أبـي عمر. الدمام: دار ابن القيم. 1410هـ/1990. ج1ص143.

(2) ينظر: الطحاوي: **شرح العقيدة الطحاوية**. ص79،78. والمودودي، أبو الأعلى: **المصطلحات الأربعة فـي القـرآن**. 1مج. القاهرة: دار التراث العربي. بلا تاريخ ولا طبعة. ص13، وص39. ياسين: **الإيمان**. ص6، ص10، ص13.

أما توحيد الربوبية؛ فيعني: "أن نوحد الله ﷻ في أفعاله"[1]. "وهو الإقرار بـأن الله ﷻ رب كل شيءٍ، ومالكُه، وخالقُه، ورازقُه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك"[2]. ولا شك أن "الإقرار بالربوبية أمر فطري"[3]. قـال الله ﷻ:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة يونس:31-32].

وأما توحيد الألوهية؛ فيعني:" أن نوحد الله ﷻ في أفعالنا"[4]. وهو إفراد الله ﷻ بجميع أنواع العبادة، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى[5]. فلا نشرك مع الله أحداً في أفعالنـا وقرباتنـا. لقولـه ﷻ:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام162-163]. واتفقت رسالاتُ الأنبياء على إرساءِ دعائمِ التوحيدِ في الحياة، وتحقيقِ معنى الألوهية، قال ﷻ:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء:25].

كما أن الألوهية؛ تعني العبادة[6] والعبادة مفهوم شامل؛ يستوعب كل ما يقوم بـه الإنـسان، ويتعبد به ربه ﷻ. "وتوحيد الألوهية؛ هو التوحيد الذي أُرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب"[7].

---

(3) أبو فارس، د.محمد عبد القادر: **أسس في التصور الإسلامي**. 1مج. ط1. عمان: دار الفرقـان. 1402هـ ـ/1982م. ص42.

(4) حكمي: **معارج القبول**. ج1ص17. وينظر: الطحاوي: **شرح العقيدة الطحاوية**. ص79. آل الـشيخ، عبـد الـرحمن حسن: **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**. 1مج. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. بلا تاريخ ولا طبعة. ص12.

(5) الطحاوي: **شرح العقيدة الطحاوية**. ص245.

(6) أبو فارس: **أسس في التصور الإسلامي**. ص45.

(7) ينظر: حكمي: **معارج القبول**. ج2ص459. الطحاوي: **شرح العقيدة الطحاوية**. ص78. السلمان: **الكواشف الجليـة**. ص418.

(1) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان في تفسير القرآن**. 30مج. بيروت: دار الفكـر. 1405هـ ـ. بـلا طبعة. ج1ص 54.

(2) الطحاوي: **شرح العقيدة الطحاوية**. ص96.

"وأصل الألوهية وجوهرها؛ هو السلطة؛ سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكمٌ مهيمن على قوانين الطبيعة؛ أو من حيث أن الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرهـا؛ تابع لإرشادها؛ وأن أمرها في حد ذاته؛ واجب الطاعة، والإذعان"(1).

وتوحيد الله ﷻ في الصفات يعني "الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ يتـصف بجميـع صـفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، وأنه منفرد عن جميع الكائنات؛ وذلك بإثبات ما أثبتـه ﷻ لنفسه؛ أو أثبته له رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من الأسماء، والصفات الـواردة فـي الكتاب، والسنة، من غير تحريف ألفاظها، أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها، أو نفي بعضها عـن الله ﷻ، ولا تكييفها بتحديد كنهها، وإثبات كيفية معينة لها. ولا تشبيهها بصفات المخلوقين"(2).

والإيمان الذي غرس القرآن معانيه في النفوس؛ هـو ذلـك الإيمـان المحـرك للـشعور، والمشاعر، والمؤثر في سلوكها. كما قلت من قبل: إيمان انقلابي بالمعنى الشامل للانقلاب.

وأما التصور عن الكون، فهذا التصور واضح جلي في العقيدة الصحيحة؛ وهـو أن الكـون مسخرٌ بما فيه للإنسان، مذلّلٌ بكليته له. فقـال ﷻ:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة إبراهيم32-34].

وهناك علاقة أخرى فريدة من نوعها بين الإنسان، والكون؛ هي أن هذا الكون مسبحٌ لله ﷻ، ويلتقي مع الإنسان المؤمن في هذا التسبيح. فقـال الله ﷻ:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [ســـــورة الإسراء:44].

والكون بما فيه من جلال، يدلّ على الله ﷻ ذي الجلال. والقرآن بما فيه من دلائل الإعجاز، يدلّ على الله الحكيم العليم. فالقرآن، والكون يشيران بالسبابة إلى الله الخالق.

---

(3) المودودي: **المصطلحات الأربعة في القرآن**. ص24.

(4) ياسين: **الإيمان**. ص15. وينظر: الأشقر: **أسماء الله وصفاته**. ص97.

"فالقرآن الكريم ينظر إليه ربنا ﷻ على أنه يضارع الكون. كأن الكون وضِع في كفّة، والقرآن في كفّة، فكلاهما يوازي الآخر، عندما أراد ربنا أن يتكلم عن بركته، وامتداد نعمه، ذكر مرة القرآن فقال:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[سورة الفرقان:1]. وذكر مرة الكون فقال:﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الملك:1]. فهذا التوازن بين الكون والوحي، يبقى لآخر الزمن. كلاهما يدلّ على الآخر"(1).

وعرض القرآن الكريم لآيات الكون؛ "ليوصل الإنسان إلى كبرى الحقائق التي تكون معرفتها كذلك أرفع أنواع المعرفة من حيث موضوعها أعني الحقيقة الإلهية"(2).

وعلاقة الإنسان مع الكون؛ هي علاقة تعمير، لا علاقة صراع. قال الله ﷻ:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [سورة هود:61]. يعني: "أمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه"(3).

وأما التصور عن الإنسان: فالإنسان خليفة الله في الأرض، " وموقف القرآن الكريم من المسألة الحضارية في جانبها الإنساني بدأ بخلق آدم ﷺ"(4).﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة البقرة:30]. "وحقيقة الخلافة؛ ترقية الذات الإنسانية عبر التفاعل مع الكون على خط العبودية لله"(5).

والإنسان له مهمة في الحياة، ورسالة يمضي بها؛ بها سعادته في مرحلة الدنيا المؤقتة، وبها سعادته في المرحلة الأبدية؛ بالآخرة الباقية. وعندما هبط أبو البشر آدم عليه السلام من الجنّة، حمل رسالة الهدى.﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

---

(1) ينظر: الغزالي، محمد: **كيف نتعامل مع القرآن**. 1مج. ط1. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1414هـ/1991م. ص268.

(2) المبارك، محمد: **العقيدة في القرآن الكريم**. 1مج. ط2. بيروت: دار الفكر. 1394هـ/1974م. ص12.

(3) الزمخشري: **الكشاف**. ص489.

(1) خليل: **التفسير الإسلامي للتاريخ**. ص190.

(2) النجار، د.عبد المجيد: **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**. 1مج. ط2. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1413 هـ/1993م. ص66.

وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ســـــورة البقرة:38-39].

والإنسان مخلوق مكرم، كرمـه ﷲ ﷻ، فقـال:﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء:70].

ومنذ اللحظة الأولى التي وطأت قدم الإنسان الأرض؛ أضاء ﷲ ﷻ له الطريق بنور الإيمان به، وتوالى الرسل تترى على البشر يحملون لهم أنوار الهداية الربانية، ويضعون لهـم معـالم الطريق؛ ليكون الإنسان على بينة واضحة من حقيقة وجوده على الأرض، ورسالته فيها.

وبين ﷲ ﷻ رسالة الإنسان في الحياة؛ وهي تحقيق عبادته بالمفهوم العام الـشامل للعبـادة؛ فقال ﷲ ﷻ:﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[سورة الذاريات:56].

وحذّر الله ﷻ، الإنسان، وهو يختار بين طريقين؛ الهدى، أو الضلال؛ فقال ﷻ:﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة طه:124-126].

والإنسان صانع الحضارة، وبانيها، هو محل الخطاب الرباني، ومن أجـل سـعادته أُرسـل الرسل، يحملون إليه كُتب الهداية؛ ليرسي دعائم الحقّ، والعدل في الدنيا؛ ويبني حضارة يعـيش في ظلالها بهناءة. "والوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقة؛ إنما هي عمـارة الأرض، بمعناها الشامل العام. وهي تشمل إقامة مجتمع إنساني سليم، وإشادة حضارة إنـسانية شـاملة؛ ليكون الإنسان بذلك مظهراً لعدالة ﷲ ﷻ، وحكمه في الأرض"(1).

وللقرآن الكريم منهجه الخاص في تربية الإنسان، وتحضيره لهذا الدور الجلـل، والمهمـة الخطيرة، وتهيئته للوظيفة الكبرى؛ في حمل الأمانة؛ ورفع الراية؛ في جلْبِ الـسعادة للبـشرية؛ ونَشْرِ أشرعةِ الحضارةِ على ساريةِ العقيدة الصحيحة.

---

(1) البوطي: **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**. ص26.

ويظهر ذلك؛ في التصور عن الإنسان باني الحضارة، ورافع قواعدها، أنه منـاط التكليـف الثقيل؛ فأعده الإسلام الإعداد المناسب؛ للقيام بأعباء الأمانة الجليلة.

وخاطب القرآن الإنسان في جوهره، وأصل كينونته، وهي نفسه التي بين جنبيـه؛ فزكّاهـا بمبادئه السامية، ونمى بذرة الخير فيها؛ لتنمو أشتالاً مثمرة في الحياة، بطلع نـضيد، وأسـلوب فريد. فقال ﷻ:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾[سورة الشمس:9-10].

ولم يترك الإنسان في ساحة البناء، والعطاء منفرداً، أو تائهاً في صحارى الفكر، والهـوى. كما لم يهمل في سفره الطويل من الدنيا إلى الآخرة، بلا زاد؛ فشحنته آيات القرآن الكريم بـزاد وعتـاد، وعزيمـة، ومـضاء،﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٧ ﴾[سـورة البقرة:97].

والإنسان جوهرةُ المخلوقات، وأسمى أجناسِها، مدحه الحقّ ﷻ، وأبان فضله، فقال ﷻ:﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾[سورة التين:4-6].

هذا الإنسان خليفة الله في أرضه، والمؤتمن في تسيير دفّة الحياة في الدنيا. ذُللت له الصعاب؛ فكان المخلوق المدلل. فإن اغتذى من مائدة الرحمان؛ فقد سعِد وأسعد، وإن أعرض عنها، ونكص على عقبيه؛ فإنه يشقى، ويشقي﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾[سورة فصلت:46].

ويكفي الإنسان جلالةَ قدرٍ، وعلو منزلة، وفخامةَ مقعد، أن كان محور التكليـف الربـاني؛ فخاطبه الله ﷻ العظيم جلّ في علاه. ومن خطابه لـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ ﴾[سورة الانشقاق:6]. فماذا أعد الإنسان، لذلك اللقاء حينما سيسأل عن الأمانة التي تقلّـدها، على كتفيه. تلك الأمانة التي أشفقت السماوات بعظمتها من حملها، وارتجفت الجبال بـضخامتها من رفعها:﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ ﴾[سورة الأحزاب:72].

ورحلة الإنسان في الحياة، وبناء الحضارة الراقية الزاهية، كما صورها القرآن؛ هي جد لا هزل فيه، ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ ﴾[سورة الطارق:13-14].

إنها تخلو من الخَوَر في المنهاج، والرسالة؛ لتصل به إلى شواطئ النجاة، وسواحل الاطمئنان، ومرساة الفوز المبين﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ١٢ ﴾[سورة مريم:12] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠ ﴾ [سورة الأعراف:170].

لقد كان القرآن الكريم بارعاً؛ في بناءِ الشخصيةِ الإنسانيةِ القادرةِ على حمل مشعل الحضارة، وهداية الحشود البشرية إلى منارة الإسلام؛ فاستضاءت بها أرجاء الجزيرة العربية؛ واستقطبت أنوارها جموع البشر في الكرة الأرضية.

وأما التصور عن الحياة؛ فهو تصور دقيق، عرضه القرآن الكريم. منذ أن كان الإنسان تراباً، إلى مرحلة النطفة إلى أن أصبح بشراً سوياً، ورسم القرآن للإنسان ملامح الحياة منذ نشأته الأولى؛ فعرفه أن بعد الحياة الدنيا بعث، ونشور، ثم حياة أبدية سرمدية؛ هي حصاد عمله في مرحلة الدنيا. قال ﷻ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾ [سورة الحج:5-7].

وأوضح القرآن الكريم للإنسان، أن الحياة الدنيا هي المرحلة المؤقتة من الحياة؛ وهي الطريق الموصل إلى الحياة الآخرة الدائمة؛ وأن أعماله في الدنيا؛ ستقوده في نهاية المطاف إلى الحياة الأخرى؛ حيث الجزاء الأوفى؛ إما نعيم مقيم في الجنة؛ أو جحيم، وعذاب في النار. فبناء الحضارة الصالحة؛ عمل يثقل الميزان بالحسنات، وبناء الحضارة الفاسدة؛ منزلق ينحدر ببانيها في دركات الجحيم.

وعاب القرآن على الذين قصرت هممهم تحبو على الطين، ولا تحلّق في السماء، ولا ترنو إلى خارج أسوار الدنيا، إلى الحياة الحقيقية،﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:64]. وقال ﷻ:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة هود:15-16].

والحياة الدنيا؛ دار عمل. والآخرة؛ دار جزاء، وبما أن الحياة الدنيا دار عمل؛ فمهمة الإنسان تعمير هذه الحياة، إلى أن يأتي القضاء المحتوم بالنهاية قال الله ﷻ: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:36].

فالنظرة للحياة أنها خلقت؛ لتعمر. وخير ما تعمر به الحياةُ، العملَ الصالح، بالمفهوم الشامل للعمل. ونظر القرآن للحياة الدنيا على أنها دار ابتلاء في تحسين الأعمال، وإجادة الأفعال. فقال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴿٢﴾﴾[سورة الملك:2]. ولكي يحفّز الله ﷻ البشر إلى تحسين أعمالهم في الدنيا أخبرهم أنها ستعرض عليه، وهو الله العليم الخبير. فكان التصور الصحيح للدنيا والآخرة عاملاً إيجابياً في دفع عجلة العمل، وتحسينه، والحذر من الإساءة فيه، فقال ﷻ:﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[سورة الزلزلة:7-8]. وقال الله ﷻ عن زينة الأرض في الحياة الدنيا:﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾[سورة الكهف:7-8].

وبين الله ﷻ التصور الخاطئ للكافرين عن الحياة، وعاب تلك النظرة القاصرة لها، فتلهوا بالزينة المؤقتة، وركنوا إليها، ونسوا أن الدنيا معبر الآخرة؛ فقال ﷻ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة يونس:7-8].

أما أولئك الماديون، الذين لا يرون من الحضارة إلا جانب الترف، والمتاع، ويغرقون في أوحال المادة، وبحار المتاع، ونسوا أن الحضارة فيها أشواق روحية؛ فقال ﷻ عنهم:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾[سورة محمد:12].

ونبه القرآن الكريم، إلى مسألة ذات أهمية في الحياة الدنيا؛ وهي عدم الاغترار بهذه الحياة، ونسيان أن هناك حياة أخرى؛ ليظلّ الإنسان متطلعاً دوما إلى الحياة الآخرة، ويحسن عمله في الحياة الدنيا؛ فقال ﷻ: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ [سورة الحديد:20].

فالتصور الاعتقادي الصحيح؛ هو محرك لعوامل الدفع الحضاري، وحادي سيرها، وهو روحها. فتعست الحضارة التي لا روح فيها. ولئن كانت الحضارة جسداً؛ فروحها الإيمان. ولا حياة لجسد بلا روح. ولئن كانت الحضارة أفكاراً؛ فلب أفكارها، وجوهر معدنها؛ هو التصور الاعتقادي الصحيح؛ الذي يلهم أفكارها، ويبلور خططها، وبه تنظر الحضارة إلى مستقبلها.

" ومن المعلوم أنه حينما يبتدئ السير إلى الحضارة، لا يكون الزاد بطبيعة الحال من العلماء، والعلوم، ولا من الإنتاج الصناعي، أو الفنون، تلك الأمارت التي تشير إلى درجة ما من الرقي، بل إن الزاد هو "المبدأ" الذي يكون أساساً لهذه المنتجات جميعا"[1].

(1) ابن نبي: **شروط النهضة**. ص73-74.

المبحث الثاني

العلم

العلم مفتاح الحضارة، وباب كنوزها، ووسيلة بنائها. وبرهان قولنا؛ هو أول ما نـزل مـن وحي السماء، على قلب نبينا محمد ﷺ، ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[سورة العلق:1-5].

فما من حضارة في التاريخ، كانت أبجديتها الأولى ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ سوى حضارة الإسلام، التي أجلّت العلم، وذكرتْ وسائله؛ القراءة،﴿ٱقۡرَأۡ﴾، والكتابة ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾.

ومع نزول آية ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، كان بدء الإعلان الإلهي لبناء حضارة جديدة، علـى أسـس متينـة. واستعد الكون لفتح صفحة من صفحات الحضارة المتميزة، والتي انتظرتها البشرية منذ عهـود طوال؛ انقطع فيها الوحي الإلهي. وكان الناس يلوبون عطشاً من الظمأ، والـساقية بعيـدة فـي السماء؛ فقربها الوحي الأمين. " حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء كما تجلّت من قبـل فـي الوادي المقدس،... نشأت حضارة، فكأنما ولدتها كلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، التي أدهشت النبـي الأمـي ﷺ، وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللحظة، وثبتْ القبائل العربية على مسرح التـاريخ؛ حيـث ظلت قروناً طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن، والرقي"(1).

والقراءة باسم ﷲ، لها مغزى؛ كي لا يكون شطط في العلم، ولا غرور؛ وليكون العلم فـي خدمة الرسالة، وبنـاء الحـضارة الرشـيدة﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [سورة الرحمن:1-4].

والعلم في نظر القرآن له رسالة، وهدف؛ يتحققان بتعميـق الـصلة بـالله ﷻ، وبربطهمـا بالتصور الاعتقادي الصحيح. فالعلم لا يقصد لذاته؛ فهو باب يدلّ على العليم الذي﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [سورة العلق:5]. فالعلم في الحضارة الإسلامية؛ تنوير للظلمات؛ وقناديل فـي رحلـة استكشاف الكون؛ للتقرب من ﷲ ﷻ.

---

(1) ابن نبي: **شروط النهضة**. ص76.

وتلمست الشريعة الإسلامية كل طريق في نهايته إضاءة إلى علم مفيد؛ يزداد فيها السالك عِلماً. وجعلتْ العلم حركةً جماهيرية شعبية تدب في الحياة. فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "اغد عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً"[1].

وعن أبي هريرة[2] ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالماً، أو متعلماً"[3].

والحضارة الإسلامية حاملة مشعل العلم إلى البشرية؛ لها آثار في كل بقعة حلّت بها، وازدانت كل أرض تشربت خيرها، بشواهد العلم؛ فالشهود الحضاري، لم يأفل نجمه على أي بلد، سطعت فيه شمس الإسلام العظيم. وعلى سبيل المثال، "المسلمون لم يمض على فتحهم لمصر خمسة قرون حتى بلغ عدد مدارس الإسكندرية عشرين مدرسة، بينما الرومان لم يستطيعوا أن يؤسسوا في مصر أكثر من مدرسة واحدة خلال سبعة قرون، ثم لم يلبثوا أنفسهم أن أغلقوا تلك المدرسة"[4].

---

(1) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن: **سنن الدارمي**. 2مج. ط1. تحقيق فواز زمرلي وخالد العلمي. بيروت: دار الكتاب العربي. 1407هـ. باب في ذهاب العلم. رقم الحديث248ج1ص91. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد: **مصنف ابن أبي شيبة**. تحقيق كمال الحوت. 7مج. ط1. بلا تاريخ. ج5ص284. البزار، أبو بكر محمود بن عمرو: **مسند البزار**. 9مج. ط1. تحقيق د.محفوظ الرحمن زين الله . بيروت والمدينة المنورة: مؤسسة علوم القرآن. ومكتبة العلوم والحكم. 1409هـ. ج9ص94. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**. 20مج. ط2. تحقيق حمدي السلفي. الموصل: مكتبة العلوم والحكم. 1404هـ-1983م. ج9ص150.

(2) هو: عبد الرحمن بن صخر الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي اليماني سيد الحفاظ الأثبات. أسلم سنة7هـ. ومات في سنة57هـ. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. والذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2 ص: 578.

(3) الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**. 5مج. تحقيق أحمد شاكر وآخرين. بيروت: دار إحياء التراث العربي. بلا تاريخ ولا طبعة. كتاب الزهد. باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ. رقم الحديث2322. ج4ص561. وقال الترمذي: حسن غريب. ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجة**. 2مج. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار الفكر. بلا تاريخ ولا طبعة. كتاب الزهد. باب مثل الدنيا. رقم الحديث4112. ج2ص1377. وقال الألباني: "حديث حسن". ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح الجامع الصغير وزياداته**. 3مج. ط3. بيروت: المكتب الإسلامي. 1402هـ/1982م. ج2ص60.

(4) الدواليبي، د.محمد معروف: **موقف الإسلام من العلم وأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية**. 1مج. القاهرة: دار الكتاب المصري. بيروت: دار الكتاب اللبناني. بلا طبعة ولا تاريخ. ص36.

وربط ابن خلدون بين الحضارة واتساع العلوم وازدهارها، فقال: "العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة"[1].

والشواهد على تولّد العلم من رحِم الحضارة الإسلامية، أكثر من أن تحصى، وأبلغ من أن تستقصى؛ فيكفي أن نعرج على "إسبانيا [الأندلس]، فكان فيها وحدها للمسلمين سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب. يعني أكثر من نصف مليون مجلد. وفي الوقت نفسه، لم يستطع شارل الحكيم بعد أربعمائة سنة من هذا التاريخ أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد. وكاد أن يكون ثلثها خاصاً بعلم اللاهوت"[2].

ونحن في عصر قُدس فيه العلم، ونهج به أربابه؛ منهج الباطل، وأذاقوا البشرية ويلاته، وابتكروا وسائل التدمير الهائلة؛ كالأسلحة النووية، والجرثومية، وأشباهها. وتمسكت قوى الشر بمبتكرات هذه العلوم، وصبت على الشعوب المستضعفة مرارة شرورها، وجرعتهم الصاب والعلقم من مكتشفاتها. وجعلت العلم وسيلة؛ لاستعباد الأمم، وذلّتها. وسلّطت على رقاب الناس سيف العلم الصقيل، تضرب به رؤوس المستضعفين. وعد من الحقائق التي لا تقبل الجدل، أن من أكبر التحديات الحضارية في هذا العصر، هو التحدي العلمي بكل المعاني العميقة التي يوحي بها، وبجميع مفاهيم العلم، ودلالاته[3].

وهذا التحدي العلمي هو تحد حقيقي، "والإسلام قَبِلَ التحدي منذ اللحظة الأولى، بل إنه دعا إليه؛ أي أنه جعل محاولة اكتشاف سر العالم على المستويين المعنوي، والمادي؛ عملاً من أعمال البر، والتقوى، بل مطلباً رئيسياً من مطالبها"[4].

---

(1) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص434.

(2) لوبون، د.غوستاف: **حضارة العرب**: 1مج. ط3. ترجمة عادل زعيتر. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1399هـ/1979م. ص527. وينظر: الدواليبي: **موقف الإسلام من العلم**. ص37. وشارل الحكيم أحد ملوك فرنسا.

(3) ينظر: التويجري، د.عبد العزيز بن عثمان: **الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري**. 1مج. المغرب: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة. 1419هـ/1998م. ص17.

(4) خليل، د.عماد الدين: **مدخل إلى إسلامية المعرفة**. 1مج. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. بلا تاريخ ولا طبعة. ص18.

وإذا تخلّى العلم عن رسالته وهدفه، أو صوب في غير اتجاهه ووجهته؛ فإنه يـصبح وبـالاً على الإنسان، ودماراً للحياة؛ ومعولاً من معاول الهدم في الحـضارات؛ وسـبباً مـن أسـباب انهيارها؛ وعاملاً مساعداً في غياب شمسها، وأفول نجمها. فكم دمرت اكتشافات العلم الحديثـة مدناً، وقتلت أبرياء؛ لأنها كانت مكتشفات في اليد الآثمة، والخاليـة مـن التـصور الاعتقـادي الصحيح.

واحتفت الآيات القرآنية، بإعلاء منازل العلماء، وبيان رفعتهم، ومداد العلماء المسفوح علـى القراطيس؛ يقربهم من الله الجليل العليم الخبير؛ ويرفعهم إلى مقام الـشهادة مـع الله الكـريم، والملائكــة الأبـرار﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:18]. وقـال الله ﷻ:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾[سورة المجادلة:11].

ويشترك الكون كله بالترحاب، والاحتفاء بالعلماء، منسجماً في حركة كونية متآلفة، مع طالب العلم، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:" ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً؛ سهل الله له به طريقا إلى الجنة"(1).

وقارن القرآن الكريم بين الذين يعلمون والذين لا يعلمـون فقـال ﷻ:﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزمر:9].

والعلم في القرآن الكريم، له هدف سامٍ، وغاية نبيلة عظيمة؛ تقـرب الإنـسان إلـى الله ﷻ القائل: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة فاطر:28].

والعلم لانهاية لآخره؛ فهو باب مفتوح، قال الله ﷻ:﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾ [سـورة طـه:114] و"قيل: ما أمر الله، ورسوله، بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم"(2).

---

(1) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**. 5مج. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. بلا تاريخ ولا طبعة. كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضل الاجتمـاع علـى تلاوة القرآن، وعلى ذكر. رقم الحديث2699. ج4ص2074.

(2) الزمخشري: **الكشاف**. ص667.

والعلم حلية العقل؛ وبه يهتدى إلى اكتشاف كُنْهِ الأشياء؛ وسبر أغوارها؛ وتحليل جزئياتها. والقرآن الكريم فتح أبواب العلم النافع على مصراعيها؛ فدعوته للنظر في آفاق الكون الرحيب، والتدبر في الخَلق؛ كل ذلك ينشأ منه علمٌ زاخر. قال ﷻ:﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:185].

فالكون صفحة مشرعة للعلماء، والنفس صفحة مفتوحة؛ لاكتشاف آيات الله في الخلق، ولا يكون ذلك إلاّ بالعلم. قال الله ﷻ:﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة فصلت:53]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(1). فالعلم في حضارة الإسلام، يجري ثوابه بعد الممات، وتبقى آثاره الحسنة تخطّ في الأرض، وتسجل في السماء، ويظل صاحبه يرتقي الدرجات؛ بفضل عِلمٍ علّمه الناس؛ فخلّف لساناً حميداً، وقولاً سديداً. ولو أردنا أن نستقصي آيات العلم في القرآن الكريم؛ لطال بنا العد، فالقليل يغني في التمثيل. "وهكذا تتظاهر النصوص في مصادر الحضارة الإسلامية؛ لدفع المسلمين إلى التعلم، والتعليم بشكل لا نظير له في أية حضارة أخرى. والعلم المقصود الذي تهدي إليه الحضارة الإسلامية، وبه قامت؛ هو العلم الذي يهدي إلى الخير، ويحذر من الشر، ومن الخير ما فيه كمال إنساني، في أي نوع من أنواع الكمالات المعتبرة، في أسس الحضارة الإسلامية"(2).

والعلم في الحضارة البنّاءة هو منهج، وطريق؛ تُستشرف به غيوب المستقبل، وأسلوب من أساليب التعامل مع الأشياء، من البحث والنظر، وربط النتيجة بالسبب، وليس مجرد معلومات تدخر في الذاكرة، أو كتُب تسطرها الأيدي الماهرة، وتفيض بحللها العباقرة.

فالعلم نهجٌ يرفع لَبِنَاتِ الحضارة في الأعالي، وطريقةٌ من طرائق التفكير التي بها تشاد الحضارة. فقال ﷻ:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾[سورة الغاشية17-20] فهذا بحث، ونظر. وهو تعليم في إدراك الأدوات، ومعرفة الوسائل. قال ﷻ:﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ

(1) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. رقم الحديث1631. ج3ص1255.
(2) الميداني: **الحضارة الإسلامية**.282.

﴿ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:36]. "وإذا كانت الحضارة بنت العلم، ... فليس ثمة شك في أن العلم يدفع إلى الإبداع، والتفكر، والتدبر، وكل من الإبداع، والتفكر، والتدبر؛ ينبت حضارة، وينشئ معرفة"(1).

والعلم مكتسب بالتعلم، فالإنسان يولد ولا معرفة له، ثم يكتسبها بوسائل المعرفة السمع، والبصر، والفؤاد؛ بأن يعقل الأشياء. قال الله ﷻ:﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة النحل:78].

ونظر الإسلام إلى العلم نظرة تدلّ على عمق التدبر في هدفه، وذلك أن علماء الشريعة، قسموا العلم من حيث حكم تعلمه؛ إلى فرض عين، وفرض كفاية؛ وهو الفرض الذي إذا قام به واحد وكفى؛ سقط عن الكل(2). "فالعلوم الدنيوية قد يصل حكم تعلمها إلى الوجوب في بعض الأحيان؛ إذا كان داخلاً في قوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال: 60]. وقد ذكر أهل العلم أن تعلم الصناعات فرض كفاية"(3). " وأما فرض الكفاية: فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان. وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات"(4).

"والعلم في الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم؛ فهو علم أعم من العلم الذي يراد؛ لأداء الفرائض، والشرائع؛ لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة، والصيام"(5).

وما قامت للعلم قامة باسقة حقيقية، ولا اشرأبت له عنُقٌ؛ إلا في ظل الحضارة الإسلامية، وفي كنَفِ الشريعة الإسلامية، وفي محضن القرآن؛ وبه كانت مرحلة ربيع العلم. وما دونها خريفٌ مصفرةٌ أوراقُه.

---

(1) الشكعة، د.مصطفى: **معالم الحضارة الإسلامية**. 1مج. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. 1975م. 29-30.

(2) ينظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: **الموافقات**. 6مج. ط1. تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن. السعودية: دار ابن عفان. 1417هـ/1997. ج1ص54.

(3) ينظر: العثيمين، محمد الصالح: **كتاب العلم**. 1مج. الإسكندرية: دار البصيرة. بلا طبعة ولا تاريخ. ص10.

(4) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الدين**. 5مج. ج1. دار الرشاد. بلا بلد النشر ولا طبعة ولا تاريخ. ج1ص16.

(5) العقاد، عباس محمود: **التفكير فريضة إسلامية**. 1مج. ط2. بيروت: دار الكتاب العربي. 1391هـ/1971م. ص82.

لقد أنفق المسلمون بدعوة من دينهم، خالص أموالهم على العلم، بشتى حقوله الخضراء؛ فنمت سنابله، في كل سنبلة مئات المعارف. وأوقف المسلمون، بساتينهم وعقاراتهم وآبار مياه شربهم على طلبة العلم؛ ليهنأ الطلاب، بلا تنغيص ضيق اليد، وشظفِ العيش، وعسر الحال. وقد هال كثير من الرحالة ما رأوا عليه الحال من الإنفاق على معاهد العلم، ومن الأوقاف الموقوفة على العلم، وأهله[1].

ولا نتردد اليوم في الاعتراف، بأن هذه المفاهيم عند المسلمين، قد خفّ أوارها، وضعفت أنوارها؛ فمرحلة الإشعاع الحضاري؛ هي التي أوجدت مثل تلك النماذج الرائعة. وحينما تخبو العقيدة المحركة لهذه الدوافع في القلوب، ويضيع التصور الاعتقادي الصحيح؛ تتقهقر هذه المفاهيم للوراء؛ ويصبح الإنفاق على متعة عابرة، بمئات الألوف من الدولارات أولى من إنفاق حفنة من المال على طالب علم، أو بحث ينشر، أو مركز بحوث ذات فائدة.

إن العالم اليوم عطِشٌ؛ للتصور الاعتقادي الصحيح، الذي يصوب مسيرة العلم في خدمة الإنسان، وليس لحربه وإبادته. والإسلام هو أمل الحائرين.

لقد أصاب الهول "جربرت فون أورياك" الذي ارتقى كرسي البابوية في روما عام 999م، عندما رأى مكتبة الخليفة في القاهرة تزخر بالعلوم، وفيها مليونان ومئتا مجلداً، فقال: "إنه لمن المعلوم أنه ليس ثمة أحد في روما ما يؤهله؛ لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة"[2]. فهل من مدكر؟

---

(1) ينظر: السباعي، د.مصطفى: **من روائع حضارتنا**. 1مج. ص130. بلا تاريخ ولا طبعة ولا بلد النشر. وفيه ص125: أن أحد المدرسين كان كتّابه ثلاثة آلاف تلميذ. وكان كتّابه فسيحاً يحتاج إلى أن يركب حماراً؛ ليتردد بين طلابه، ويشرف عليهم.

(2) هونكة، زيغرد: **شمس العرب تسطع على الغرب**. 1مج. ط10. ترجمه فاروق بيضون وكمال دسوقي. بيروت: دار صادر. 1423هـ/2002م. ص353.

المبحث الثالث

العمل الصالح

العمل الصالح؛ هو الساحة الفيحاء التي تتجلى فيها مفاهيم التصور الاعتقادي الصحيح؛ وهو ميدان فرسان بناة الحضارة، والمِحك لتطبيق النظريات.

والأعمالُ المبرورة المنبثقة من الإيمان بالله ﷻ؛ كانت شواهد صادقة، وبراهين ساطعة، على صدق المعتقد، والهمة العالية في جِديته.

والبناء الحضاري الضخم العملاق الذي أرسيت قواعده على كلمة التقوى؛ هو الشاهد الأقوى، لتلك العقيدة السمحة القوية الرحيمة البنّاءة.

ويبدأ اللقاء المنسجم بين التصور الاعتقادي، والعمل الصالح في بناء الحضارة، ومقوماتها؛ كون العمل ينبعث من صميم الإيمان بالله ﷻ؛ وهو أثرٌ فعالٌ من آثاره. "والمشهور عن السلف، وأهل الحديث أن الإيمان: قولٌ، وعملٌ، ونية. وأن الأعمالَ داخلةٌ في مسمى الإيمان"[(1)].

وتارة يقولون عن الإيمان: "قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح"[(2)]. كما أن العمل الصالح مرتبط بالخلق الكريم، ولا يشذّ عنه؛ "فالعمل في الإسلام مشدود بالمبادئ الخُلقية شداً وثيقاً"[(3)]. ومن هنا اكتسب صفة الصلاح، الموضحة له.

ومفهوم العمل الصالح؛ واسع كبير، ومن الخطأ بمكان حصره في الأفعال التعبدية الصرفة فقط. وهذا المفهوم الخاطئ للعمل الصالح؛ جعل فريقاً من الناس يتقوقعون في زوايا النسيان، والخمول. وغدت أمثلتُهم عن العمل، هامدةً بلا حِراكٍ، فردية؛ تؤثر التّبتل، والانقطاع، عن أسبابِ الحياة، ولُجبِ طاحونتها.

---

(1) ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي: **جامع العلوم والحكم**. 2 مج. ط7. تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1417هـ/1997م. ج1ص104. وابن تيمية، أحمد: **الإيمان**. 1مج. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة أنس بن مالك. 1400هـ. بلا طبعة ولا بلد النشر. ص11.

(2) ابن تيمية: **الإيمان**. ص162.

(3) عبده، د.عيسى. ويحيى. أحمد: **العمل في الإسلام**. 1مج. مصر: دار المعارف. ص37. بلا طبعة، ولا تاريخ.

والفهم الصائب للعمل الصالح؛ دفع المسلمين إلى إنشاء حضارة عريقة؛ ضربت جذورها في أعماق النفس الإنسانية؛ فجعلها تتشوق إليها، وتحاول النهوض من جديد، للعـيش فـي أفيائهـا الرحيمة؛ عسى أن تستريح من شقوة الحضارة المادية.

وأرى حاجة؛ لتوضيح مفهوم العمل الصالح مـن أصـول مقومـات الحـضارة، وتـشييد صروحها؛ فإذا تأملنا باقةً مزهرةً من الآيات العاطرات، التي انسابت تشرح العمـل الـصالح؛ لوجدناها آياتٍ تحدثت عن العموم دون تخصيص؛ وآيات أخرى خصصت فسائلَ طيبةً يزرعها المؤمن من أعماله الصالحة، في مزرعة الدنيا؛ ليجني خيرها حضارةً راشدةً؛ ويحصد ثمارهـا في الآخرة جنّةً وحبوراً. ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [سورة آل عمران:136].

فمن آيات العموم فـي العمـل، قـول ﷲ ﷻ:﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل:97]".

"وهكذا تتحول جميع أعمال الإنسان مهما حققت له من نفع دنيوي إلى عبـادة؛ إذا قـصد بهـا رضاء ﷲ "(1).

ومن آيات العمل الصالح التي خصت لوناً من ألوانه الزاهية، قول الباريﷻ:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[سورة التوبـة:120]. فهـذه الآية الفصحية البلاغ الرائعة البيان، وصفت عملاً صالحاً ذا إحسان؛ كان في الجهاد في سـبيل ﷲ. وهذا العمل، اكتسب صفة الصلاح؛ بظمأ العروق، لا من صيام. ونَصبِ الأرجل؛ ولـيس من قيام، ومخمصة المعدة الفارغة، والبطن المتلوي جوعاً؛ ليس من صوم فريضة، ولا نافلـة. إنه عمل صالح مبرور في جولات الصراع الحربي، مع الكفار؛ لتخفق رايةُ القرآن في المـدائن والثغور؛ فتؤوب الجموع التائهة إلى الهدى بإذن ربها.

---

(1) عثمان، عبد الكريم: **معالم الثقافة الإسلامية**. 1مج. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. ليبيا: مكتبة النـور. 1392هـ ـ/ 1972م. ص148.

وأمثلة العمل الصالح بمعناه الشامل الرائع العميق؛ تغيب عن الشهود الحضاري؛ عندما تغيب شمس الحضارة بمفهومها الحقّ الذي بناه الإسلام؛ وترضى النفوس أن تأرز إلى ذاتها؛ وتقبل الانعزال، والانطواء؛ ويكتفي المسلمون بالتعبد بتلاوة آياتِ القرآن الكريم؛ وضربِ كل حرف من حروفه بعشر حسنات؛ ولا يطمحون بتحويل آياته إلى واقع على الأرض، وفهم معانيه، والعمل بروحه الوثّابة نحو المستقبل، وتناسي أثره الانقلابي في النفس والمجتمع. ويكتفون بضربِ مثال صلاةِ الجنازة على فرض الكفاية! بينما تسارع نفوس حملة الحضارة إلى سوح العطاء؛ حينما تفهم دورها الحضاري في إنقاذ الإنسانية، والدرج بها في مراقي الفلاح، ومصاعد النجاح.

والعين البصيرة القارئة لآيات القرآن الكريم؛ ترى عظمة معنى العمل فيها؛ وهي تشاهد النفس الإنسانية تتهادى بين يديها، وتتنسم عبيرها العاطر، وترتوي من بحرها الزاخر؛ لتمضي في سبيلها الواضح، على الطريق اللاحب، نحو الرقي وبناء الحضارة، ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ [سورة التوبة:105].

وجاءت السنةُ العطرة، تبين فسائلَ العمل الصالح، وتعزز مفهوم انبثاقِه من الإيمان، والتصور الاعتقادي الصحيح.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :"الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"(1). فهذا الحديث جمع بين ذروة المعتقد - التوحيد -، وأدنى ما ينبثق عنه؛ وهو مسألة النظافة التي أصبحت اليوم من أهم المظاهر الحضارية في الحياة العامة.

وعد القرآن، العملَ الصالح وسيلةً؛ لدفع سفينة النجاة، في بحر الحياة الصاخب، والسير فيها نحو الله ﷻ، فقال ﷻ:﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ [سورة الكهف:110].

---

(1) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإيمان. باب بيان عدد شعب الإيمان. رقم الحديث35. ج1ص63.

والعمل في المصطلح القرآني يعني فيما يعنيه، الإنتاج حسب المصطلحات الحديثة، وهذا المعنى الاصطلاحي فهمه الرعيل الأول الذين تلقّوا الوحي صافياً من مشاربه، ومنابعه الأولى، الشفافة؛ فهم أهل الفهم، والذوق، وبهم يقتدى، وبأثرهم يحتذى.

ومن الأمثلة الحية في فهم العمل على أنه الإنتاج؛ تلك الخلية العاملة المدوية، إبان محنة مزلزلة تعرض لها المسلمون في غزوة الأحزاب، والتي احتشدت فيها أسباب الابتلاء كلها، من التآمر الداخلي، والغدر بالعهود والمواثيق، والحشد الحربي المتحزب من أكبر القبائل العربية. فوصفه القرآن الكريم من قوله ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب:11]. في تلك المحنة القاسية، ظهر معنى العمل الصالح، كما أراده القرآن الكريم؛ فاقترح سلمان الفارسي رضي الله عنه(1) حفر الخندق حول المدينة المنورة. "كان طول الخندق خمسة آلاف ذراع؛ يعني "ثلاثة كم وثلاثمائة وخمسين متراً" وعرضه تسعة أذرع،"ستة أمتار"، وعمقه سبعة أذرع،"أربعة أمتار تقريباً"(2). وكان العمل في جو بارد، وتقشف معيشة، ومطر، وخوف، ومع ذلك كانوا في حمية، ويقظة، وهمة. وقسم النبي ﷺ بين "كل عشرة أربعين ذراعاً"(3). واستغرق هذا الجهد العظيم بضع عشرة ليلة(4). فانتهى هذا العمل الشاقّ في زمن قياسي؛ حيث افتقدت الوسائل الحديثة في الحفر، ولكن توفّر الإيمان القوي، والعزم الفتي الذي حثّ الخطى بالنفس؛ فصنعت العجائب.

هنا يتجلى معنى العمل الصالح في بناء الحضارة. قال الأستاذ مالك بن نبي، عن المشروع الأول للسنوات الخمس في رفع الإنتاج الذي تغنّت به الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، وكيف زادت إنتاجها، ودارت عجلة المصانع فيها تبني، وتصنع، " دون أن نفكّر في المثل الذي ضربه

---

(1) سلمان: يقال له سلمان بن الإسلام وسلمان الخير. أبو عبد الله. أصله من رامهرمز وقيل من أصبهان وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث فخرج في طلب ذلك. ومات في سنة32هـ.ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج1ص505. وابن حجر: **الإصابة**. ج 3ص141.

(2) أبو فارس، محمد عبد القادر: **غزوة الأحزاب**. 1مج. ط1. عمان: دار الفرقان. 1403هـ/1983م. ص104. نقلاً عن كتاب **الرسول وفن الحرب**. لمصطفى طلاس. ص194. وينظر قسمة حفر الخندق بالأذرع في: ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**. 7مج. ط3. بيروت . الرياض: مكتبة المعارف. مكتبة النصر. 1978م. 4ص99.

(3) ابن كثير: **البداية والنهاية**. ج4ص99.

(4) حبيب، الحسن بن عمر: **المقتفى في سيرة المصطفى**. 1مج. ط1. تحقيق د.مصطفى محمد حسين الذهبي. القاهرة: دار الحديث. 1996م. ص158.

سلمان الفارسي ﷺ، الذي كان يقوم بأضعاف العمل الذي يؤديه الصحابي الواحد في حفر الخندق حول غزوة الأحزاب"[1].

والأروع من ذلك كله في مثالنا هو النبي ﷺ، إذ "كان ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه"[2]. والمهاجرون، والأنصار ينقلون التراب على ظهورهم، في ملحمة الدفاع عن الحضارة الوليدة، في عاصمتها الجديدة المدينة المنورة.

والذي حفّز بناةَ الحضارة الجدد إلى العمل، وتحمل أوصابه، ومضائكه؛ هو تلك الخاتمةُ السعيدة المنتظرة للعاملين، والتي جلاّها لهم؛ تصور اعتقادي بنى نفوساً فريدة، وأخرجها للحياة، وميدان العمل، قال ﷻ: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الحج:56].

والحضارة الجديدة؛ صنعت رجالاً؛ هم أهلُ أثقالها. وبنَت منذ ميلادها تصوراً اعتقادياً؛ أن الحياة خُلقت ابتلاء من الله ذي الجلال؛ ليمتحن البشر، أيهم أحسن عملاً؛ فالحياةُ ميدان التنافس في العمل الصالح، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [سورة هود:7].

وتصديقاً لهذا المفهوم من ذلك المنطوق؛ امتلأ الفضاء الرحيب، والسهلُ الخصيب، بأزكى الأعمال الصالحة؛ تصعد إلى باريها جلّ في علاه، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة فاطر:10]. وتشهد للمؤمنين في الأرض؛ أنهم عمار الحياة. وعجلوا السير إلى الآخرة، فكلما حسنوا أعمال الحياة؛ كلما اقتربوا من الفوز برضوان الله ﷻ.

وبنى التصور الصحيح للعمل في نفوس المؤمنين؛ أن العمل المقبول، عند الله الخالق؛ هو ذلك العمل القائم على أساس الإيمان. وأما تلك الأعمال التي تشاد على غير هذه القاعدة، وإن ازينت في نظر صاحبها؛ فما أسرع أن تذريها الرياح في يوم عاصف؛ فتصبح هباء منثوراً، وأثراً بعد عين. ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:18].

---

(1) ابن نبي: **شروط النهضة**. ص81. وينظر: ابن كثير: **البداية والنهاية**. ج4ص99.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب المغازي. باب غزوة الخندق. رقم الحديث3878.ج4ص1506.

وانتهج القرآن الكريم مع المؤمنين أساليب من البيان رائقة، وأفانين من الحجج رائعة؛ وهو يغرس فيهم مفهوم العمل الصالح المقبول؛ فهو يحاورهم؛ ويستحثّ فيهم فضول السؤال، وغريزة استكشاف المجهول؛ ليطلعهم على أجوبة الحقّ، ويرد النفس المغرورة بأعمالهـا، التـي يـشي ظاهرها بالصلاح؛ وهي باطلة في دوامة الضلال. قال الله ﷻ:﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [سورة الكهف:103-106].

المبحث الرابع

العدل

العدلُ قُوام الحضارة، وسبب من أسباب بقائها، ولا يأفل نجم حضارة، كان العدل أساسـها، ومبنى أعمالها، ومرجع نظرتها لرعيتها، وللآخرين.

والمتأمل في الآيات القرآنية التي أرست مفاهيم العدل؛ يجدها تحدثت عـن العـدل كقيمـة أساسية في الحياة.

وإن الحضارات الراشدة، هي تلك التي أَولَتْ العدل أهمية في تأسيسها؛ فشبت عليه، وما شابت بسببه.

والعدل هو مسيرة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في بناء الحضارة، ومحور رسـالتهم للبـشرية، فقـال الله ﷻ:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الحديد:25]. فالميزان من الله الخالق، ليس فيه محاباة لأحد على أحـد. وهـدف الميزان؛ تحقيق العدل في الأرض. "هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف، والزلازل، والاضطرابات، والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء، ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة، وحب الذات. فلا بد من ميزان ثابت يثـوب إليـه البشر؛ فيجدون عنده الحق، والعدل، والنصفة بلا محاباة ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾، فبغيـر هـذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته؛ لا يهتدي الناس إلى العدل"(1).

والعدلُ أمرٌ رباني، قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة النحل:90]. وعن عبد الله بن مـسعود ؓ كان يقول عن هذه الآية "إنّها أجمع آية في القرآن"(2).

---

(1) قطب: **في ظلال القرآن**. ج6ص3494.

(2) الطبري: **جامع البيان في تفسير القرآن**. ج14ص163.

والعدلُ قاعدةٌ من قواعد الاستقرار، وسببٌ من أسباب الديمومة، والازدهار. وهو من عهود الشباب الريان للحضارة؛ وسبب تمتعها بالنضارة. وذلك بـ"عدل شامل يدعو إلى الألفة؛ ويبعث على الطاعة؛ وتعمر به البلاد؛ وتنمو به الأموال؛ ويكثر معه النسل؛ ويأمن به السلطان"[(1)].

وللعدل أهميته البالغة في حركة الحضارة ودوران عجلتها. فالآية الكريمة، أرسـت مفهـوم العدل، كقيمة عظيمة في المجتمع؛ تنبع ضرورتها في الحضارة؛ كونها؛ تبدد الخوف، والجـبن من حياة الإنسان؛ وتفجر طاقاته الإبداعية في البناء، والتشييد؛ كما أنها تعزز الانتماء للمجتمـع والأمة، فلماذا يخونها، أو يتآمر عليها، أو يعمل ضد مصالحها؟ وهو مطمئن إلى نيـل حقوقـه؛ يعيش في ظل حضارة؛ تنتصر للضعيف؛ وتنصر المظلوم؛ وتأخذ على يد الظالم. فالعدل كمـا عرضه القرآن الكريم؛ يسكب السكينة في النفوس؛ ويغمر القلوب بالطمأنينة؛ ويبعث على الأمل؛ ويحرك عجلة الحياة إلى الأمام؛ وتمضي عجلات الحضارة في طريقها المرسوم.

"جاء العدلُ الذي يكفل لكل فرد، ولكل جماعة، ولكل قوم قاعدةً ثابتة للتعامـل؛ ولا تميـل مـع الهوى؛ ولا تتأثر بالود، والبغض؛ ولا تتبدل مجاراة للصهر، والنسب، والغنى، والفقر، والقـوة، والضعف؛ إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع"[(2)].

والقرآن الكريم؛ وهو يشقّ طريقه في النفس والمجتمع لإرساء هذا المفهوم؛ واجه صعوبات جمة، وخطيرة؛ كادت أن تصل إلى نزاع مع ملوكٍ في ذلك الزمان، رغبوا بالإسلام، ولم يفقهوا درس العدل الذي جاء به هذا الدين.

وتضرب لنا كُتب السيرة مثالاً لذلك. في قصة جبلّة بن الأيهم الملِك الغساني، الـذي كـان نصرانياً، فأسلم، وجاء إلى الحج في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[(3)]، وخرج بمـائتين وخمسين من أهل بيته، بكامل صولجانه وأُبهة الملك، وحين طوافه بالبيت وطـئ رجـلٌ علـى إزاره؛ فانحل؛ فلطم الرجلَ لطمةً هشم بها أنفه، وكسر ثناياه؛ فشكا الرجلُ ذلك إلـى عمـر رضي الله عنه؛

---

(1) الماوردي، أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب: **أدب الدنيا والدين**. 1مج. ط1. شرح وتعليق محمد كـريم راجـح. بيروت: دار اقرأ. 1401هـ/1981م. ص153.

(2) قطب: **في ظلال القرآن**. ج4ص2190.

(3) عمر بن الخطاب بن نفيل بن القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين. كان إسلامه فتحاً وفرجـاً علـى المـسلمين. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج4ص474.

فاستدعاه، وسأله عن ذلك؛ فأقر. فقال: يا أمير المؤمنين تعمد حل إزاري، ولولا حرمةُ البيت لضربتُ عنقَه بالسيف. فقال له عمر: أما أنت، فقد أقررت؛ إما أن ترضيه، وإلا أقدته منك. فقال جبلة: فتصنع بي ماذا؟ قال: مثل ما صنعت به. وفي رواية أتقتص له مني سواء، وأنا ملك، وهذا سوقي؟ فقال له عمر ﷺ: الإسلام سوى بينكما، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى. فقال جبلّة: أمهلني الليلة حتى أنظر في أمري. قال: ذلك إلى خصمك. فقال الرجل: أمهلته. ثم هرب جبلة مع بني عمه إلى القسطنطينية؛ وتنصر، وقيل: عاد إلى الإسلام ومات مسلماً[1].

فالمحافظة على قيمة العدل في المجتمع كلّف أن يضحى بتاج ملِك؛ لإنصافِ رجلٍ مظلوم من عامة الناس، نزلت به عقوبة لا يستحقها؛ أن يلطم وجهه، مقابلَ وطئ قدمه على إزار الملك. فتهاوى التاج والصولجان أمام قيمة العدل في الحضارة الجديدة، التي لم تغسل أنوارها بعد لوثةَ الجاهلية في قلب الملك الغساني؛ فتلاحى العدلُ، والتاج؛ فرجحت كفّةُ العدل على كفة التاج. وانتصر العدلُ على السلطان. والحق على الصولجان؛ فولّى مدبراً، ولم يعقّب. وعلا صوتُ المظلوم على صوت الظالم ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [سورة الشورى:15]. "لأن العدل حفاظ النظام، وقوام أمر الاجتماع"[2].

والباحث في مقومات الحضارة؛ يزداد إيمانا كلما أشرقت شمس مبادئ الإسلام، وكشفت عن روعتها، وعظمتها في لُجةِ الحياة.

إنها حضارة صنعها الإيمان بالله ﷻ والتصور الاعتقادي الصحيح. إيمان أحدثَ انقلاباً شاملاً، في التصورات، والمفاهيم. وجاءت الشريعة " بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، والسياسة العادلة جزء من أجزئها وفرع

---

(1) ينظر: الحلبي، علي بن برهان الدين: **السيرة الحلبية**. 3مج. بيروت: دار المعرفة. 1400هـ. ج3ص306-307. بلا طبعة. ابن سعد، أبو عبد الله محمد البصري: **الطبقات الكبرى**. 8مج. بيروت: دار صادر. ج1ص265. بلا طبعة، ولا تاريخ.

(2) رضا، محمد رشيد: **تفسير المنار**. 12مج. ط2. بيروت: دار الفكر. 1393هـ/1973م. ج5ص555.

من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها، ووضعها، ومواضعها، وحسن فهمه فيها لم يحتج إلى سياسة غيرها البتة"[1].

والآيات القرآنية الآمرة بالعدل؛ تجسدت ممارساتٍ في الواقع؛ تدلّل كلها على عمق تغلغل مدلول العدل في الشريعة، وضرورته في بناء الحضارة.

وأي حضارة مهما زهت مظاهرها، وتبرجت أشكالها، إن لم تقم على العدل، أو لم تنشر ألوية العدل؛ فسيلعنها الناس. فما فائدة، طِلاء خلاّب، وفِعل كوحوش الغاب. وهل تظلّم البشر اليوم من شيء تظلّمهم من الحضارة المادية الزاهية في مظاهرها، والظالمة في فِعالها؛ فأذاقت المستضعفين، الويل، والثبور. "ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قيماً، وهو الملِك"[2].

ومن هنا وجدنا موقع العدل في الصرح الحضاري؛ يتبوأ مساحة شاسعة في القواعد الحاملة لبنائه الضخم، والقمة في مظاهرها الخلاّبة. قال الله ﷻ في كتابه الكريم:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ [سورة النساء:58].

لقد نظر العلماء إلى هذه الآية نظرة ثاقبة؛ فقالوا:" هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع"[3]. وعدوا هذه الآية "أساس الحكومة الإسلامية"[4].

---

(1) ابن القيم، محمد بن أبي بكر: **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**. 1مج. قدمه وراجعه وعلق عليه. بهيج غزاوي. بيروت: دار إحياء العلوم. ص10-11. بلا طبعة ولا تاريخ.

(2) المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. 4مج. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: دار المعرفة. 1403هـ/1983م. ج1ص253.

(3) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن**. 11مج. ط1. بيروت: دار الفكر. ضبطه صدقي جميل العطار. وخرج أحاديثه الشيخ عرفان العشا. 1419هـ/1999م. ج3ص1489.

(4) رضا: **تفسير المنار**. ج5.ص168.

و"العدل في الإسلام مطلق، لا يؤثر في ميزانه العداء أياً كان سببه"[1]. "والظلم محرم في كل حال، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً، ولو كان كافراً"[2].

قـال الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[سـورة المائـدة:8]. ودلّت الآية أيضاً على" أن الكافر لا يمنع من العدل عليه"[3]. "فملكة الإسلام في العدل"[4].

والعدل كلمة ذهبية في صحائف الحضارة، "فأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فـي الحقـوق، وإن لـم تشترك في إثم. ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمـة ولـو كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل، والكفر. ولا تدوم مع الظلم، والإسـلام. وذلـك أن العدل نظام كل شيء؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق، ومتـى لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة"[5].

والعدل مقوم من مقومات الحضارة؛ فيتخرج من مدرسته أحرار الرجـال، أعـزةً تـشمخ هاماتهم للسماء، لا يخشون ظلماً، وتحفظ كرامتهم، وتصان حرماتهم؛ فتنطلق قوافلهم في ركـب البناء، والعطاء. وتنساق مواهبهم بأريحية، وحيوية. وينقّي العدل سـرائر ضـمائرهم، ويـسلُّ سخيمة قلوبهم، ويطمئنهم بما لهم، وما عليهم. لقد تذوق معسولَ العدل كل من انطوى تحت راية الإسلام، وعاش في ظلّ أثره الحضاري.

---

(1) الدريني، د.فتحي: **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكـم**. 1مـج. ط1. بيـروت: مؤسـسة الرسـالة. 1402هـ/ 1982م. ص216.

(2) ابن تيمية، أحمد: **فتاوى ورسائل ابن تيمية**. 17مج. تحقيق عبد الرحمن محمد النجدي. مكتبة ابن تيمية. بـلا ذكـر طبعة، ولا بلد النشر. ج19ص44.

(3) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**. ج3ص1692.

(4) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص148.

(5) ابن تيمية، أحمد عبد الحليم: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. 1مج. ط1. تحقيق د.صلاح الدين المنجد. بيروت: دار الكتاب الجديد. 1396هـ/1976م. ص40.

وروعة العدل في هذا المجال، تشرق صورتها المضيئة في الفعل الحضاري، ومنها تلك القصة الشهيرة بين ابن والي مصر عمرو بن العاص ﷺ[1] ورجل قبطي من عامـة رعايـا الدولـة الإسلامية الحضارية. "جاء رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطـاب ﷺ فقـال: يـا أميـر المؤمنين! عائذ بك من الظلم! قال: عذت معاذاً. قال: سابقت ابن عمرو بن العـاص؛ فـسبقته؛ فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو، يأمره بالقدوم، ويقدم بابنه معه. فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط، فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الألأمين. ثم قال للمصري: ضع على صلعة عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه ضربني؛ وقد استقدت منه. فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس؛ وقد ولدتهم أمهاتهم أحـراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني"[2].

أما تفاصيل العدل في الحضارة التي بناها القرآن؛ فهي قراءةُ أحرفِ النّور في أسفار المجد، والخلود. وإنني أعرج قليلاً على تلك الصفحات؛ لتكتحل أعيننا بصورها الخالدة.

وأفتح صفحتين من تلك الأسفار المجيدة، أما الأولى فصفحة الحاكم العـادل، رأس الدولـة، ولي أمر الأمة، وقدوتها. والحاكم العادل في ظلّ الرحمن ذي الجلال والإكرام.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "سبعة يظلّهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل. وشاب نشأ في عبادة الله. ورجل ذكر الله في خلاء؛ ففاضت عينـاه. ورجـل قلبه معلق في المسجد. ورجلان تحابا في الله. ورجل دعته امرأة ذات منـصب وجمـال إلـى نفسها. قال إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة؛ فأخفاها حتى لا تعلم شـماله، مـا صـنعت يمينه"[3].

---

(1) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي أمير مصر. وأمير فلسطين. أسلم قبل الفتح. ولما أسلم كان النبي ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزاة ذات السلاسل. وفتح مصر وغيرها. ومات سنة 43هـ. ينظر: ابـن حجر: **الإصابة**. ج4ص650.

(2) المتقي، علي بن حسام الدين: **منتخب كنز العمال**. 6مج. بيروت: دار الفكر. ج4ص420. بلا تاريخ. والكتاب ملحـق على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل. الكاندهلوي، محمد يوسف: **حياة الصحابة**. 3مـج. بيـروت: دار المعرفـة. ج2ص88. بلا ذكر طبعة.

(1) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة. باب فضل من ترك الفواحش. رقم الحديث6421. ج6 ص2496.

وقال رسول الله ﷺ :"إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا "[1].

وفي الوقت نفسه، كانت العقوبة صارمة، والجزاء أليماً، لذلك الحاكم الذي يغشّ رعيته، ولا يقيم ميزان العدل بينهم، فعاقبة ذلك الحاكم وخيمة، ومنقلبه يتناسب مع فعله، فعن معقل بن يسار[2] ﷺ قال رسول الله ﷺ :"ما من والٍ يلي رعية من المسلمين؛ فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة"[3].

وأما الصفحة المجيدة الثانية؛ فهي صفحة الميل مع العدل، حيث كان، بغض النظر عن أي معنى آخر؛ فالعدل مقدم على علاقة القرابة، والمحبة. ويدار حول محوره، ويشد الناس إلى ساريته، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة النساء:135].

وعن عائشة[4] ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف؛ أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها"[5].

وإذا وقعت الكراهية، وعكّرت البغضاء القلوب؛ فالعدل فوق تلك المشاعر، أيضاً.

---

(2) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإمارة. باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر. رقم الحديث1827. ج3 ص1485.

(3) معقل بن يسار المزني البصري ﷺ من أهل بيعة الرضوان. مات بالبصرة في آخر خلافة معاوية. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص576. ابن حجر: **الإصابة**. ج6 ص184.

(4) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الأحكام. باب من استرعى رعية فلم ينصح. رقم6732. ج6 ص2614. مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإيمان. باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار. رقم الحديث132. ج1ص125.

(5) عائشة بنت الصديق أم المؤمنين. زوج النبي ﷺ وأفقه نساء الأمة على الإطلاق. ماتت في سنة59هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص135. وابن حجر: **الإصابة**. ج8ص16.

(6) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الأنبياء. باب أم حسبت أصحاب الكهف. رقم الحديث 3288. ج3ص1282. ومسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الحدود. باب قطع السارق الشريف وغيره. رقم الحديث1688. ج3ص1315.

المبحث الخامس

الأخلاق

الأخلاق ركيزة من ركائز الحضارة، وهي الروح التي تسري في عروقها؛ فتجملُ صورتها، ولا يعلَقُ بذاكرة الزمان منها، سوى تلك الشمائل الحميدة، والأخلاق الفاضلة.

ويعد القرآن الكريم كنز الأخلاق، ومستودع جواهرها، ومبعث فضائلها، ومحاسن خصالها. "والأخلاق: علم موضوعه تنظيم النشاط الإنساني"[(1)].

وكيما نشرف على هذا الكنز؛ فلا بد من نظرة عميقة، في الأخلاق التي تنشئ الحضارة، ويحدو الركبان بمحاسنها. ذلك؛ أن من الناس من فَهم الأخلاق فهماً مبتوراً عن جوهرها، ورسالتها، وحاصرها في زاوية الأخلاق العملية، أو الفردية، وغض الطرف عن شمولية الأخلاق، كما نظر إليها القرآن، وغرس معانيها في صدور المؤمنين بناة الحضارة. ولا يعني ذلك أني أقلل من أهمية الأخلاق العملية، أو الفردية، في حلبة العمل لإنشاء الحضارة. بيد أني أقول: من انتشى من تلك الروح السارية في الحضارة، يدرك مرامي الأخلاق، وموقعها الرصين فيها.

والأخلاق جدول رقراق من نبع الإيمان الصافي، وهذا يعزز مكانتها، وهي ثمرة حلوة من شجرة الإيمان، وشعبة منبثقة من أصله. عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:"الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان"[(2)]. وبددت الشريعة ذلك المفهوم الخاطئ؛ بإمكان

---

(1) دراز، د.محمد عبد الله: **دستور الأخلاق في القرآن**. 1مج. ط4. تعريب وتحقيق د.عبد الصبور شاهين. بيروت: مؤسسة الرسالة. الكويت: دار البحوث العلمية. 1402هـ/1982. ص96.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الإيمان. باب الإيمان. رقم الحديث8. ومسلم: **صحيح مسلم**. ج1ص63. كتاب الإيمان. باب بيان عدد شعب الإيمان. رقم الحديث35. ج1ص12.

انفصال الخلق عن الإيمان. عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله . قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"(1).

"والإيمان القوي يلد الخلق القوي، وإن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر، وتفاهته"(2).

وأوضح القرآن الكريم، أن في النفس البشرية، استعداداً نفسياً، جبلت عليه؛ لتقبل الأخلاق الحسنة، أو التردي في الأخلاق السيئة. فقال ﷻ:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [سورة الشمس:7-10]. وقال ﷻ: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد:10].

ومع إقرار القرآن، بأن الإنسان فيه نزعات الخير، ولمات الشر، فهو أيضاً، يقرر أن الذي يرسم جوانب الخير المتلألئة، ويحذّر من نزعات الشر المظلمة، هو صانع النفس، خالقنا ﷻ، فقال ﷻ :﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك:14]. فقد تنزلق النفس مع هواها، في دركات الخطيئة، متعجلة طمعاً في متعة مزينة، وتجد صعوبة في كبح جماحها، وإلجام هواها، عن تلك البهرجة؛ فيخاطبها بارئها ﷻ:﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦ ﴾ [سورة البقرة:216].

وعلى هذا الأساس، تعامل القرآن مع النفس الإنسانية، يزكّيها ويغذّيها بالخير، ويكبح جماحها عن الشر، ويخلقها بشمائل الصلاح، والفلاح.

والإنسان، ليس آثماً في أصله، كما نظرت إليه النصرانية. فهو صفحة بيضاء؛ ينيرها العمل الصالح، ويسودها بما اكتسبت يد الإنسان، من سوء،﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [سورة المطففين:10].

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الأدب. باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه. رقم الحديث5670. ج5ص2240. مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإيمان. باب تحريم أذى الجار. رقم الحديث46. ج1 ص68. ورواية البخاري: عن أبي شريح ﷺ.

(2) الغزالي، محمد: **خلق المسلم**. 1مج. دمشق: دار القلم. 1400هـ/1980م. ص10. بلا ذكر الطبعة.

والباحثون الغواصون في أمر الأخلاق، عدوا منها نظريات كلية إجمالية، كما هو الحال في فقه الشريعة، وذكروا في الوقت نفسه فروعاً، في الأخلاق هي من باب الأخـلاق العمليـة، أو الفردية[1].

ومن النظريات الكلية في الأخلاق، فكرة الالتزام: "وهي: القاعدة الأساسية، والمدار النـووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي؛ والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العلمية ذاتـه. وفناء ماهيتها، وذلك؛ أنه إذا لم يعد هناك إلزام؛ فلـن تكـون هنـاك مـسؤولية وإذا عـدمت المسؤولية؛ فلا يمكن أن تعود العدالة؛ وحينئذ تتفشى الفوضى. وكيف نتصور قاعـدة أخلاقيـة بدون التزام"[2].

والمقصود بالالتزام، أن تلك الضميمة من الأخلاق، ليست نافلة، من نوافـل الحياة،؛ولكنهـا على وجه الإلزام، والفرض، وفي ذلك استخدم القرآن عبارات: فَرض، كَتَب، وما شابه ذلك.

أما النظرية الثانية التي تتفرع عن الأولى بشكل منطقي؛ فهي نظريـة المـسؤولية. "فكـل مسؤولية هي مسؤولية أخلاقية"[3]. وبما أن هناك التزاماً، ومسؤولية؛ بالتـالي سـيكون هنـاك حساب، وجزاء.﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف:6].

ونظرية الجزاء، معجلة في الدنيا. ولها حساب آخر في المرحلة الثانية من الحيـاة؛ وهـي الآخرة.﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران:195].

وإني مع هاتين النظريتين في النظر إلى الأخلاق نظرة كلية، وأحسب أن هاتين النظـريتين هما وراء البناء الجاد في الحضارة، والمواقف الحازمة، والرائعة في آن واحد. تجاه مـا يهـم مصلحة الأمة، وهي تضرب في الأرض، طولاً، وعرضاً، سياحةً في رحاب البناء الحـضاري؛ إذ لا يمكن أن تكون الأخلاق بانية؛ وهي حبيسة المزاج، والهوى، والمروءة؛ فلا بد أن تكـون إلزاماً، ومسؤولية، ومحاسبة.

---

(1) للإطلاع على هذا التقسيم: ينظر: دراز: **دستور الأخلاق في القرآن**. وقد خاض الدكتور دراز في هذه النظرية خوضاً كبيراً، وقارن مع النظريات الأجنبية وأقوال المفكرين الغربيين. وأُقر هذه النظرية.

(2) دراز: **دستور الأخلاق في القرآن**. ص21.

(3) المرجع السابق: ص141.

ولكي لا تكون الأخلاق، مزاجية، وذات مكاييل متعددة؛ فإنها كسائر مقومات الحضارة، تُستلهم من الإيمان، والتصور الاعتقادي الصحيح. فتستقى الأخلاق من معينها الرائق، وتتحلى بجواهرها من كنزها الثمين؛ المتمثل بالوحي الإلهي من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [سورة الأنفال:24].

ولي أن أقول: إن منظومة الأخلاق بانية الحضارة، كما رسمها القرآن، محكمة البناء، بليغة الأثر، شمل خيرها جوانب الحياة، ودثّرت شمائلُها الذهبية، جنبات النفس الإنسانية، وكشفت فضائلُها محاسن الإنسان العابد لله الخالق ﷻ. "فالحضارة هي التزام أخلاقي"(1).

أما الأخلاق العملية، فهي تستوعب كل مناحي الحياة، وألوان السلوك البشري، وجوانب النشاط الإنساني، في شتى الصعد؛ في الاقتصاد، والسياسة، والحرب، والسلم، والعداوة، والمحبة، والفرد، والجماعة، والرعية، والحاكم، والأسرة، وشتى أشكال النشاط الإنساني.

ولست هنا بمضمار الشارح المفصل لروائع البيان، وأكتفي بإلماح لماح؛ يفصح عن البدر في جماله، والقمر حين اكتماله، وهو يتم دورتَه. وأضرب مثلاً في الأخلاق التي غارت جذورها في القلوب؛ فبسقت مورقةً في الحياة، بتلك القصة الفريدة في التآخي ما بين المهاجرين والأنصار. وهم يسيرون جنباً إلى جنب في طريق الكفاح الحضاري.

فحينما هاجرت قوافل المسلمين من نَير ظلم الحكم المستبد في مكة، إلى المدينة المنورة؛ فاستقبلتهم يثرب المؤمنة، حباً، وطواعيةً، تفتح لهم أذرعها، وتجتزئ لقمةَ العيش، وصرةَ المال، وتفك عقْد ما زاد عن زوجة من الزوجات، للمهاجر المؤمن، وتحتمل خصاصة النفس، وألم الفاقة؛ إيثاراً للأخ الجديد؛ أخ العقيدة، والإيمان، وليس أخ النسب، والتراب. ولا ابن القبيلة والعشيرة.

---

(1) زقزوق، د.محمود حمدي: **الحضارة فريضة إسلامية**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة الشروق. 1422هـ-/2001م. ص24.

ولجلالة هذه الصورة، وجمالها؛ خلّدها القرآن الكريم، قال ﷻ:﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ ﴾ [سورة الحشر:9].

وعن أنس ﷺ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف ﷺ المدينة؛ فآخى النبي ﷺ بينه، وبين سعد بن الربيع الأنصاري ﷺ؛ فعرض عليه أن يناصفه أهله، وماله. فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك، ومالك. دلني على السوق"(1).

ومن عرين المدينة المنورة؛ انطلقت رحلةُ البناء الحضاري العالمي؛ فكانت اللبنات تُصهر وتُؤسس على العقيدة، وتصورها الصحيح، ومنه الأخلاق.

مجتمع هذه صفاته، وتلك سماته؛ حري به أن يتبوأ المعالي؛ وأن يقطف ثمرة التمكين في الأرض؛ وأن ينال الثريا؛ والعالمية في الانتشار. فالأخلاق ذات الأثر العام في المجتمع؛ هي تلك التي تكون روح الحضارة. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إنما بعثت؛ لأتمم مكارم الأخلاق"(2).

فالرسالة الشريفة، إنما هي ياقوتة في جِيدِ البناء الرسالي، وهذه الياقوتة هي الأخلاق. وقد هب المجتمع؛ "لينتج حضارة، رائعة، منذ أن بدأ نشاطه يستقطب حول مجموع من القيم الخُلقية"(3).

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب بدء الخلق. باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه. رقم الحديث3722. ج3ص1432.

(2) ابن حنبل، أحمد: **مسند أحمد**. 6مج. مصر: مؤسسة قرطبة. ج2ص381. لم تذكر الطبعة، ولا تاريخها. البيهقي، أحمد بن الحسين: **سنن البيهقي**. 10مج. تحقيق محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمة: مكتبة دار الباز. 1414هـ/1994م. باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها. ج10ص191. لم تذكر الطبعة.

(3) ابن نبي، مالك: **ميلاد مجتمع**. 1مج. ترجمة د.عبد الصبور شاهين. إصدار ندوة مالك بن نبي. ص48. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ.

المبحث السادس

الشمولية

الشمولية في الحضارة، مقوم قوة لها. وأعني بالشمولية: استغراق حاجات الإنسان كلها، وتغطية كلّ أوجه النشاط الإنساني. فهي شاملة في ذاتها، ومن جهة أخرى، تظهر بصمتُها في كل مناحي الحياة؛ فما من شاردة، ولا واردة، إلا ولها تصور عنه.

ومن الشمولية؛ تبصير الإنسان بحقيقته، ودوره، وبنظرته الصائبة للكون، والحياة. وقد ذكرت ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل.

"والتصور الإسلامي - عن طريق هذه الخاصية في صورتها هذه - يمنح القلب، والعقل راحة، وطمأنينة، واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود - كما في عالم الحقيقة والواقع - ويعفي الفكر البشري من الضرب في التيه بلا دليل"(1).

والشمول مقوم للحضارة التي تستلهم تصوراتها من الله ﷻ، أما تلك التي تستقي تصوراتها من عقول البشر؛ فإنها تحمل نقص البشر، وقصور نظرتهم للأشياء. ويعتريها التعثر في مسيرتها، والتخبط في مشوارها نحو البناء.

وتحدث القرآن الكريم صراحة عن شموليته لأوجه النشاط الإنساني، فقال ﷻ:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[سورة الأنعام:38]. "والمراد من الكتاب القرآن، فيه جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين، والدنيا، بل وغير ذلك إما مفصلاً، وإما مجملاً"(2). "إنّه شمول يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله"(3).

---

(1) قطب: **خصائص التصور الإسلامي**. ص113.

(2) الآلوسي، محمود أبو الفضل: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. 30مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج7ص144.

(3) القرضاوي، د.يوسف: **الخصائص العامة للإسلام**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة وهبة. 1397هـ/1977م. ص99.

والشريعة الربانية، استكملت حلقاتها بتنزل الوحي الأمين، وهذه الحلقات الكاملة، من صميم الشمولية، فقال ﷻ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾ [سورة المائدة:3].

وامتلاك الحضارة للنظرة الشمولية؛ تجعلها تستغني عن غيرها في تفسير الأشياء، وتحليلها. "إن هذا التصور من الشمول والسعة، ومن الدقة والعمق، ومن الأصالة والتناسق؛ بحيث يرفض كل عنصرٍ غريب عليه، ولو كان هذا العنصر اصطلاحاً تعبيرياً من الاصطلاحات التي تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية"(1).

" وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملاً متكاملاً. منهجاً يشمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة - لا بدون تعارض بينهما - بل في ترابط، وتداخل يعز فصله؛ لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين؛ ولأن فله هو تمزيق، وإفساد لهذا الدين"(2).

والحضارة الخالدة هي تلك التي تتحلى بقدرة تجيب بها على كل استفسارات الإنسان، وأن تكون هذه القدرة ذاتية فيها؛ مما يعني وحدة التصور، ووحدة التلقي من مصدر واحد، والدوران في فلك واحد، وعدم التشتت. فلا تتعكّز على حضارة أخرى في مسيرتها، ولا تتعثر خطاها، أو تبني مفاهيم متناقضة، أو مهجنة؛ بحيث تحدث خللاً اجتماعياً، وأخلاقياً، وروحياً.

والشمولية تعكس أثراً جمالياً في البناء الحضاري؛ هو التناسق مما يجعل الحضارة لُحمةً واحدة، ونسيجاً متكاملاً. والشمول: "هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية؛ وهو المزية التي توحي إلى الإنسان أنه كُل شامل؛ فيستريح من فصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين، ثم تعيا بالجمع بين الشطرين"(3).

وراعى القرآن الكريم، مقوم الشمولية، مراعاةً رائعة، وتعامل معها بطريقة؛ تنبئ بيقين لا ارتياب فيه؛ أنه من عند الله ﷻ؛ فجذب انتباه العقول إلى نوره الساطع؛ وعلّق النفوس بفكره

(1) قطب: **خصائص التصور الإسلامي**. ص 115.

(2) المرجع السابق. ص129،128.

(3) العقاد، عباس محمود: **الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله**. 1مج. القاهرة: دار الهلال. ص27. بلا طبعة، ولا تاريخ.

الرائع؛ ووحد مصدر الإشعاع الحضاري، من نور مشكاة واحدة؛ تـضيء الكـون، والحيـاة، وجوانح النفس الإنـسانية، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة النور:35].

والقرآن الكريم، مؤسس الحضارة، وصانعها، نظر للشمولية، على أنها بؤرة تجمع القـوى الفاعلة، وتستنهض الطاقات الدفينة، في بناء صروح الحضارة، فقال ﷻ :﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة لقمان:22].

والحضارة دون مقوم الشمول؛ تتشتّت، ولا تبني بناء محكماً منسجماً، وفقدانها لهذه الخاصية نذير شؤم يشير إلى تفكيك عراها. ولهذا رأينا التحذير النبوي من الزلل في التبعية.

والتبعية قد تكون؛ لفقدان الحضارة عنصر الشمول؛ فتذوب في حضارة ليست من معدنها. عـن أبي سعيد الخدري[1] ﷺ أن النبي ﷺ قال:" لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بـذراع؛ حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود، والنصارى؟ قال فمن"[2]. فـأن تنهل الحضارة من غير منهلها، أو أن تصدر عن غير موردِها؛ تقودها تلك الزلّة إلى الانحراف عن بؤرة الإشعاع، وقد تهلكها في السبل المعوجة،﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام:153].

ودلالة الشمول في واقع الفعل الحضاري، هي آثار جلية في الحياة؛ فالإسلام صاحب نظرة ثاقبة، وحكم سديد، في كل ما انبرى لبيانه، فقال الله ﷻ:﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة المائدة:50].

---

(1) هو: الإمام المجاهد مفتي المدينة سعد بن مالك بن سنان الخزرجي. مات سنة 74هـ. الذهبي: **سير أعـلام النـبلاء**. ج3ص168. ابن حجر: **الإصابة**. ج3ص78.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم الحديث3269. ج3ص1274.

والشمول في الحضارة عنصر ثقة، واطمئنان تركن إليه، وتستند إلى أركانه. و" شمول العقيدة الإسلامية، دون غيره؛ هو العامل القوي الذي يجمع إليه النفوس، ويحفظ لها قوة الإيمان"[1].

ويجدر بنا أن نجلّي فكرة تَلْجلَج فيها الفهم، وهي مدى تعارض الشمول في الحضارة كمقوم من أصول مقوماتها، مع مفهوم الاستفادة من الحضارات الأخرى، وما هو الحد الفاصل بين الشمول كميزة، والانفتاح على الحضارات الأخرى، والأخذ منها.

فالنظرة الشمولية للحضارة؛ لا تمنع الاستفادة من نتاج حضارة أخرى، ربما يفيد في جانب من جوانب الحياة. فالحضارة الأصيلة القائمة على أسس متينة، هي التي تفتح أبوابها للالتقاء مع الحضارات الأخرى؛ فتقتبس الحضارات الأخرى منها؛ قبس الهداية، وتعرج به إلى معارج النور. فالانفتاح مؤشر ثقةٍ، والأصالةُ برهان اطمئنان.

وإذا ما أخذت الحضارة الأصيلة من الحضارات الأخرى شيئاً؛ فإنما تأخذ مظهراً حضارياً، كأن تتميز بنتاج علمي، أو اكتشاف معرفي، أو آلة تحسن الإنتاج، وتسعد الإنسان في متاعه الدنيوي. ولا يقدح هذا في الحضارة التي تحسن الخَيار فيما يصح اختياره، من ألوان النشاط الإنساني.

ومن هذا السياق؛ تعلّم لغة أقوام آخرين، ومعرفة موروثهم الثقافي. لقد أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت[2]ﷺ أن يتعلم اللغة السريانية؛ ليقرأ كتُبهم؛ فتعلمها في سبعة عشر يوماً"[3].

والقرآن الكريم أمر المسلمين أن يسيحوا في الأرض؛ ليتلقفوا العِبر من الأقوام الغابرة الذين طوتهم الأرض في بطنها،﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة

(1) العقاد، محمود عباس: **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**. 1مج. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي. 1368هـ/1966م. ص27.

(2) زيد بن ثابت ﷺ : الإمام الكبير شيخ المقرئين والفرضيين ومفتي أهل المدينة. وأحد كتّاب الوحي. مات سنة 45هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص427. ابن حجر: **الإصابة**. ج2ص592.

(3) ينظر: ابن حنبل: **مسند أحمد**. ج5ص182. الترمذي: **سنن الترمذي**. كتاب الاستئذان. باب ما جاء في تعليم السريانية. رقم الحديث2715. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ابن حبان، محمد: **صحيح ابن حبان**. 18مج. ط2. تحقيق شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1414هـ/1993م. ج16ص84. ج5ص67. الطبراني: **المعجم الكبير**. ج5ص155.البيهقي: **سنن البيهقي الكبرى**. ج6ص211.

الأنعام:11] . فكيف بالأمم الحية والحضارات القائمة، التي لا تخلو من فائدة، سواء أثّرت سلباً بترك ما هي عليه، أو إيجاباً في بناء لبنة تشاد فوقها قلعة الحضارة.

وقد تستفيد حضارة من أخرى من وسائل، وطرائق في العمل، قد تكون أحكم من غيرها، أو أدقّ في نتائجها، ولا يتحقق مثل ذلك ما لم تفتح الحضارات طاقة على العالم؛ تنال خيـراً مـن حضارة؛ وتدفع شراً من أخرى.

ولا يتناقض الشمول مع تنعم الحضارات الأخرى، بما تنتجه الحضارة الرائدة، وتكتسب مـن مكتسباتها؛ فلَكَم أضاءت قناديلُ حضارتنا، ظلماتِ أوروبا في القرون الوسطى. ولكَم احتكـرت حضارة الغرب اليوم مكتشفاتها، وحرمت الإنسانية من نعيمها؛ بنظرتها الأنانية الضيقة. ولكـم شرعت أبواب سوئها على العالم، وصبت تلوث أفكارها في سبل الحياة؛ فعثّرتْ السائرين فيهـا، ودعثرت السالكين مهاوي الردى.

أهـدتِ الـشام إلـى الغـربِ نبيـا هـو عـف ومـواسٍ وصـبور
ومِـن الغـربِ إلـى الـشام هـدايا مـن قِمـارٍ ونـساءٍ وخمـور[1].

(1) البيت لشاعر الإسلام محمد إقبال ولد الشاعر الكبير في عام 1873م في إقليم البنجاب. وتوفي عام 1918م. والبيتـان ينظران في: الكيلاني، نجيب: **إقبال الشاعر الثائر**. 1مج. ط3. بيـروت: مؤسـسة الرسـالة. 1400هـ/1980م. ص115.

المبحث السابع

الخطاب الإنساني

إن كان للحضارة من وجه مشرق؛ فوجهها المضيء هو إنسانيتها، وتوجيه خطابها للإنسان، تناديه في أعماق نفسه، وتبرز صفتَه الإنسانية، كما أرادها الله ﷻ. وإن كان من وجه قبيح للحضارة؛ فهو عنصريتُها البغيضة البشعة التي تميز البشر حسب ألوانِهم، وأموالهم، وأنسابهم.

ولهذا رأينا القرآن الكريم، وهو يبني الحضارة؛ يخاطب الإنسان من حيث كونه إنساناً، فهو محور خطابه، بغض النظر عن اعتبارات أخرى.

وكان هذا الإعلان الإنساني للحضارة من أول يوم غمر فيه النور الأرض، ومن أول ما سمعت أذن النبي ﷺ ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ [سورة العلق:1-2].

وانصهر في بناء الحضارة الإسلامية وتشييدها منذ اللحظة الأولى: عرب وأعاجم؛ وبيض وسود؛ وأغنياء وفقراء؛ وسادة وعبيد؛ ورجال ونساء؛ وشباب وكهول. وضربت الحضارة الإسلامية أروع الأمثلة على الإطلاق، في الخطاب الإنساني منذ بواكيرها. فكان بلال الحبشي[1]، وصهيب الرومي[2]، وأبو بكر القرشي[3].

---

(1) بلال بن رباح ؓ : مولى أبي بكر الصديق وأمه حمامة وهو مؤذن رسول الله ﷺ . من السابقين الأولين الذين عذبوا في الله شهد بدراً وشهد له النبي ﷺ على التعيين بالجنة. وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ . ومات في سنة 20هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج1ص347. ابن حجر: **الإصابة**. ج1ص326.

(2) صهيب بن سنان ؓ: من أوائل من أسلم، وشهد المشاهد كلها. ولما طعن عمر ؓ استنابه على الصلاة بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام وكان موصوفا بالكرم والسماحة ؓ مات بالمدينة في سنة 38هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2 ص18. ابن حجر: **الإصابة**. ج3ص449.

(3) عبد الله بن عثمان التميمي القرشي. أبو بكر الصديق ؓ. خليفة رسول الله ﷺ. وصاحبه في الهجرة، ولد بعد عام الفيل. وكان أول من أسلم. مات في سنة13هـ. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج4ص169.

وسمية الشهيدة أم عمار[1]، وزنيرة الرومية المجاهدة[2]. وعثمان بن عفان[3] الثري، وعلـي[4] الشاب الفدائي. ﭫ وأرضاهم. وغيرهم كثير.

هتف القرآن في نفوسهم؛ فسرتْ هدايتُه إلى قلوبهم؛ فلبت أرواحهم النداء؛ وصدحت تراتيـل القرآن بين حنايا أرواحهم الإنسانية؛ فاهتدت بصداها نفوس اشرأبت لبناء حضارة طاولت عنان السماء، وزكّت الأرض بقامتها الشماء.

بدأت النظرة الإنسانية للبشر منذ أن كان الخَلْق، فكلهم من نفس واحدة؛ فلا تمييز بـالجنس، وليس هناك طبقة أعلى من طبقة، أو نظرة علوية لفئة، ونظرة دونية لأخرى؛ فكلهم ينسلون من نفــس واحــدة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ [سورة النساء:1].

والأوهام العنصرية التي شاعت في الحضارات السابقة، كانت سخافات استعلت بها فئة على فئة، واستعبدتها بغير حقّ، وقضت على المعاني الإنسانية،" فكانت الأكاسـرة ملـوك فـارس، يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقـدون أن فـي طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً"[5].

---

(1) سمية أم عمار: رضي ﷲ عنها: من كبار الصحابيات.كانت سابعة سبعة في الإسلام.عذبها أبو جهـل فطعنهـا فـي موضع العفة، فكانت أول شهيدة في الإسلام. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج1ص407. ابن حجـر: **الإصـابة**. ج7ص712.

(2) زنيرة ﭫ : كانت من السابقات في الإسلام، وكان أبو جهل يعذّبها. اشتراها أبو بكر الصديق ﭫ وأعتقهـا. فأصـيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت ﷲ مـا يغنـي الـلات والعزى ولا ينفعان فرد الله إليها بصرها. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج7ص464.

(3) عثمان بن عفان ﭫ :أمير المؤمنين الأموي القرشي.ولد بعد عام الفيل بست سنين.أسلم علي يد أبي بكر الـصديق ﭫ وتزوج بنت رقية بنت الرسول ﷺ ،فماتت فزوجه ﷺ بنته الأخرى أم كلثوم، فلقب بذي النورين. جهز جيش العسرة، وأعماله الجليلة لا تحصى كثرة. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج4ص456

(4) علي بن أبي طالب ﭫ: أمير المؤمنين. كان أول الناس إسلاماً وهو ابن عم رسول ﷲ ﷺ وزوجه بنته فاطمة. وقـال له: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى". ولد قبل البعثة بعشر سنين.ومناقبه كثيرة وفيرة. ومات في سـنة 40هـ ـ. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج4ص564.

(5) الندوي، أبو الحسن علي الحسني: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**. 1مج. ط6. بيـروت: دار الكتـاب العربـي. 1385هـ/1965م. ص40.

"وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة؛ ينفرد الأحبار بتلاوة أسفارها؛ ويحرمون على الطبقات المحرومة تلاوتها، والتعرض لفهمها وتفسيرها، وإذا سمع رجل من المنبوذين يقرأ من كتبهم؛ فمن واجب الملك أن يصب الرصاص المذاب في أذنيه"[1].

وكذلك هو الحال نفسه مع الحضارة المادية الغربية الحديثة، التي تستعبد البشرية جمعاء؛ لخدمتها. فحضارة الفرس استعبدت الفرس وحدهم، أما حضارة الغرب اليوم؛ فتستعبد البشرية من أقصاها إلى أقصاها. فانتُزعت صفةُ الإنسانية منها، ونصبت نفسها إلهاً على البشر، تمتص دماءهم، وتنهب خيراتهم، وتعاملهم معاملة أدنى من العبيد. وضحايا العنصرية البغيضة اليوم شواهد على الحضارة المادية الغربية في أمريكا، وأفريقيا وغيرهما. وكيف تُعامِلُ الإنسان حسب فصيلة الدم، ولون البشرة؟ ثم تدعي الحضارة، والرقي، وكأن الحضارة مِلكٌ للجنس الأبيض.

والحضارة التي وضعت أمام عينها إسعاد البشرية، لا بد أن تكون إنسانية الخطاب؛ تخاطب روحه، وعقله، وقلبه، وحاجاته. ولا تمايز بين الناس على لون، ومكانة. "فالدين هو الذي يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب، والأجناس، والتماس الهداية للغالب، والمغلوب، فشتان دعوة إلى توحيد العبادة تقوم على السيادة، والاستعباد، ودعوة إلى توحيد الإنسانية في حقوق واحدة، وهداية واحدة، وإيمان بإله واحد لا إله غيره يتساوى الناس بين يديه، ولا يتفاوتون بغير الفضل، والصلاح"[2].

والنزعة العنصرية البغيضة قامت عليها حضارات معاصرة، بنَتْ أفكارها من المادية الغربية الحديثة، كما هو حال النازية التي "اعتبرت تفوق الجنس الآري ركناً من أهم أركانها، أن الجنس الآري وحده أهلٌ دون سواه لإنشاء الحضارة"[3].

---

(1) العقاد، عباس محمود: **مطلع النور**. 1مج. ط1. بيروت: دار الكتاب العربي. 1969م. ص128.

(2) المصدر السابق: ص125.

(3) الخطيب، عمر عودة: **نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري**. مج1. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1398هـ/1978م. ص80.

واقترفت الحضارة المادية الغربية بشقيها الأمريكي والأوروبي أبشع صور العنصرية تجاه السود، وأولئك الذين لا تجري في عروقهم دماء الرجل الأبيض[1].

والخطاب الإنساني في الحضارة بشرى طمأنينة للإنسان، وعنصر قوة يقتل الأنانية، ويحيي روح العمل في بنائها، وبقائها، والإخلاص لها. فالإنسان محلّ الخطاب الإلهي، والتكليف الرباني، فمن الطبيعي أن يكون باني الحضارة، وحامل مشعلها.

وتتجلّى إنسانية الحضارة في خطاب الهداية، الموجه للناس جميعاً، حيث الناس، فلا يوجد طبقة النخبة، ولا السادة، ولا الإنسان الأصفر دون الأبيض، ولا الأسود دون الأحمر."والإنسان كما صوره القرآن، ليس هو الإنسان العربي، أو الأعجمي، أو القرشي، أو اليماني، وإنما هو الإنسان في خلقته الأولى، الذي خلقه الله من طين لازب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين"[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [سورة النساء:174-175].

والقرآن الكريم معظمه "إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان"[3]. وتنزيل الذكر الحكيم، إضاءة ربانية للناس، تشعل الظلمات بمصباح الهداية،﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [سورة إبراهيم:1].

وإنسانية الحضارة؛ تؤهلها لأن تكون عالمية الراية، يرفل العالم كله تحت أثوابها الزاهية. وتعم رسالتها الجنس البشري. وهذا الإشراق العالمي، وعتْه الحضارة الإسلامية، وهي في مرحلة التأسيس، وتقعيد القواعد في مهد النور "مكة"، من كُوة الغار في "حراء"، فقال ﷺ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سورة سبأ:28].

وبنى القرآن الكريم، أسس العلاقات الإنسانية بين الشعوب، على أساس وحدة الجنس البشري، والنوع الإنساني، وجعل مضمار السباق في الالتزام الديني المعبر عنه بتقوى الله

(1) ينظر: الخطيب: **نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري**. ص110-118.

(2) المبارك، محمد: **دراسة أدبية لنصوص من القرآن**. 1مج. ط4. بيروت: دار الفكر. 1392هـ/1973م. ص125. لم تذكر بلد النشر.

(3) القرضاوي: **الخصائص العامة للإسلام**. ص61.

ﷻ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات:13]. "فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية؛ وهي طاعة الله تعالى، ومتابعة رسوله ﷺ "[1].

والمهمة الجليلة للحضارة الباقية الرشيدة، ذات البعد الإنساني، هي مهمة قيادية، تمد أذرعها، للعالم أجمع، وتحتضن البشرية؛ فتقوم تلك الحضارة بمهمة الشهادة على التبليغ، والشهادة على الإنجاز، والشهادة على الالتزام لعموم الإنسانية، والنسل البشري المتعاقب من بني آدم ﷺ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ [سورة الحج:78].

وما دامت الحضارة إنسانية في كل مضامينها؛ فهي عادلة في نظرتها، منصفة في أحكامها، تقطر لطافة في وقائعها، وتفيض بالمعاني الإنسانية بشمولها، ومسلكياتها،﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [سورة النساء:105].

والإنسانية سبب في ديمومة الحضارة واستمرارها؛ فتخلد ما خلد الإنسان حاملها، وتمتد آجالها، بأجيال البشر، وليس بجيل شخص أو عِرق. فإن اندثر قوم عاشت بأقوام آخرين. ولئن ضاق بها قُطر؛ فُتحت لها أقطار أخرى. ولئن انقرض شعب حملها؛ فنهض بها شعوب أخرى، سارت بها، وسارت بهم ترتقي مدارج السعادة.

كما أن الإنسانية في الحضارة، تغذية متواصلة للحضارة بعقول مبتكرة، وضخّ لدماء جديدة في عروقها، وصهر لأجناس مختلفة، تحمل أثقال البناء، وتنعم بمزايا الحضارة. كما صنعت حضارة الإسلام؛ إذ التقت فيها جميع اللغات، والأجناس، وذابت الفروق، وانهمكت الهمم في تشييد صرح حضارة ما زالت مثالاً في التقدم والرقي والعطاء.

وهم أخوة في الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [سورة الحجرات:10]. ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [سورة الأنفال:63].

---

(1) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**. 4مج. بيروت: دار الفكر. 1388هـ/1969م. ج4ص217.

المبحث الثامن

الاقتصاد المزدهر

الاقتصاد قوة كبرى في دفع الحضارة إلى طريق الصعود، ومدها بأسباب الحياة. وغدا الاقتصاد متحكّماً في السلطان، والقوة، ويحرك حضارات نحو القمة، ويردي بأخرى إلى قاع الهاوية.

ويبلور الاقتصاد النسيج الثقافي للحضارات، ويحدد ملامح مستقبلها، ويرسم خريطة حاضرها. كما أن الاقتصاد عنصر استقرار للحضارة، ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قريش:3-4].

والنظرة إلى الاقتصاد في الحضارة، كمقوم من مقوماتها، لا تختلف عن سائر المقومات، في تفرعها عن الإيمان بالله ﷻ، وانبثاقها من التصور الاعتقادي الصحيح، فربط القرآن الكريم ما بين الازدهار الاقتصادي، والإيمان بالله فقال الله ﷻ:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف:96]. "لفتحنا عليهم بركات من السماء، والأرض؛ أي يسرنا لهم خير السماء، والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها "[1].

وربما ظن ذو نظرة قصيرة، أن ارتباط الاقتصاد بالمعتقد الديني؛ يعني ترك السعي، والاستسلام للأقدار بالمفهوم السلبي. وهذا وهمٌ، وخيال. فالقرآن الكريم، دعا إلى السعي في طلب الرزق، والكدح إلى الوصول إليه، فقال ﷻ:﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة تبارك:15]. فوسعت الآية أبواب الرزق، وجعلته في مناكب الأرض؛ مبتغى للطالبين؛ وميسراً للمسترزقين. والتعبير القرآني بالغ في تذليل الأرض

(1) الشوكاني، محمد بن علي: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية**. 5مج. بيروت: دار الفكر. لم يذكر التاريخ ولا الطبعة. ج2ص228. وهنا ألتمس معنى بلاغياً في الآية، وهو دقة التعبير القرآني في قوله ﴿ بركات ﴾ ولم يقل رزقاً، فقد تفتح الدنيا على حضارة وتزدهر اقتصادياً، ولكن لا بركة فيه، فهو معرض للمحق، بينما التعبير هنا فيه بركة من الله ﷻ.

للمعاش، وتمهيدها لسعي الإنسان،" فذلول على وزن فعول للمبالغة من ذلك نقول: دابة ذلول بينة الذل"[(1)].

وعدت الشريعة الإسلامية، الضرب في الأرض، وطلب الرزق، عبادة، وقربى يتقرب بها العبد إلى ربه،﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [سورة الجمعة:10].

والاقتصاد المنسلخ عن الإيمان، يتحول فيه الإنسان إلى وحشٍ ضارٍ مفترس، لا يشبع، ولا يقنع. ويقيم امبراطورية المال على الهياكل العظمية للفقراء والمحرومين. وهذا ما فعلته الرأسمالية الغربية؛ فأنتجت حضارة مصاصي الدماء. ونحن في الشرق الإسلامي أبرز ضحاياها؛ إذ تنهب خيراتنا وتتركنا جوعى، وعرياناً. ننظر إلى خيراتنا؛ فلا نملك لقمة تسد جوعتنا، أو كسوة تستر عورتنا. ولعل عراقَ الرافدين؛ أدلّ دليل على ذلك في عصرنا.

والتعثر الحضاري، والتخبط في المسيرة الحضارية، له صلة كبرى بالمناهج الاقتصادية التي تبني عليها الحضارة صروحها. فإذا تبنّت الحضارة الحقّ، منهجاً اقتصادياً لا يتفق مع عقيدتها، ولا ينبلج من تصورها الاعتقادي؛ فإن هذا التخبط يحدِثُ صورة شوهاء لتلك الحضارة؛ سببها منهاجها الاقتصادي.

ولكم قوض الاقتصاد الفاسد صروح حضارات تغنّى بها الزمان؛ فنخرتها سوسة الاقتصاد العفن. ولهذا أكّدتُ منذ البداية أن الاقتصاد فرعٌ من التصور الاعتقادي. ومهما جاهد بناة الحضارة في سلخ أي اقتصاد دخيل عن العقيدة التي أنتجته؛ فلن يتم ذلك. "وكأنه من الناحية الفنية يحاول تخليص جسد من روحه، ويرجو أن الجسد سيبقى حياً، وسيقوم بمهماته"[(2)].

---

(1) التوحيدي، أبو حيان محمد بن يوسف: **البحر المحيط**. 8مج. ط2. دار الفكر. 1403هـ/1983م. لم تذكر بلد النشر. ج8.ص300.

(2) ابن نبي، مالك: **المسلم في عالم الاقتصاد**. 1مج. بيروت: دار الفكر. بلا طبعة ولا تاريخ. ص42.

وهناك أمر ذو أهمية، وتظهر علاماته في حياتنا المعاصرة، وهو دور الاقتصاد في الحياة الاجتماعية، وتغيير السلوك؛ فأصبح الاقتصاد يأخذ دور العقيدة التي تشكّل نمط الحياة، ويرسم خارطة حاضرها، ومستقبلها، ولهذا كله تتبع خطورة الاقتصاد على السلوك الحضاري.

ومما يدل على ارتباط الاقتصاد بالتصور الاعتقادي، وتأثيره، وتأثره بالسلوك الاجتماعي، قوله ﷻ:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة المائدة:66]. "فالكلام استعارة، ومبالغة في التوسعة، كما يقال: فلان قد عمه الخير من قرنه إلى قدمه"[1]. "وقد أعلم الله تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق"[2].

وقوله ﷻ:﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾[سورة الجن:16]. يعني ذلك "ألّو استقاموا على الدين؛ لعاشوا عيشاً رغداً"[3]. وقد خص ذكر الماء لحكمة،" إنما تجوز بالماء الغَدق، وهو الكثير؛ لأنه أصل المعاش، وسعة الرزق، ولعزة وجوده بين العرب"[4]. فالخيرات الاقتصادية متعددة الأبواب، واسعة الرحاب، "فالاقتصاد ليس قضية إنشاء بنك، وتشييد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان، وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات"[5].

والاقتصاد عصب الحضارة، ومؤشّر فعال في قوة تأثيرها، ونجاحها، وأولاه القرآن الكـريم أهمية بارزة، وأنشأ حروفه وكتّب أبجديته بخطوط عريضة، ثم فصل فيها كلما اقتضى الأمـر. وقدم "للإنسانية كلها مذهباً جديداً قوامه التعاون الإنساني، لا الربح المادي، والصراع الطبقي"[6].

---

(1) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. 5مج. ط1. تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية. 1413هـ/1993م. ج2ص217. وتفسيره لهذا الآية أفضل ممـا حـصره غيـره بالنبات والماء. فالأرض تخرج اليوم خيرات وخيرات.

(2) الجوزي، عبد الرحمن بن علي: **زاد المسير في علم التفسير**. 9مج. ط3. بيروت: المكتب الإسـلامي. 1404 هـ. ج2ص395.

(3) الطبري: **جامع البيان في تفسير القرآن**. ج29ص115.

(4) القاسمي، محمد جمال الدين. **محاسن التأويل**. 17مج. ط2. تحقيق محمد فؤاد عبـد البـاقي. بيـروت: دار الفكـر. 1398هـ/1978م. ج16ص310.

(5) ابن نبي: **المسلم في عالم الاقتصاد**. ص61.

(6) المبارك، محمد. **نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد**. 1مج. ط3. بيروت: دار الفكر. 1400هـ/1980م. ص6.

ومن أسس الاقتصاد الرائعة والهامة، أن جعل القرآن الكريم مرد الازدهار بداية واستمراراً، لله رب العالمين الخالق الرازق، فهو باسط الرزق، وهو الآمر في طرق توزيعه. قال ﷻ:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾[سورة الروم:37-38]. والإسلام "يخضع تداول المال لشرع الله. وهذا الشرع يحقق مصلحة الفرد، والجماعة، ويقف بين ذلك قواماً لا يضار الفرد ولا الجماعة"(1).

والاقتصاد في الحضارة الإسلامية مرتبط بالحلال، والحرام. ووسعت الشريعة أبواب المعاملات المالية وجعلت الأصل في العقود الإباحة(2). فللإنسان أن يبتكر من العقود ما شاء خدمة لحاجته؛ على أن تظل تلك المبتكرات ضمن القواعد العامة في الشريعة. وحرمت الشريعة ضروباً أخرى من المعاملات. كالربا، والغش، وأكل المال بالباطل، والاحتكار،.... وهي عندما تفعل ذلك، تنظر إلى مصلحة المجتمع، وحمايته من سطوة الطامعين، والانتهازيين. فهي لا تطلق اليد في الاقتصاد لدرجة تجاوز الحد بأكل الحرام، ولا تغلّها عن العمل، والكسب في الإطار المشروع. وقد وصف علماء الاقتصاد اقتصادنا الإسلامي بأنه "ديني أخلاقي إنساني"(3).

"فبينما يمارس الأفراد حريات غير محدودة في ظل الاقتصاد الرأسمالي، وبينما يصادر الاقتصاد الاشتراكي حريات الجميع.. يقف الإسلام موقفه مع طبيعته العامة؛ فيسمح للأفراد بممارسة حرياتهم ضمن نطاق القيم، والمثل التي تهذب الحرية، وتصقلها؛ وتجعل منها أداة خيرة للإنسانية كلها"(4).

وحرك التصور الاعتقادي عجلة الاقتصاد، في كل سبيل ممكن، وحول حاجة المحتاجين إلى مساهمة بنّاءة في الاقتصاد، وغدت عاملَ إنتاجٍ، يمد له يداً عاملة، لا يداً سائلة.

---

(1) قطب، سيد: **العدالة الاجتماعية في الإسلام**. 1مج. ط6. بيروت. القاهرة: دار الشروق. 1399هـ/1979م. ص113.

(2) للمزيد عن قاعدة الأصل في العقود الإباحة. ينظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر: **أعلام الموقعين عن رب العالمين**. تحقيق طه عبد الرؤوف. 4مج. بيروت: دار الجيل. 1973م. ج1ص344.

(3) سعيد، د.صبحي عبده: **التنظيم الاقتصادي الإسلامي**. 1مج. القاهرة: دار النهضة العربية. 1417هـ/1997م. ص13. لم تذكر الطبعة.

(4) الصدر، محمد باقر: **اقتصادنا**. 1 مج. ط4. بيروت: دار الفكر. 1393هـ/1973م. ص260.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:"والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله؛ فيحتطب على ظهره؛ خيرٌ له من أن يأتي رجلاً؛ فيسأله، أعطاه، أو منعه"(1). وحثّت النصوص الشرعية على المبادرة إلى بناء الاقتصاد؛ فعدت خير مأكل يهنأ به الإنسان؛ هو ذلك المأكل الآتي من كد اليد وعرق الجبين. عن المقداد بن معدي يكرب(2) ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده. وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"(3).

والقرآن الكريم، حذر أولئك الكانزين أموالهم، فلا ترى وجه الشمس، ولا تعرف طريق الاستثمار، فتُدفن مخافة المساهمة في لقمة الفقير، والمسكين، وتطوير الاقتصاد، وتحريك عجلته، فقال ﷻ:﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [سورة التوبة:34].

والاقتصاد المزدهر في الحضارة، ليس ذاك الاقتصاد الذي تنتفع من جناه طبقة واحدة في المجتمع، تُنعتُ بطبقة الرأسمالية، ولا ذاك الذي يضخّ المال في جيوب المتخمين المترفين. فقال ﷻ:﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ [سورة الحشر:7] ومعنى قوله تعالى ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ ﴾ "كي لا يكون متداولاً بين الأغنياء؛ يتكاثرون به"(4). فالاقتصاد الذي يراعي العدل في التوزيع ويحقق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع؛ كي لا يتحول إلى وسيلة لاستعباد البشر، ولا سبباً من أسباب الكراهية، والبغضاء، والحقد بين فئات المجتمع. ولا طريقة من طرق بيع الإنسان وشرائه؛ وذلك باستغلال حاجته. "ولا يمكن للمال أن يساعد في تحقيق الهدف إلا إذا تم تخصيصه بكفاءة، وتوزيعه على نحو عادل"(5).

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الزكاة. باب قوله تعالى وفي الرقاب. رقم الحديث 1401. ج2ص535.

(2) المقداد بن معدي يكرب: صحب النبي ﷺ ومات سنة 87هـ. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج6ص204.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب البيوع. باب كسب الرجل وعمله بيده. رقم الحديث 1966. ج2ص730.

(4) التوحيدي: **البحر المحيط**. ج8ص245.

(5) شابرا، د.محمد عمر: **الإسلام والتحدي الاقتصادي**. 1مج. ط1. ترجمة د.محمد زهير السمهوري. فرجينيا. عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. والمعهد العربي للدراسات المالية والمصرفية. 1416هـ/1996م. ص37. وهذا الكتاب يغص بالمعلومات القيمة.

وللعدالة الاجتماعية في الإسلام طريقتها البديعة في تفصيلها،" والعدالة الاجتماعية تحتـوي على مبدئين عامين، لكل منهما خطوطه وتفصيلاته: أحدهما: مبدأ التكافل العام، والآخر: مبـدأ التوازن الاجتماعي"(1).

والعدالة الاجتماعية هي من صميم نجاح الحضارة في الاقتصاد، وامتازت حضارة الإسـلام بأروع صورها، ومعانيها، وتطبيقاتها في الحياة. ومن ذلك فريضة الزكاة التي هي ركـن مـن أركان الإسلام. وفرض الله للفقير في مـال الغنـي، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سـورة التوبـة:103]. ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات:19]. وتوزيع تلك الفريضة كان بأمر رباني، فقـال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة التوبة:60].

إضافة إلى نظام النفقات ذي العدالة بين الأقارب، وتقسيم التركات، بالأمر الإلهي الفاصل. وغير ذلك مما يعد من منظومة الاقتصاد، في إنعاش الحضارة، ومدها بأسباب القوة، والبقاء، والسعادة والرخاء.

لقد حققت الحضارةُ الإسلاميةُ، العدالةَ الاجتماعية، واقعاً في الحياة؛ ففي عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ؛ كان يخصص للأطفال الرضع مخصصات مالية "وكان يفرض للمولود إذا ولد عشرة دنانير"(2). وفي عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز "صرف إلى كـل ذي حـق حقه، وكان مناديه في كل يوم ينادي: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاًّ من هؤلاء"(3).

والعدالة الاجتماعية، تضمنت رعاية المحتاجين، ولم تكن ستاراً لجمـع الأمـوال باسـمهم، وادخار مقتطعات الفقراء، والمحرومين في جيوب المتخمين. أو توزيعها على أسس المحسوبية،

---

(1) الصدر: **اقتصادنا**. ص265.

(2) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **فتوح البلدان**. 1مج. تحقيق رضوان محمد رضوان. بيروت: دار الكتب العلمية. 1403هـ. ص: 445. لم تذكر الطبعة.

(3) ابن كثير: **البداية والنهاية**. ج9ص200.

والقرابة. فقد اشتكى الفاقةَ علي ﷺ زوج فاطمة رضي الله عنها، بنت الرسول ﷺ وعض الجوع حاله؛ فأجابه ﷺ بما روى علي ﷺ قال: قال النبي ﷺ:" لا أعطيكم وأدع أهل الصفة؛ تلوى بطونهم من الجوع. وقال مرة: لا أخدمكما، وأدع أهل الصفة تطوى"(1).

والبشرية اليوم لهي أحوج ما تكون إلى دين الإسلام، وعدالته الاجتماعية، بعدما تلظت بنار المذهب الرأسمالي الذي امتص دماءهم، والمذهب الاشتراكي الذي أقفر خضراءهم. فقامت الشيوعية وبادت، ولم تستطع إطعام أهلها لقمة الخبز، ولم توفر لهم حبة القمح. فأي سعادة تنتظر البشر إن شدوا المسير إلى منارة الهدى؛ دين الإسلام، وحضارته الغنّاء.

والاقتصاد المزدهر يهدف إلى تنعم الإنسان، وتمتعه، بما من الله ﷻ عليه. فقال ﷻ:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[سورة الضحى:11]. "أي وكما كنت عائلاً فقيراً؛ فأغناك الله؛ فحدث بنعمة الله عليك"(2).

وعن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"(3).

والاقتصاد وسيلة من وسائل التقرب إلى الله ﷻ وذلك بأداء حق الله فيه من الزكاة، والصدقة، وغيرهما. "فإن النشاط الاقتصادي في الإسلام، على خلاف النشاط الاقتصادي في

(1) ابن حنبل: **مسند أحمد**. ج1ص79. وابن عبد الواحد، أبو عبد الله محمد المقدسي: الأحاديث المختارة. 10مج. ط1. تحقيق عبد الملك دهيش. مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة. 1410هـ. ج2ص88. وقال: إسناده صحيح.

(2) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج4ص523.

(3) وابن حنبل: **مسند أحمد**. ج2ص313. وحسنه الألباني. ينظر: التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب: **مشكاة المصابيح**. 3مج. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. ط2. بيروت: المكتب الإسلامي. 1399هـ/1979م. ج2 ص1246. الترمذي: **سنن الترمذي**. كتاب باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. رقم الحديث2819. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ج5ص123. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: **المستدرك على الصحيحين**. 4مج. ط1. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية. 1411هـ/1990م. ج4ص150. وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

النظم الوضعية؛ رأسمالية، أو اشتراكية يمكن أن يتحول من نشاط مادي بحت، إلى عبادة يثاب المسلم عليها؛ إذا ابتغى بنشاطه ذلك وجه الله ﷻ، وانصرفت نيته إلى مرضاته"[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾ [سورة البقرة:274].

وعن سعد بن أبي وقاص[2] ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك"[3].

ومن الخطأ القاتل أن يعد الاقتصاد غاية أخيرة، ونهاية يسعى إليها الإنسان، وكفى. فالحضارة الشقية هي تلك التي يتحول فيها الإنسان إلى عبد للمال؛ يخضع لسلطانه، وإرادته، ويلهث وراء بريق الذهب ولمعانه؛ لهث الشقي المكدود. عن أبي هريرة ﷺ قال: عن النبي ﷺ قال: " تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط. تعس، وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش"[4].

والاقتصاد يعني إنتاجاً متواصلاً إلى آخر رمق في الحياة. عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :" إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة؛ فليغرسها"[5]. "وتشدد السنة على الانتفاع بكل مادة

---

(1) العسال، د.أحمد محمد. وآخرون: **النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه**.1 مج. ط2. مصر: مكتبة وهبة. ص21.

(2) سعد بن أبي وقاص واسم أبي وقاص مالك بن أهيب. وسعد أحد المبشرين بالجنة، وأحد السابقين الأولين. وأحد أهل الشورى، أسلم ابن سبع عشرة سنة. وتوفي سنة 55هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج1ص92. ابن حجر: **الإصابة**. ج3ص88.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الإيمان. باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة. رقم الحديث56. ج1ص30. ومسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الوصية. باب الوصية بالثلث. رقم الحديث1628. ج3ص1250. واللفظ للبخاري.

(4) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الجهاد والسير. باب الحراسة في الغزو في سبيل الله. رقم الحديث2730. ج3ص1057. والخميصة: كساء أسود مربع له علمان. ينظر: ابن منظور: **لسان العرب**. ج7ص31. ومعنى إذا شيك فلا انتقش: يعني إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش. ينظر: ابن حجر، أحمد بن علي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. 13مج. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار المعرفة. 1379هـ. ج11ص255.

(5) ابن حنبل: **المسند**. ج3ص191. وابن حميد، عبد: **مسند ابن حميد**.1مج. ط1. تحقيق صبحي السامرائي. وآخرين. القاهرة: مكتبة السنة. 1408هـ/1988م. ص366. البخاري، محمد بن إسماعيل. **الأدب المفرد**. 1مج. ط1. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار البشائر الإسلامية. 1409هـ/1989م. ص168. وينظر: الهيثمي: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. قال الهيثمي: رواه البزار ورجاله أثبات ثقات.ج4ص63.

تصلح للاستفادة، وإن كانت ضئيلةً في نظر الشخص العادي"[1]. ولهذا كانت الخيرية في اليد العاملة المنفقة، وليس في اليد العاجزة الممدودة للسؤال. فعن حكيم بن حزام[2]ﷺ عن النبي ﷺ قال:" اليد العليا خير من اليد السفلى"[3].

والاستثمار في الحضارة يعم نفعه على كل أفراد الرعية، ولا يقتصر على فئة منها تتداول المال، ﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [سورة الحشر:7]. لا كما تفعل الرأسمالية بتكديس الأموال في البنوك، وتمتص دماء الناس عند تشغيلها، وتستغل حاجة الفقراء، والمعوزين. وتصهر الناس جميعاً في أتون الربا.

ولم يكن الاقتصاد المزدهر في يوم من الأيام يعني تخمة القلة، وجوع الكثرة. فهو اقتصاد أخلاقي، ومن أخلاقياته، أنه عد مد اليد الحانية غير الممتنّة للفقير والمحتاج واجب شرعي. فعن ابن عمر ﷺ قال رسول الله ﷺ: " وأيما أهل عرصة[4] أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله "[5]. وعن أنس بن مالك ﷺ قال رسول الله ﷺ :"ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه؛ وهو يعلم به"[6].

---

(1) القرضاوي: **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة**. ص175.

(2) حكيم بن حزام بن خويلد. أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وكان من أشراف قريش.وكانت خديجة ﷺ زوج النبي ﷺ عمته.وعاش 123سنة. ومات سنة 54هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج3ص44. ابن حجر: **الإصابة**. ج2ص112.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الزكاة. باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى. رقم الحديث1361. ج2ص518.

(4) العرصة: ساحة الدار. والبقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها. مجمع: **المعجم الوسيط**. ج2ص599.

(5) ابن حنبل: **مسند أحمد**. ج2ص33. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**. 10مج. تحقيق طارق بن عوض. وعبد المحسن بن إبراهيم. القاهرة: دار الحرمين. 1415هـ. ج8ص210. لم يذكر الطبعة. أبو يعلى، أحمد بن علي: **مسند أبو يعلى**. 13مج. ط1. تحقيق حسين أسد. دمشق: دار المأمون للتراث. ج10ص117. الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**. ج2ص14.

(6) ابن أبي شيبة: **المصنف**. ج6ص164. مروي عن ابن عباس. الطحاوي، أحمد بن محمد: **شرح معاني الآثار**. 4مج. تحقيق محمد زهري النجار. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1399هـ. ج1ص28،27. مروي عنة عن ابن عباس وعن أبي هريرة. وينظر: الهيثمي: **مجمع الزوائد**. فيه عن أنس برواية الطبراني والبزار. وقال: إسناده حسن. ج8ص167. وينظر: المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي: **الترغيب والترهيب**. 4مج. تحقيق إبراهيم شمس الدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1417هـ. ج3ص243. والمناوي، عبد الرؤوف: **فيض القدير**. 6مج. ط1. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. 1356هـ. ج5ص407.

ولقد زخرت النصوص الشرعية من القرآن الكريم، والسنة المطهرة بمئات النصوص التي تلهب حماس المسلمين في البذل، والسخاء في سبيل الله تعالى؛ لسد جوعة الجائعين؛ وإغناء الفقراء؛ وللمساهمة في الازدهار الاقتصادي، وعد هذا العمل المبرور من أهم صالح العمل الذي يطرق به المسلم باب الجنة؛ غاية سعادته الحقيقية، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [سورة آل عمران:133-134].

والامتناع عن المساهمة في رفعة الاقتصاد، والأخذ بيد الفقير والمحروم؛ سبب من أسباب ورود النار، والمكث في عذابها، وسقرها،﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ ﴾ [سورة المدثر:42-44].

وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قلت: لبيك يا رسول الله قال:" ما يسرني أن عندي مثل أُحدٍ هذا ذهباً، تمضي علي ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، وهكذا، وهكذا، عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه، ثم مشى، ثم قال: إن الأكثرين، هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا، وهكذا، وهكذا، عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه، وقليل ما هم"[1].

وإن كان من ختام لهذا المبحث، فلا بد من كشف الغطاء عن الازدهار الخادع، والتنعم الظاهر فيه؛ وهو يخفي وراءه مليارات الدولارات تسجل ديوناً على الشعوب المستضعفة، ترهق كاهلهم، ويراد منها أن تستعبدهم، فهناك حالة خادعة من الازدهار الاقتصادي، وهذا ليس من مقومات الحضارة في شيء، بقدر ما هو من علامات انهيارها، وعوامل دمارها، وسيأتي تفصيل ذلك. فكم من حضارة غابت شمسها وراء بحر الديون. وأفل نجمها بين الغيوم.

أما الازدهار فهو ما تجنيه الحضارة من ثمارها، وما تحصده من غرسها؛ فتتنعم بأموالها، لا بديونها. فقد تتوفر الحاجات في الأسواق، وتتنوع السلع، وتطفو مظاهر الرخاء، وتمتاز فئة من

(1) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الرقاق. باب قول النبي ﷺ ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً. رقم الحديث6079. ج5ص2367.

الناس بالغنى؛ وتبقى الفئة الكبيرة ترزح تحت سطوة الفقر؛ وتستف التراب. ولقد أتت الرأسمالية بفكرة خادعة في الاقتصاد، "صارت تقدر ثروة البلاد جملة بغض النظر عن مالكيها؛ فتقسم على أفراد الشعب، ويقال معدل دخل الفرد كذا، ولو كان الذي يملك هذه الثروة هو عشر هذا الشعب، وتسعة أعشاره لا يكاد يجد القوت، والكساء، ولا يكاد يجد بيتاً يأوي إليه"[1]. فهذا هـو الغنـى الكاذب، والازدهار المزيف.

والحضارة الإسلامية نعمت الناس من خيراتها، وأغنتهم غنى حقيقياً؛ لا زيف فيه. ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز[2] رحمه ﷲ "كان الرجل يأتي بالمال العظيم؛ فيقول: اجعلوا هـذا حيث ترون. فما يبرح بماله كله قد أغنى عمر الناس"[3].

"وأرسل رسوله إلى شمال إفريقيا على صدقاتها، فاقتضاها. وطلب الفقراء يعطهـم، فلـم يجـد فقيراً، ولم يجد من يأخذ الصدقات، لقد أغنى الناس"[4].

كما أن مفهوم الرخاء الاقتصادي، يشمل كل من دب على الأرض، أو طار فـي الـسماء، ولحقه ظِل الحضارة. عن أنس ﷺ قال: قال رسول ﷲ ﷺ :" ما من مسلم يغـرس غرسـاً، أو يزرع زرعاً؛ فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[5].

---

(1) المالكي، عبد الرحمن: **السياسة الاقتصادية المثلى**. 1مج. 1383هـ/1963م. لم يذكر بلد النـشر، ولا الناشـر، ولا الطبعة. ص14.

([2]) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي. الإمام، المجتهد، والخليفة، الراشد، العابد، أمير المـؤمنين. ينظـر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج5ص114.

(3) ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: **تاريخ الخلفاء**. 1مج. ط1. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مـصر: دار السعادة. 1371هـ/1952م. ص235

(4) ابن عبد الحكم، أبو محمود عبد ﷲ: **سيرة عمر بن عبد العزيز**. 1مـج. ط1. دمـشق. مـصر: المكتبـة العربيـة. 1346هـ/1927م. ص69.

(5) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب المزارعة. باب فضل الزرع والغرس. رقم الحـديث2195. ج2ص817. ومـسلم: **صحيح مسلم**. كتاب المساقاة. باب فضل الغرس والزرع. رقم الحديث1553. ج3ص1189.

المبحث التاسع

الأمن والنظام السياسي المستقر

لا يمكن لحضارة على وجه الأرض أن تعيش، دون أن تستقر، ولا يمكن لها أن تستقر وتهنأ؛ ما لم تستظلّ بظل نظام سياسي يحمي بيضتها، ويقيم ميزان العدل بين أطرافها، ويدفع العداة عن حياضها. ولئن جاز لي تشبيه الحضارة بالمملكة؛ فالنظام السياسي تاجها، والأمن ياقوتة التاج، وجوهرته.

والنظام السياسي؛ ذو منزلة خطيرة في البناء الحضاري؛ فهو يعكس صورة الحضارة سلباً وإيجاباً، وتحدث القرآن الكريم عن ذلك، حديثاً موغلاً في التحليل الاجتماعي، والسياسي، للأنظمة الحاكمة التي رعت الحضارات. ومن ذلك ما جاء عن ملكة سبأ، ونظرتها إلى الحكم الملكي فقال ﷻ:﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ ﴾ [سورة النمل:34]. فهي نظرة تعكس وجهة نظر سادت عن أنظمة الحكم الملكية آنذاك.

وكون النظام السياسي يتبوأ هذه المكانة المهمة؛ فجدير به؛ أن يكون مقوماً أساسياً، وركناً من أركان الحضارة.

وتوج القرآن الكريم، رحلة الكفاح في بناء الحضارة، وخلاصة السعي البشري، بشتى صنوفه، وأعبائه، وجهده، وجهاده؛ بأن جعل الخاتمة السعيدة في نظام سياسي؛ تخفق فوقه راية الحق؛ وتؤصل في جذوره أسس العدل؛ وتتقد في أنحائه جذوة الإيمان؛ ويتراخى الإنسان بعبادة ربه ﷻ، وهو مطمئن بلا فزع، وراضٍ بسكينة وطمأنينة، وهو يجني ثمار الصبر في المشوار الصعب، والدرب الطويل، بطاعة الله ﷻ. فتبسط الحضارة عباءتها، وترخي ذيولها، في ظلال الأمن، والأمان، وتقر عيونها مرضية بنظام سياسي مستقر. قال ﷻ:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ [سورة النور:55].

والاستخلاف له معنى سياسي واضح "ليستخلفنهم في الأرض يقول: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب، والعجم؛ فيجعلهم ملوكها، وساستها"[(1)].

والنظام السياسي أملٌ كانت عيون العاملين الصابرين ترنو إليه، وتجاهد لتحقيقه، ولربما استعجلوا ذلك اليوم المنشود؛ لتستعذب عذْبه؛ عسى أن تستريح من محنة العذاب؛ وتكتحل عيونهم برؤية الحضارة التي حملوا كدها فوق كواهلهم، قد استقرت في الأرض. إنهم يتوقون للمستقبل، ويتطلعون إليه؛ عسى أن تقر أعينهم بالسارية ترفرف فوقها أشرعة الحقّ المبين. وهم أمام تلك الحالة الشعورية؛ يخاطبهم النبي الكريم محمد ﷺ بأن يطمئنوا إلى وعد لا ريب فيه، فعن خباب بن الأرت ﷺ[(2)] قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض؛ فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار؛ فيوضع على رأسه؛ فيشق باثنتين؛ وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم، أو عصب؛ وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[(3)].

فمنذ أن نُفِخت الروح في رحِم الصحراء، والنفوس تترقب يوم ولادة الحضارة الجديدة، وتتشوق لرؤية البذور الجديدة نماء حضارياً؛ يخضر السهل، والجبل، وينمي الصحراء، والخضراء.

وعندما شعرت النفوس بأوصاب الطريق، وتباريح الألم، تلا عليها النبي محمد ﷺ وعد الحق، أن الراكب الذي كانت تتخطفه أسنّة الرماح، وكمائن قطاع الطريق؛ سيسير من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخشى إلا الله تعالى، والذئب - من عوداي الطبيعة - على غنمه.

---

(1) الطبري: **جامع البيان في تفسير القرآن**. ج18ص158.

(2) خباب بن الأرت التميمي من نجباء السابقين الأولين ومن المستضعفين. شهد بدراً والمشاهد، وعذّب في الإسلام كثيراً. مات في سنة 37هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص323. ابن حجر: **الإصابة**. ج2ص258.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام. رقم3416. ج3ص1322.

ولا تقتصر سعادة الحضارة في تحقيق الأمن ضمن النظام السياسي، حامي حماها. فـالأمن بداية حاجة نفسية، تنبع من الإيمان بالله ﷻ، وتوحيـده ﷻ؛ تهنـأ النفـوس بـه؛ وتهـدأ؛ ولا تضطرب؛ وتشقى.

وسجل القرآن الكريم الخطاب الحضاري العميق في حوار سيدنا إبراهيم ﷺ مع قومه، وهو يتغلغل بمفهوم الأمن إلى نفوسهم المستكبرة، ويسفّه حماقتهم في فهم الأمن، فقال ﷻ:﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة الأنعام:81-82]. هذا الأمان النفسي تفتقده أنظمة سياسية، ارتقت من الحـضارة الماديـة مرتقى عالياً، وأغدقت على نفسها من بحار المتع ما يغرقها في تلك البحار، بيد أنها لم تـستطع أن تنعم في أمان النفوس، وسكينة القلوب؛ فجنحت إلى التخاص من شقوتها بالانتحار. وصـدق ﷲ العظيم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الرعد:28].

والأمن من القواعد الضخمة التي ترسو عليها الحضارة، وتستقر، والأمن المقصود:" أمـن عام تطمئن إليه النفوس، وتتيسر فيه الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس بـه الـضعيف، فلـيس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة"[1].

والحضارة التي تنعم بنعمة الأمن كمقوم أساسي؛ هي تلك الحضارة التي تنجح فـي تربيـة أبنائها على أن الأمان للآخرين ينبعث من عقيدة غُرست في النفوس، وأن النظام السياسي يـأتي بالدرجة الثانية بتشريعاته وسلطانه؛ ليشهر أسنّة العدل في وجوه العابثين.

ففي الخطبة الحضارية الشهيرة التي ألقاها النبي ﷺ في حجة الوداع، وقـد احتـشدت جمـاهير غفيرة، كشف النبي ﷺ اللثام عن أهم القضايا التي تمس الحياة الإنسانية، ومنها الأمن الشخصي بمحاوره الثلاثة، الدم، والمال، والعرض. وجعل تلك الدوائر الثلاث تقع فـي دائـرة الحرمـة،

(1) الماوردي: **أدب الدنيا والدين**. ص157.

والصون. فعن أبي بكرة[1] ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حـرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. وستلقون ربكم؛ فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعن بعدي كفاراً، أو ضلالاً؛ يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب؛ فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه. ثم قال: ألا هل بلغت"[2].

لقد ضربت الحضارة الإسلامية أروع مثال، ونسجت أفضل منوال، في التربية الحـضارية، بتعزيز مفهوم الأمن الذاتي على النفس، والمال، " فقد اتفقت الأمة على أن الـشريعة وضـعت للمحافظة على الضروريات الخمس. وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقـل. وعلمهـا عند الأمة كالضروري"[3].

وعوداً إلى النظام السياسي الذي يعكس صورة الحضارة إشراقاً، ونضارة، فهذا النظـام، إن أرادت الحضارة أن تنعم بصورة مشرقة به، فهناك أسس ينبغي أن تكون فيه، دونهـا، سيـسود صورتها، بل ربما تلحق بها لعنة التاريخ بما كسب النظام السياسي. ولعل المباحث القادمة فـي أفول الحضارات ستكون أرحب في بيان هذا الوجه. أما أبعاد النظام السياسي؛ فقد جلّى القـرآن الكريم جوانبه، وأظهر قواعده.

ومن قواعد النظام السياسي: الحاكمية لله تعالى[4]. فالمرجعيـة للـشرع. "بمعنـى الـسيادة للشرع"[5] ، فالناس خاضعون لحكم الله خالقهم، ورازقهـم، ومحيـيهم، ومميـتهم، ومعطـيهم،

---

(1) أبو بكرة الثقفي الطائفي مولى النبي ﷺ اسمه نفيع بن الحارث. وقيل: نفيع بن مسروح تدلّى في حصار الطائف ببكرة وفر إلى النبي ﷺ وأسلم على يده وأعلمه أنه عبد فأعتقه. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج3ص5. ابـن حجـر: **الإصابة**. ج7ص46.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب العلم. باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع رقـم الحـديث67. ج1ص37. مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب القسامة. باب تغلـيظ تحـريم الـدماء والأعـراض والأمـوال. رقـم الحـديث 1679. ج3ص1305. واللفظ لمسلم.

(3) الشاطبي: **الموافقات**. ج1ص31.

(4) أبو فارس، د.محمد عبد القادر: **النظام السياسي في الإسلام**. 1مج. 1980. لم تذكر بلد النشر ولا الناشر ولا الطبعة. ص17. المودودي، أبو الأعلى: **الخلافة والملك**. 1مج. ط1. الكويت: دار القلم. 1398هـ/1978م. ص16.

(5) المودودي: **الخلافة والملك**. ص37. الخالدي، د.محمود: **قواعد نظام الحكم في الإسلام**. 1مج. ط2. 1983م. لم تذكر بلد النشر، ولا الناشر. ص34. أبو فارس، د.محمد عبد القادر: **مفاهيم إسلامية**. 1مـج. ط1. عمـان: دار الفرقـان. 1414هـ/1994م. ص77.

ومانعهم. وبالتالي تصفى النفوس، وترضى، ولا يقوى أحد على أن يتسلط بحكمه على أحد، ولا أن يتجبر، أو يستكبر عليه، قال ﷻ:﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة يوسف:40]. ثم بين القرآن الكريم أن النفوس المؤمنة المرضية هي التي تستسلم لحكم باريها رضية طواعية،﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[سورة النساء:65].

ومن قواعد الحكم، العدل، والمساواة[1]، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[سورة الحديد:25]. "فإن الله ﷻ أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط؛ وهو العدل الذي قامت به الأرض، والسماوات، فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان؛ فثَم شرع الله ودينه"[2]. وقد تحدثت عن العدل في مبحث سابق[3].

وقاعدة أخرى، تظهر أهمية المشاركة الشعبية في النظام السياسي، وتحمل الرعية المسؤولية، جنباً إلى جنب مع الحاكم في رعاية شؤون الأمة. تلك القاعدة العظيمة هي "الشورى"[4]. فالناس شركاء في بناء الحضارة، شركاء في صنع القرار، وهذا ما تمثله الشورى، ولأهميتها في النظام السياسي؛ سميت سورة كاملة في القرآن الكريم بسورة "الشورى"، ولتعزيز الشورى في نظام الحكم، جاءت أمراً من الله ﷻ:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [سورة آل عمران:159].

"والشورى ألفة للجماعة ومسبار[5] للعقول، وسبب للصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا"[6].

(1) المودودي: **الخلافة والملك**. ص39. أبو فارس: **النظام السياسي**.ص40.

(2) ابن القيم: **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**. ص21.

(3) ينظر: الفصل الأول. المبحث الرابع العدل.

(4) المودودي: **الخلافة والملك**. ص22. وأبو فارس: **النظام السياسي**. ص78. والخالدي: **قواعد نظام الحكم**. ص139.

(5) المسبار: يعرف به غور الأشياء. ينظر:مجمع: **المعجم الوسيط**. ج1ص415.

(6) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله: **أحكام القرآن**. 4مج. تحقيق علي محمد البجاوي. بيروت: دار المعرفة. ودار الجيل. 1407هـ/1987م. ج4ص1168.

ونحن "مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة، وما يتوقف عليه الواجب؛ فهو واجب"(1).

وقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [سورة الشورى:38]. وفي الآية دلالة لطيفة في الجمع بين فريضة الصلاة، والشورى، وهي: كما أن الصلاة عمود الدين وفريضة من فرائضه؛ فالشورى عمود النظام السياسي، وفرض من فرائضه أيضاً، وهذا "يدل على أننا مأمورون بها، والصحيح وجوبها، وهو المختار"(2).

وقال الله ﷻ: ﴿ وشاورهم في الأمر﴾. "والمختار الذي عليه جمهور الفقهاء، ومحققو أهل الأصول أن الأمر للوجوب"(3). "وشاورهم يقتضي الوجوب"(4).

وطُبقت الشورى واقعاً في حياة المسلمين، وظهرت آثارها في المواقف الفاصلة، والخطيرة التي تهم كيان الأمة، أو تهدد وجودها، وهي شورى شملت العامة، والخاصة من الناس.

ومن صورها ما حدث في غزوة بدر، واستشارة النبي ﷺ لأصحابه في الخروج للقاء المشركين(5).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ "(1). "وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم"(2).

---

(1) ابن عاشور، محمد الطاهر: **التحرير والتنوير**. 15مج. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع. ج4ص148. لم يذكر الطبعة ولا التاريخ.

(2) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي: **أحكام القرآن**. 3مج. مصر: المطبعة البهية المصرية. 1347هـ. ج3ص475.

(3) النووي، يحي بن شرف: **شرح النووي على صحيح مسلم**. 18مج. ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج4 ص76. وينظر في قاعدة الأمر للوجوب: الآمدي، أبو الحسن علي بن محمد: **الإحكام**. 4مج. ط1. تحقيق د.سيد الجميلي. بيروت: دار الكتاب العربي. 1404هـ. ج2ص166-168. وفي معاني الأمر، ينظر: السرخسي، محمد بن أحمد: **أصول السرخسي**. 2مج. تحقيق أبي الوفا الأفغاني. بيروت: دار المعرفة. ج1ص14. لم تذكر الطبعة.

(4) الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. 16مج. ط2. طهران: دار الكتب العلمية. ج9ص67. لم يذكر التاريخ.

(5) ابن هشام، عبد الملك: **السيرة النبوية**. 6مج. ط1. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد. بيروت: دار الجيل.1411هـ. ج3ص162.

والشورى "إنما يلهي الناس عنها حب الاستبداد، وكراهية سماع ما يخالف الهوى؛ وذلك من انحراف الطبائع؛ وليس من أصل الفطرة"(3).

والشورى قوة للنظام السياسي وعامل استقرار رئيس، يحد من سطوة السلطان. وهي "من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم، والدين؛ فعزله واجب"(4).

ولا مجال مطلقاً في الحضارة الراشدة، أن يتسلط الحاكم على رقاب الرعية، بحجة الحرب وما شابهها. ففي غزوة أحد، حيث أثخنت الجراح صفوف المسلمين، ونالت جِراب الكفر من أحشاء خيرة الصحب الكريم، نزلت الآيات العاطرات، بلسماً للجراح الثخينة، تؤكّد على ركن لا يتزحزح في بناء النظام السياسي؛ هو الشورى،﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران:159]. " فتعين أن المشاورة المأمور بها هنا؛ هي المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها، وقد أمر الله بها هنا، ومدحها"(5).

والنظام السياسي لا تقوم قائمته إلا برئيس يختار من بين الرعية، ضمن شروط فصلها الفقهاء. فـ" ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها"(6).

---

(1) ابن حنبل: **مسند أحمد**. ج4ص328. الترمذي: **سنن الترمذي**. كتاب الجهاد. باب ما جاء في المشورة. رقم الحديث1714. وقال الترمذي: حديث حسن. ج4ص213. والبيهقي: **سنن البيهقي**. باب ما جاء في تعشير أموال بني تغلب. ج9ص218.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. ج6 ص 2682.

(3) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج4ص150.

(4) ابن عطية: **المحرر الوجيز**. ج1ص534.

(5) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج4ص147.

(6) ابن تيمية، أحمد: **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**. 1مج. ط4. بيروت: دار المعرفة. 1969م. ص161.

ومهمة الرئاسة "حراسة الدين، وسياسة الدنيا"(1). ورئاسة الدولة، عقد يجب الوفاء به، طرفاه الرعية، والرئيس المولّى الذي رضي الرئاسة(2).

"فالإمامة عقد مراضاة واختيار لا يدخله إكراه، ولا إجبار"(3). وإذا ما تم اختيار الإمام رئيس الدولة، وجبت له البيعة من الرعية، والبيعة في المفهوم السياسي المعاصر تعني "حق الأمة في إمضاء عقد الخلافة"(4).

فيعطون الإمام صفقة أيديهم، وثمرة قلوبهم. ويطيعونه ما أطاع الله فيهم. وهذا يعد أسلوباً حضارياً متقدماً، فاق أسلوب أكثر الدول التي تدعي الحضارة في زمننا؛ حيث يشترى كرسي الحكم بوساطة الشركات الكبرى التي تمول الانتخابات الرئاسية، فلا يترشح لها إلا كبار الأغنياء، أو الذين يرضخون لإغراء المال. كما هو الحال في أمريكا، وأشباهها. ويظلّ ذلك الدين في ذمة الرئيس إلى أن يلبي طلبات تلك الشركات. فالمال هو ناخب الرئيس في تلك الدول(5).

---

(1) الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب: **الأحكام السلطانية**. 1مج. دار الفكر. ص7. بلا تاريخ، ولا طبعة، ولا بلد النشر.

(2) ينظر: الماوردي: **الأحكام السلطانية**. ص7. الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين: **الأحكام السلطانية**.1 مج. ط3. إندونيسيا: شركة مكتبة أحمد نبهان. 1394هـ/1974م. ص24.

(3) الماوردي: **الأحكام السلطانية**. ص7.

(4) الخالدي: **قواعد نظام الحكم في الإسلام**. ص105.

(5) ينظر للإطلاع: العسال: **النظام الاقتصادي في الإسلام**. ص23-24. ففيه نقل مطول عن كتّاب أجانب يكشف دور الشركات في تمويل الانتخابات وشراء أعضاء مجالس الشيوخ من قبل شركة أمريكية اسمها بترول الخليج." GULF OIL". وينظر: **جريدة القدس** عدد12655 بتاريخ2004/11/10 تحت عنوان "المتبرعون الكبار في الانتخابات الأمريكية ينتظرون ريع استثمارهم". نقلته عن أوليفر مروغان "الأوبزرفر" ذكر فيه أن حجم التبرعات لحملة للرئيس جورج بوش بلغت "360" مليون دولار. وتحت العنوان تفصيل.

الفصل الثاني

ضوابط الأمان في استمرار الحضارة وديمومتها وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: التناصح والمحاسبة.

المبحث الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثالث: مراعاة السنن الإلهية.

المبحث الأول

التناصح والمحاسبة

كي تستمر الحضارة في عطائها، وتبقى على نضارتها؛ فهي أحوج ما تكون للمحافظة على البقاء في القمة، وعدم التدحرج إلى الهاوية، أو التقهقر للوراء. أو أن تتسلل إليها أعراض الشيخوخة والهرم؛ فتؤول إلى الفناء.

وإذا أمعنا النظر في مسيرة الحضارات الزاهرة، فإن أبصارنا تقع على صمام الأمان فيها. وصمام أمانها هو التناصح، والنقد الذاتي، والمحاسبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

و"النصح إخلاص العمل عن شوائب الفساد. والنصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد"(1). والنصيحة كلمة جامعة" يعبر بها عن جملة: هي إرادة الخير للمنْصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بِكلمةٍ واحدةٍ تحصرها، وتَجمع معناها غيرها"(2).

"وقيل: النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب. وقيل: إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط"(3).

وأرسى القرآن الكريم مبدأ التناصح، وعده مهمة رسالية في الحياة؛ ترفع لواءها قوافل الرسل، والأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً. فنبي الله هود ﷺ أوجز بيان رسالته، كما خلّدها القرآن،﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:68].

وقلْب النبي المرسل؛ يتفطّر على المعرضين عن النصيحة الصادقة؛ ففيها النجاة، والحيدة عنها؛ فيها الهلاك. فنبي الله صالح ﷺ حكى القرآن موقفه، عندما ادلهم الخطب، ونزلت

---

(1) الجرجاني، محمد بن علي: **التعريفات**. 1مج. ط1. تحقيق إبراهيم الأبياري. بيروت: دار الكتاب العربي. 1405هـ. ص309.

(2) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد: **معالم السنن**. 4مج. ط2. بيروت: المكتبة العلمية. 1401هـ/1981م. ابن الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد: **النهاية في غريب الحديث**. 5مج. تحقيق محمود الطناحي. المكتبة الإسلامية. ج5ص63. لم يذكر الطبعة، ولا بلد النشر، ولا التاريخ.

(3) النووي: **شرح النووي على صحيح مسلم**. ج2ص37.

القارعـــة، فقـــال الله ﷻ:﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [سورة الأعراف:79] "كأنه كان مشاهداً لذلك؛ فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهداً في إبلاغهم الرسالة، ومحض النـصح، لكن أبو ذلك، فلم يقبلوا منه؛ فحق العذاب"(1). فطرح النصيحة جانباً، وصم الآذان عنها، وتجمـد المشاعر تجاهها، وإقفال القلوب عن آثارها، ترك قوم ثمود في مهاوي الردى، وهزتهم الرجفـة الغاضبة، ونزل بهم السخط الرباني الجبار، وطويت صفحة حضارتهم إلى الأبد. تحمل في ثنايا أشلائها الممزقة؛ عبرة للمعتبرين.

والموقف نفسه، يتكرر مع نبي الله شعيب ﷺ؛ فتعمى أبصار قومه عن نور الهدى، ويحـلّ الوقْر في آذانهم الصماء. ولم يعد للنصيحة آذان تسمعها، أو قلوب تعقلها، تلك النـصيحة التـي كانت كفيلة بتغيير مجرى التاريخ، وتصويب الفعل الحضاري، لتلك الأقوام؛ لو نفـذت معانيهـا إلى القلوب المعتمة بظلمة الجهل الداكن، والعناد، والكفر، أو تسللت إلـى رؤوسـهم المملـوءة بالغباء، والجاهلية، فاجتازت جدار الهوى، لكانت خلوداً حسناً، طير الزمان ذِكره علـى جبـين الدهر. ولكنهم آثروا رمي النصيحة في وديان الصمم، والعمى؛ فكانت النتيجة المـدمرة لتلـك الحضارة المعاندة، صماء الأذنين عن نصيحة نبي مكرم؛ فلم يستحق ذلك المصير المشئوم ذرف الدموع، أو إظهار الأسف، والحـزن،﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [سورة الأعـراف93]. وما زالت ذكراهم الشقية، مثالاً لكـل مستكبر عن النصيحة الربانية، والتبليغ الرسالي. وتشهد ذكرى حضارتهم الممزقة علـى أثـر الإعراض عن النصيحة في البناء الحضاري.

وكما يبنى على ترك النصيحة هلاك، ودمار؛ فإن النصيحة منجاة لمن أَلِفَ هـديَ الحـق، فضرب القرآن الكريم مثلاً على واجب تقديم النصح للشاب الناشئ في بيئـة كفريـة، يتهـدده خطرها، والناس تأمل فيه خلاصاً، وقد عقدت عليه نواصي الخير، فيأتي رجل يسارع الخطـى من أقصى البلاد؛ ليبلغ النصيحة الهادية المنجيـة، لنبـي الله موسـى ﷺ ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا

(1) الشوكاني: **فتح القدير**.ج2ص221.

ﭐلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ [سـورة القصص20].

فالنصيحة لها دورٌ جلَلٌ، في نجاة الحضارة إلى شواطئ السلامة، والمحافظة على كينونتها. كما أن لها الأثر المدمر للحضارة إن صمت عنها آذانها؛ فتطوى من واقـع الـشهادة، وتلفهـا عواصف الغيب إلى مصيرها النّحس المنكوب، تحت الثرى، أو هبـاء منثـوراً فـي الفـضاء الرحيب.

والحضارة الواعية هي التي تولي النصيحة أهميتها، وتبوئها مكانتهـا، وبمـا أن الأنبيـاء صلوات الله عليهم جميعاً، هم بناة الحضارات الرائدة؛ فكانت النصيحة تستأثر بالنصيب الأوفـر من دعوتهم، وتوج نبينا محمد ﷺ النصيحة على كرسي الحضارة، ورصعها في جبـين الـدين؛ لتدلّ عليه؛ فهي الدين كلّه، فعن تميم الداري[1] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:"الدين النصيحة. قلنـا لمـن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولائمة المسلمين، وعامتهم"[2].

لقد تسابق ورثة الأنبياء، في شرح هذا الحديث النبوي الذي يعد صـمام الأمـان فـي ديمومـة الحضارة، وعاملاً من عوامل بقائها، واستمرار عطائها، وقالوا فيها أقوالاً تدل على خطر شأنه. ومما قيل فيه: "هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام"[3].

ولم يقف أمر النصيحة عند هذا المقام الرفيع، ففي ساحة التطبيق والعمـل، وبنـاء اللبنـات الحضارية، كان النبي ﷺ يأخذ العهد، والبيعة من الصحابة رضي الله عنهم على النصح، فدخلت النصيحة في

---

(1) تميم بن أوس بن خارجة اللخمي وفد تميم سنة تسع إلى النبي ﷺ وكان من العباد. وقيل فيه عابد أهل فلسطين. مات في فلسطين سنة 40هـ. ودفن فيها. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص442. ابن حجر: **الإصابة**.ج1ص368.

(2) مسلم: **صحيح مسلم**.كتاب الإيمان. باب بيان أن الدين النصيحة. رقم الحديث55. ج1ص74.

(3) النووي: **شرح النووي على صحيح مسلم**. ج2ص37.

باب البيعة وصفقة اليد، وثمرة الفؤاد مع النبي ﷺ. فعن جرير بن عبد الله[1] ﷺ قـال: "بايعـت النبي ﷺ على النصح لكل مسلم"[2].

وكان الصحابة ﷺ أكثر الناس حرصاً على النصيحة، والتناصح، والتواصي بالحق، والصبر، فكان" الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ۝﴾ ثم يسلّم أحدهما على الآخر"[3]. وذلك لما اشتملت عليه سورة العصر من التواصي بالحق والصبر، وهي قوله تعالى:﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝﴾[سورة العصر:1-3].

والنصيحة حركةٌ دءوب، وعينٌ بصيرة، تكشف كل خلل، وتقوم كل عِوج، وتسدد كل زلل، وتصوب كل خَطَل. عجلةٌ تَلِج كل سبيل، بين الرعية أنفسهم، وبـين رأس الدولـة، والرعيـة. ويجب على كل مسئول أن يعيها، وإلا فالعاقبة حصاد ربيع الحضارة، تذريه ريـاح النّقمـة، أو يتحول إلى حطب تأكله نيران الجحيم الأخروي. فعن معقل بن يسار ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحِطْها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة"[4].

وأما المحاسبة؛ فهي أرقى أشكال الفعل الحضاري، والسمو الإنساني، واللهفة علـى رؤيـة الحضارة خضراء مزدهرة، تصطخب بأمواج الحياة.

والمحاسبة التي أعنيها هي المساءلة التي لا محاباة فيها، لمقامٍ رفيع، أو لـصاحب منزلـة، فديمومة العطاء الحضاري، أبلغ أهمية، من أي منزلة يتبوؤها صاحبها. واختياري كلمتي الرقي والسمو في وصف المحاسبة، بناء على تلك المنزلة التي لا تضاهيها منزلة، من القول الـشريف

---

(1) جرير بن عبد الله البجلي: من أعيان الصحابة أسلم ومعه نفر من قومه سنة 10هـ ومـات سـنة 51هـ. ينظـر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص530. ابن حجر: **الإصابة**. ج1ص475.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الإيمان. باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة. رقم الحديث57. ومسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإيمان. باب بيان أن الدين النصيحة. رقم الحديث. 56. ج1ص75.

(3) الطبراني: **المعجم الأوسط**. ج5ص215.

(4) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الأحكام. باب من استرعي رعية فلم ينصح. رقم الحديث6731. ج6ص2614.

لنبي الله ﷺ. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال:"إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"(1).

ومن حقّ الرعية المستظلة برغَدِ الحضارة، أن تكون حارسةً أمينة على ديمومتها، ومستقبلها. والمحاسبة وسيلتها المشروعة؛ لتقويم الاعوجاج؛ وتسديد النهج، والمنهاج. وهي محاسبة في شتى الصعد، وطرائق الحياة. تشمل المحاسبة في سياسة الحكم، وتوزيع الثروة، وطرق كسبها، ويخضع رأس الدولة، وهيئة الحكم فيها، لتلك المحاسبة، والمساءلة. لا فرق بين شريف ووضيع؛ وكبير وصغير؛ ولا حصانة لأحد ناهض الأمة في منهاجها، أو اقترف ما يبدد حضارتها. فإن لم يتّعظ من قلْبه ونفسه؛ فيجب على الأمة أن ترده إلى جادة الصواب؛ فتحاسبه، قبل فوات الأوان."فالأمة الفاقدة لإمكانات رقابة الدولة، ومحاسبتها تعجز عن التحكم فيها؛ فتفلت من إرادتها، ... وحينئذ تعجز عن تغيير رؤساء الدولة وإن جاروا"(2).

لقد كان الوعي الحضاري مهيمناً على الحضارة الحقيقية، فكان الخليفة الحاكم، يرشد الناس إلى محاسبته، ويذكّرهم بهذا الواجب إن نسوه. وفي أول خطبة يلقيها الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ، المؤتمن الأول على الحضارة الشابة، أكّد أول ما أكّد على المحاسبة، فقال: "أيها الناس، فإني قد ولّيت عليكم؛ ولست بخيركم فإن أحسنت؛ فأعينوني. وإن أسأت؛ فقوموني"(3).

وجاءت ذات مرة برود يمنية، ووقف عمر بن الخطاب ﷺ خطيباً، فقال: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا. فقال سلمان. لا سمع ولا طاعة. فقال عمر: لِم؟ قال سلمان: من أين لك بهذا الثوب؟

---

(1) الترمذي: **سنن الترمذي**. كتاب الفتن. باب ما جاء أفضل الجهاد. رقم الحديث. ج4ص471. أبو داود، سليمان بن الأشعث: **سنن أبي داود**. 4مج. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مصر: دار إحياء السنة النبوية. كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي. رقم الحديث4344. ج4ص124. النسائي، أحمد بن شعيب: **سنن النسائي**. 8مج. ط2. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية. 1406هـ/1986م. كتاب البيعة. باب فضل من تكلم بالحق. رقم الحديث4209. ج7ص161. ابن ماجة: **سنن ابن ماجة**. كتاب الفتن. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم الحديث4111. ج2ص1329. وقال الألباني: "صحيح". ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين: **سلسلة الأحاديث الصحيحة**. 7مج. الرياض: مكتبة المعارف.ج1ص886. بلا طبعة، ولا تاريخ.

(2) مدني، د.عباسي: **أزمة الفكر الحديث ومبررات الحل الإسلامي**. 1مج. مكة المكرمة: مكتبة المنارة. ص84. بلا تاريخ، ولا طبعة.

(3) الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**. 5مج. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1407هـ. ج2ص237-238.

وقد نالك بردٌ واحدٌ، وأنت رجل طِوال؟ فقال عمر ﷺ: قم يا عبد الله وأجب. فقال ابنه عبد الله: إني تبرعت ببردي؛ ليضمه إلى برده؛ فيصنع منهما ثوباً"[1].

كما أن النبي ﷺ كان يحاسب الولاة على ما جنوه من أموال في أثناء ولايتهم، فعن أبي حميد الساعدي ﷺ[2] قال: "استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابـن اللتبيـة، فلما جاء حاسبه. قال: هذا مالكم، وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ: فهلا جلست في بيـت أبيـك، وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً. ثم خطبنا فحمد الله، وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد؛ فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لـي. أفلا جلس في بيت أبيه، وأمه حتى تأتيه هديته؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقـه إلا لقـي الله يحمله يوم القيامة"[3].

والحضارة العريقة القوية؛ هي تلك الحضارة التي يصدع بنوها بالحق مدوياً، وتأخذ العهـد منهم على قول الحقّ في كل صولة من صولاته، ولا تخشى في الله لومة لائم؛ فلا تداهن ظالماً، ولا تراوغ عابثاً، فالمحافظة على نضارة الحضارة، وبقاؤها في ذروة العطاء، والرشـاد، أهـم بدرجات ودرجات من استرضاء ظالم، أو استلطاف غاشم.

عن عبادة بن الصامت[4] ﷺ قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع، والطاعـة، فـي العـسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثَرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلـى أن نقـول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم"[5].

---

(1) الطنطاوي: علي وناجي: **أخبار عمر**. 1مج. ط8. بيروت: المكتب الإسلامي. 1403هـ/1983م. ص161.

(2) أبو حميد الساعدي الأنصاري. اسمه عبد الرحمن بن سعد. وهو من فقهاء الصحابة. مات سنة60هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص481. ابن حجر: **الإصابة**. ج7ص94.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الحيل. باب احتيال العامل ليهدى إليه. رقم الحديث6578. ج6ص2559.

(4) عبادة بن الصامت هو: الإمام القدوة، أحد النقباء ليلة العقبة. شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ سكن فلسطين. ومات فيها سنة34هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج2ص5. ابن حجر: **الإصابة**. ج3ص624.

(5) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإمارة. باب وجوب طاعة الأمراء. رقم الحديث1709. ج3ص1470.

المبحث الثاني

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد بلغت الحضارة الراشدة أوج يقظتها؛ بأن جعلت صحوة الضمائر فيها، صحوة عامة، وظاهرة مجتمعية، يتقاطر أفراد المجتمع جميعاً في دائرة الرقابة، والغَيرة على الحضارة، وحمايتها. فهم آباؤها، وأبناؤها، وبناتها، فكان من الطبيعي تضافر جهودهم في رعاية مسيرتها إلى الأمام.

والوسيلة التي انتهجتها الحضارة الواعية في تسديد خطاها؛ هي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لتحقيق ما تصبو إليه.

و"المنكر: ما ليس فيه رضى الله تعالى من قول، أو فعل، والمعروف ضده"[1].

و"الأمر بالمعروف: الإرشاد إلى المراشد المنجية. والنهي عن المنكر: الزجر عما لا يلائم في الشريعة. وقيل: الأمر بالمعروف الدلالة على الخير. والنهي عن المنكر المنع عن الشر. وقيل: الأمر بالمعروف: أمر بما يوافق الكتاب، والسنة. والنهي عن المنكر: نهي عما تميل إليه النفس، والشهوة. وقيل: الأمر بالمعروف: إشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أفعال العبد، وأقواله. والنهي عن المنكر: تقبيح ما تنفر عنه الشريعة، والعفة، وهو ما لا يجوز في دين الله تعالى"[2].

وفي لفتة قرآنية رائعة، أبانت جليل قدر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فأسند القرآن الكريم، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لله رب العالمين جل جلاله، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة النحل:90].

---

(1) المناوي، محمد عبد الرؤوف: **التعاريف**. 1مج. ط1. تحقيق د.محمد رضوان الداية. بيروت. دمشق: دار الفكر المعاصر. دار الفكر. 1410هـ. ص680.

(2) الجرجاني: **التعريفات**. ص54.

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ مهمةٌ رسالية، نهض بها رسلُ ٱللَّهِ ﷺ، فقـال عـز قوله، وتبارك اسـمه:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف:157]. "والمعروف يعني: شـرائع الإسلام بالتوحيد. والمنكر: الشرك، وما لا يعرف في الشريعة"[1].

والمجتمع النابه؛ هو الذي يسهر على صون الحضارة من الانحراف، والزلـل، ويـصوب خطأها، قبل أن يتحول إلى خطيئة يستعصى حلّها. وهو المجتمع الذي قامت روابطه، وولايتـه، وحبه لبعضه بعضاً، على أساس الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، اللذين يمـثلان يقظـة، وحرصاً على سلامة منارة الحضارة مضيئة، لا يغبش نورها غاشية، ولا يعكّر زينتهـا دخَـن. فقـــال ﷺ:﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة التوبة:71].

"فهاتان الصفتان؛ هما سياج حفظ الفضائل، ومنع فشو الرذائل"[2]. تكاتفـت فيهمـا جهـود الرجال والنساء، ذكراناً وإناثاً، من المؤمنين والمؤمنات؛ يدفعون خطر المنكر عـن الحـضارة؛ ويكثرون المعروف فيها. وهي صورة رائعة للعمل الدءوب، صورها القرآن؛ تمثّل انصهار أبناء الحضارة في وراثة المهمة الرسالية؛ مهمة الأنبياء؛ لينعم الناس بوارف حضارتهم، في ديمومـة متواصلة.

وفي المقابل حذّر القرآن الكريم من صنف الهدامين الذين يحملون معـاول الهـدم، والأذى، ويسخرون طاقتهم، في تحطيم صرح الحـضارة، فقـال ﷻ:﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة:67].

---

(1) السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد: **بحر العلوم**. 4مج. ط1. تحقيق علي معوض وآخرين. بيـروت: دار الكتـب العلمية. 1403هـ/1993م. ج1ص574.

(2) رضا: **تفسير المنار**. ج10ص542.

والذين تخلوا عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لحقتهم لعنة الله ﷻ، وطُردوا من رحمته ﷻ،﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ [سورة المائدة:78-79]. وعبر القرآن بالفعل لُعِن المبني للمجهول" للجري على سنن الكبرياء"[1].

واللعن هنا على ألسنة الأنبياء، يرجح أن يكون مسطوراً في الكتب التي نزلت عليهم، وليس اللسان الجارحة[2]. وقوله تعالى:﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ "مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهي عن المنكر، ولا يمكن استمراره إلا باستمرار تعاطي المنكرات"[3].

والحضارة المتطلعة إلى مستقبل زاهر؛ هي التي تتولّى فيها أمة منها مهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فقال ﷻ:﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران:104].

"والأمة: الجماعة التي تؤم أي تقصد لأمر، وتطلق على أتباع الأنبياء، ولاجتماعهم على مقصد واحد"[4]. و"الأمة: الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم. والمخاطب بهذا هم المؤمنون كافة، فهم مكلفون بأن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة؛ وذلك بأن يكون لكل فرد منهم إرادة، وعمل في إيجادها، ومراقبة سيرها، بحسب الاستطاعة حتى إذا رأوا فيها خطأً، أو انحرافاً أرجعوها إلى الصواب"[5].

(1) أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. 5مج. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة .1401هـ/1981م. لم يذكر الطبعة. ج2ص105.

(2) الحلبي، أحمد بن يوسف: **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**. 7مج. ط1. تحقيق د.أحمد محمد الخراط. دمشق: دار القلم. 1407هـ/1987م. ج4 ص382.

(3) أبو السعود: **إرشاد العقل السليم**. ج2ص106.

(4) الآلوسي: **روح المعاني**. ج4ص21. والأمة: "كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً" ينظر: الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص30. ولمعاني الأمة في القرآن، ينظر: فرحات، د أحمد حسن: **الأمة في دلالتها العربية والقرآنية**. 1مج. ط1. عمان: دار عمار. 1403هـ/1983م. ص23.

(5) المراغي، أحمد مصطفى: **تفسير المراغي**. 15مج. ط5. مصر: شركة مكتبة ومطبعة عيسى مصطفى الحلبي. 1394هـ/1974. ج4ص22،21.

"وأجرى النبي ﷺ فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرى سائر الفروض في لزوم القيام به مع التقصير في بعض الواجبات، ولم يدفع أحد من علماء الأمة، وفقهائها، سلفهم، وخلفهم، وجوب ذلك"[1].

والأمة الحضارية التي تستحق شرف المديح الرباني؛ هي الأمة التي نهضت بمسؤوليتها كاملة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فقال ﷻ:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:110]. "والمقصود بيان علة الخيرية، وثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون؛ ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، فهاهنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم، وهذه الطاعات؛ أعني الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان"[2].

وأحوج ما تكون الحضارة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد مرحلة التمكين والاستقرار؛ خشية أن تخلد للدعة، وتختال بمظاهرها، وتفتتن بمحاسنها.قال ﷻ:﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الحج41].

ووصية الحكماء لأبنائهم، اشتملت على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحمل الأذى في سبيل ذلك، فالأذى المحتمل في سبيلهما؛ أخف ضرراً من الأذى الذي سيلحق بالحضارة إن لم يقم أبناؤها بهذا الواجب.﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:17]. إذ يتهدد الفناء الحضارة، والعذاب البئيس لأولئك الذين سدروا في الغي مع اللاهين. وأما أولئك الذين نأوا بأنفسهم عن طرق الضلال، وحسموا أمرهم مع الحقّ؛ فهم الناجون.﴿ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:164-

---

(1) الجصاص: **أحكام القرآن**. ج2ص40.

(2) الرازي: **التفسير الكبير**. ج8ص179.

[165]. لِم تعظون "والاستفهام إنكاري في معنى النفي؛ فيدلّ على انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يوعظ لتحصيلها؛ وذلك يفضي إلى اليأس من حصول اتعاظهم، والمخاطب ب ﴿تَعِظُونَ﴾ أمة أخرى"(1). معذرة إلى ربكم: "والعذر هو السبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب، أو تقصير؛ فهـو بمنزلة الحجة التي يبديها المؤاخذ بذنب؛ ليظهر أنه بريء مما نسب إليه"(2). "فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب"(3).

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مسؤولية جماعية؛ فيعد "الإسلام المجتمع مسئولاً عن صيانة الأخلاق العامة؛ لأن بها حفظه من الفوضى، والفساد، والانحلال؛ وبذلك وجب أن ينكـر المجتمع على مرتكبي المنكرات الخلقية، وغيرها"(4).

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال النبي ﷺ:" مثل المدهِن(5) في حدود الله، والواقع فيها مثل قوم، استهموا سفينة؛ فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها؛ فكان الذي في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به؛ فأخذ فأساً؛ فجعل ينقر أسـفل الـسفينة؛ فـأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بد لي من الماء. فإن أخذوا على يديه؛ أنجوه، ونجوا أنفسهم. وإن تركوه؛ أهلكوه، وأهلكوا أنفسهم"(6).

ومن جمال الحضارة واتساع أفقها أن كان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر" واجب على كل إنسان بحسب قدرته"(7).

---

(1) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج9.ص151.

(2) المصدر السابق: ج9ص152.

(3) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الدين**. 5مج. دار الرشاد الحديثة. ج2ص307. لم تذكر بلد النشر ولا الطبعة. وينظر: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الماوردي: **أدب الدنيا والدين**. ص107.

(4) السباعي، د.مصطفى: **التكافل الاجتماعي في الإسلام**. 1مج. ط1. بيروت: المكتب الإسـلامي. 1419هـ ـ/1998م. ص184.

(5) المدهِن: أي المحابي. والمدهن والمداهن واحد. والمراد به من يرائي ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر. ينظـر: ابـن حجر: **فتح الباري**. ج5ص295.

(6) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الشهادات. باب القرعة في المشكلات. رقم الحديث2540. ج2ص954.

(7) ابن تيمية: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. ص15.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :"من رأى منكم منكراً؛ فليغيره بيده. فمن لم يستطع؛ فبلسانه. فمن لم يستطع؛ فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان"[1].

والحضارة التي حِلْيتُها صمام أمانها؛ عدت الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ نجاة للمجتمع من طغيان الطغاة، وجور الظالمين. فإن لم يقم المجتمع بواجبه تجاه الظلمة، والأخذ على أيديهم؛ فإن العذاب سيتنزل على الظلمة، والساكتين على ظلمهم. وتهدد أركان الحضارة بالانهيار، وصفحتها بالاندثار. فقال ﷻ:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنفال:25].

عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:" إن الناس إذا رأوا الظالم؛ فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"[2]. ومعنى الحديث: "إذا كان الذين لا يعملون المعاصي أكثر من الذين يعملونها؛ فلم يمنعوهم عنها؛ عمهم العذاب"[3].

والإسلام، وضع بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،" أسس التمرد على المظالم، والثورة على الفسوق، وتجرئ العامة فرداً فرداً على أن يدعوا بالحق، وأن يصدعوا به رأس كل جبار عنيد"[4].

ولأهمية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في المحافظة على رونق الحضارة، وتصحيح الاعوجاج فيها، وصيانتها من الانزلاق فيما يرديها؛ فقد تبلورت فكرة رائعة، بمثابة جهاز مراقبة وصيانة، وتدخلٍ سريع؛ لتصويب أي خلل قد يطرأ.

---

(1) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإيمان. باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان. رقم الحديث78. ج1ص69.

(2) الترمذي: **سنن الترمذي**. كتاب الفتن. باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر. رقم الحديث2168. وقال الترمذي: حسن صحيح. ج4ص467. أبو داود: **سنن أبي داود**. كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي. رقم الحديث4336. ج4ص122. البيهقي: **سنن البيهقي**. ج10ص91. وصححه الألباني. ينظر: الألباني: **صحيح الجامع الصغير**. ج2ص171.

(3) آبادي، محمد شمس الحق العظيم: **عون المعبود**. 13مج. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية. 1415هـ. ج11ص329.

(4) الغزالي، محمد: **الإسلام والاستبداد السياسي**. 1مج. ط2. القاهرة: دار الكتب الإسلامية. 1404هـ/1984م. ص150.

وهذه الفكرة الرائدة هي فكرة "الحسبة والمحستب". "وهي جامعة لأمور الدين، والدنيا معاً، فيمـا يتعلق بحق الله، وحقوق الآدميين"[1].

وأوكلت هذه المهمة لجهاز متكامل يسهر على المصلحة العامة، وتناط به صـلاحيات محـددة؛ تهدف إلى تصويب الأخطاء في الرعية، وللمحتسب صلاحيات ذات تأثير في الحياة العامـة[2]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بأعمال المحتسب[3].

نرى من ذلك كله، أن موازين الضبط، والانضباط في الحضارة دقيقة أصيلة، تنشأ مع اللبنة الأولى من لبناتها، ولا يترك زرعها الأخضر، وصرحها العظيم دون سياج يحرزهـا، ويكـلأ جناها؛ فهي خطوات مدروسة تأخذ يداً بيدٍ؛ لتحتضن الحضارة؛ وتبعد عنهـا شَـبح الانهيـار، ومعاول الهدم؛ لتستظل بشمسها إلى أن يأتي أجلها المقدر من الله جل جلاله.

---

(1) يس، د.عماد محمد عمارة: **النظام الرقابي في الإدارة الإسلامية وأثره في الـدعوة إلـى الله**. 1مـج. ط1. مـصر. والسعودية: دار اليقين. ودار القبلتين. 1414هـ/2003م. ص372.

(2) لمعرفة دور المحتسب ونظام الحسبة. ينظر: الغزالي: **إحياء علوم الدين**. ج2ص312-335. والمـاوردي: **الأحكـام السلطانية**. ص240-259. يس: **النظام الرقابي في الإدارة الإسلامية وأثره في الدعوة إلى الله**. ص311-374.

(3) حسن، .د.إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**. 4مج. ط.7. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1964م. ج1ص489.

المبحث الثالث

مراعاة السنن الإلهية

كل كاتب في تحليل الحضارات، وقارئ يومياتها، وأدبياتها؛ لا مناص له من التوقّف طويلاً عند قضية السنن، وإدراك معانيها؛ فلها المرجعية الكبرى في الصعود، والهبوط الحضاري. ولا أبالغ إن قلت: إن التحليل الحضاري المتنوع؛ يرجع إلى فهم السنن، وتطبيقاتها على الحضارات التي تبوأت القمة، أو تلك التي انكفأت على وجهها. ولقد قـرأت تحلـيلات عوجـاء للـسقوط الحضاري؛ كان مردها إلى الخلل في فهم السنن.

والسنّةُ، فعلها الثلاثي سنَن. و"السين والنون أصل واحد مطّرد، وهو جريان الشيء، واطراده في سهولة"[(1)].

"وسن الله سنّةً أي بين طريقاً قويماً"[(2)]. و"السنَن بمعنى المسنون"[(3)].

و"السنّة لغة الطريقة مرضية كانت أو لا"[(4)]. " وسنّةُ الله تعالى، قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته"[(5)]. والسنن: "مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون، والتي يستفيد منها الإنسان"[(6)].

وهي: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم، وأفعالهم، ومـوقفهم مـن شرع الله، وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا، والآخرة"[(7)].

---

(1) ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج3ص60. مادة سن.

(2) ابن منظور: **لسان العرب**. ج13ص225. مادة سنن.

(3) المصدر السابق: ج13ص226. مادة سن.

(4) المناوي: **التعاريف**.ص415.

(5) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص274. والفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. 6مج. تحقيق محمد علي النجار. بيروت: دار الكتب العلمية. ج3ص267. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ.

(6) الوزير، إبراهيم بن علي: **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري. دراسة للسنن الإلهيـة والمـسلم المعاصـر**. 1مج. ط1. بيروت: دار الشروق. 1399هـ/1979م. ص11

(7) زيدان، د.عبد الكريم: **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسـلامية**. 1مـج. ط3. بيـروت: مؤسسة الرسالة. 1414هـ/1994م. ص13. وهذا الكتاب من أوسع ما كتب في السنن.

وهذا يعني أن السنة "بمعنى القانون العام؛ من حيث خضوع أفعال البشر، وسلوكهم إلى أحكـام هذه السنة التي يمكن تسميتها بالقانون العام"(1).

"والسنّة: القانون. وهي على أساسها ترتفع، وتنخفض المجتمعات، وعلى أساسـها يكـافئ الله، ويعاقب"(2).

ومما سبق أستطيع تعريف السنن الإلهية بالقول، هي: "الطريقة المطّردة الجارية النافذة التي قدرها الله في الكون، والحياة، والإنسان". وهي بمثابة نواميس ثابتة قضاها الله ﷻ.

أما السنن الكونية:"فهي النظم التي فطر الله عليها الخلق؛ فكل ما اشتملت عليه هذه الـنظم، وكل ما اتصل بطبائع الأشياء، وخصائصها، وعلاقات بعضها ببعض داخلٌ في عِلـم سـنن الله الكونية"(3).

والمتأمل في خلق الله ﷻ؛ يجده يسير وفق سنّة مطّردة،﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة طه:50]. "وسواء أكانت سنّة كونية، أم بشرية مرتبطة أشد الارتباط في وحـدة نظامية؛ يأخذ بعضها بحجر بعض، وتتماسك في اتساق؛ حتى تكون نظاماً كونياً متناسقاً أبدع ما يكون التناسق، يسير العالم في ظله بسماواته وأراضيه، ومن فيهما، وما بين ذلك مـن خلـق لا يعلم عدده، ولا حقائقه إلاّ مقدره، وخالقه، محكوماً بتلك السنن الإلهية التي لا تحيد عـن خطهـا المرسوم في لوح الأزل"(4). قـال ﷻ:﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾ [سورة يس:38-40].

---

(1) زيدان: **السنن الإلهية**. ص13. وقد سبق محمد رشيد رضا، بهذه التسمية. ينظر: رضا: **تفسير المنار**. ج4ص140. قال: "قواعد ثابتة اقتضاها النظام العام". وتفسير المنار مليء بالحديث عن السنن.

(2) سعيد، جودت: **حتى يغيروا ما بأنفسهم**. 1مج. ط5. دمشق: دار الثقافة للجميع. 1400هـ/1980م. ص129.

(3) الغمراوي، محمد أحمد: **في سنن الله الكونية**. 1مج. ط1. مـصر: مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمـة والنـشر. 1355هـ/1936م. ص1. واسم الكتاب مادة تدرس في الأزهر في كلية أصول الدين.

(4) عرجون، محمد الصادق: **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**. 1مج. ط3. جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيـع. 1404هـ/1984م. ص11.

فهذا العرض القرآني لما يتجلى من سنن الله في الكون، وما فيها من انتظام عجيب، وإحكام بديع، "وتوازن محكوم بسلطان السنن الإلهية؛ فلا تدرك الشمس في جريها لمستقرها القمر في منازله؛ لأن كلاًّ منهما محكوم بسلطان وضعِه الخاص في نظام الكون، لا يحيد عنه، ولا ينحرف حتى يأتي وعد الله "(1).

والإنسان له موقعه في نظام السنن الإلهية، ولا يخرج عن إطارها، لا من حيث الخَلْق، ولا من حيث تصرفاتُه، وأعماله، ورحلته في الحياة الدنيا، وكفاحه، وكدحه في بناء حضارته، ومستقر سعادته، وتطلعاته نحو المستقبل، ومصيره الأخروي.

وجريان السنن الإلهية على الإنسان من حيث خلقُه، وما يلحق ذلك؛ فهذا لا حِجاج في ثبوته، إذ انتفت الإرادة البشرية من هذه الساحة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الحج:73].

وجريان السنن الإلهية في بناء الحضارة؛ وكونها نواميس تحكم حركة التاريخ، ليس لها علاقة بالجبر؛ فهي قوانين نافذة؛ تُسعد من احتكم إليها؛ وهي نواميس قاطعة؛ تلهب حياةَ من تنكّبها بسياط الشقاء.

والسنن خلقها الله تعالى، وأودعها في كونه، وهو الذي إذا شاء أبطلها، وإذا شاء أجراها، فهو ﷻ حاكمها، وليست هي حاكمة نفسها. "والقرآن يقول لنا بهذا الأسلوب: إن نظام الأسباب والمسببات المجعولة من الله والمسخرة بأمره، ليس بديلاً من إرادة الله، وإنما هو أسلوبها في العمل. ومن يرتب على ذلك القول بالجبر، وينكر النظام، وسنن الله الثابتة؛ يجهل حقيقة الإسلام، ويجهل الحقائق المشاهدة التي تقطع بوجود هذا النظام البديع المتقن المحكم"(2).

---

(1) عرجون: **سنن الله في المجتمع**. ص19.

(2) خليل، د.محمد رشاد: **المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره**. 1مج. ط1. القاهرة: دار المنار للنشر والتوزيع. 1404هـ/1984م. ص101.

فائدة: الذي عليه أهل السنة والجماعة: "أن أفعال العباد هي من الله خلقاً، وإيجاداً، وتقديراً. وهي من العباد فعلاً، وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله، وقدرته

ومعلوم أن السنن، مبثوثة في الكون، مركوزة فيه؛ وهي قواعد ثابتة قامت عليهـا الحيـاة. والذي يهمنا من تلك السنن ما يتعلق بالحياة الإنسانية، وسير الإنسان في دروب الحياة، ووعيـه لها، "فارتفاع الأمم أو سقوطها، يرجع إلى وعي البشر، وإلى انتباههم إلـى التـاريخ، وأخـذهم بالسنن"[1].

فالإنسان مخلوق حكمت تصرفاته، صعوداً، وهبوطاً، وسعادة وشقاء، بالسنن الإلهيـة التـي تتعلق بالحياة الاجتماعية، أو بمعنى آخر سنن صياغة المجتمع. و"سنن ﷲ في المجتمع جانـب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها ﷲ في آيات هذا الكتاب المبين نظاماً اجتماعياً مترابطاً إلى جانب سنن ﷲ العامة في الكون التي تصور فلسفة القرآن في فهم الحياة"[2].

والحقيقة التي لا مرية فيها، وهي محل اتفاق بين الدارسين المتعمقين، والمحللين الراسخين، وجود "سنن عظيمة ثابتة توجه سير كل حضارة"[3].

والقرآن الكريم، بحر زخّار؛ يفيض بالقواعد الثابتة في مسلك الأمـم الاجتمـاعي، ويبـرز عوامل نهوضها، وأسباب كبوتها، وتلك الفيوض تهدف إلى "بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلـك المبـادئ التـي سماها سنَناً، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها، واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنـة، ونزوعنـا المستقبلي"[4].

والسنن الإلهية لها أهمية بالغة في القرآن الكريم؛ إذ عليها يتكئ المحللون في بناء الحضارة، وانهيارها. ولأهميتها تلونت أشكال الخطاب الرباني في الذكر الحكيم؛ يجذب أنظار الناس إلـى

لكل شيء من الأعمال، والأوصاف، كما نؤمن بنصوص الكتاب، والسنة الدالة على أن العباد هـم الفـاعلون حقيقـة الخير، والشر، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة". ينظر: الحمد، محمد بن إبراهيم: **الإيمان بالقضاء والقدر**. 1مج. ط2. الرياض: دار الوطن. 1416هـ. ص67.

(1) سعيد، جودت: **التغيير مفهومـه وطرائقـه**. 1مـج. ط1. بيـروت. دمـشق: دار الفكـر المعاصـر. دار الفكـر. 1417هـ-1996م. ص44.

(2) عرجون: **سنن ﷲ في المجتمع**. ص15.

(3) لوبون، غوستاف: **السنن النفسية لتطور الأمم**. 1مج. ط2. ترجمة عادل زعيتر. مـصر: دار المعـارف. 1957م. ص25.

(4) خليل: **التفسير الإسلامي للتاريخ**. ص97.

سنن الله تعالى التي لا تتبدل، والتي على مقتضى قواعدها النافذة؛ أُحكم بناء الكون المتين الرحيب، وعلى منوالها نسج الإنسان الحضارات السعيدة، ومن تنكّب خطاها دحرجه عماه إلى حفَر الشقاوة، ومن ثَم كُبكِب في ويلات الجحيم.

وأفانين البيان، وروائع القرآن، عديدة؛ تستقطب النظر الإنساني، ومن ثَم العقل البشري، المتدبر؛ فقال ﷻ وتقدست أسماؤه، في موطن كانت الجراح حارةً تشخب بالأحمر القاني في غزوة أُحد، التي تسربل فيها المسلمون أوشحة الدم، ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ ﴾ [سورة آل عمران:137].

فالسنن الإلهية جديرة أن يضرب لها الإنسان أكباد الإبل في الأرض طولاً، وعرضاً؛ ليتسنى له الوقوف على آثارها؛ فيتزود بالخبرة والتجربة قبل أن يضع حجر الأساس لحضارته المنشودة، ولو كان مثخن الجراح، موشحاً بالكُلوم، والدماء.

"إن إرشاد الله إيانا أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن عِلماً من العلوم؛ لنستديم ما فيها من الهداية، والموعظة على أكمل وجه"(1). فأمر الله تعالى بأن نسير في الأرض بحاثين، عن سننه ليس عبثاً، ولا ترفيهاً سياحياً، وإضاعة وقت. إنها الدروس الجادة والخبرات الثمينة؛ ليوطّد الإنسان قدمه في البناء الحضاري. و"يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المدركة الملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار"(2).

ويلحظ الدارس أن كثيراً من السور المكية؛ رعت زرع السنن في قلوب المسلمين، وأولت ذلك عناية فائقة؛ فزودهم القرآن الكريم بالتجارب الحضارية السابقة منذ بداية عصر التكوين، والتأسيس.

ومن بلاغة القرآن في أساليبه، وفنونه التعبيرية؛ أن جعل اللفتة الكريمة رصينة في موضعها، كأنها لؤلؤة في عِقد. وليست باردة جامدة؛ فأشار إلى السنن السابقة في موطن أشد ما

(1) رضا: **تفسير المنار**. ج4ص139.

(2) خليل: **التفسير الإسلامي للتاريخ**. ص110-111.

يكون الإنسان شوقاً لمعرفة ما جرى مع من سبقه من الأولين في معمعة النقاش الفكري، يتعطّش إلى تجربة سابقة، يستشرف منها ملامح السجال، وعاقبة النزال؛ فيسقيه القرآن الكـريم، كـوثر التجربة، فقال ﷻ:﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجر:12-13]. "والمعنى قد خلت سنن الله بإهلاك من كذّب رسله من الأمم الماضية"(1). فأنـت أيها النبي المكرم محمد ﷺ، ومن معك على الدرب القويم، تلـك سـنّة لا تتبـدل، ولا تتغيـر، والنصر أقرب من مد البصر، وقد خلت سنّة الأولين، "على هذه الوتيرة"(2).

والبلاغة القرآنية في ذكر السنن لم يتوقف سلسبيل عذوبتها، فكما أنها تؤنس قلوب المؤمنين العاملين، أتت وكأنها سيوفٌ يلوح بها في وجوه الكافرين، والمستكبرين، وكأنها مطرقةُ القاضي في قاعة المحكمة؛ تهوي أمام المجرم؛ وتدوي بصوت الحقّ المجلجل. قال عز ثناؤه وجَلَّ:﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ســــــورة الأنفال:38].

وتشير آيات القرآن الكريم بثقة منقطعة النظير، إلى أثر السنن الإلهية في المسيرة الحضارية؛ حينما تنحاز الحضارة إلى الضلال؛ فيحجب الاستكبار سنن الله في العذاب؛ فيظنون أن تلك السنّة ولّت، ولم تعقب، فقال ﷻ:﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾[سورة الكهف:55]. وقال ﷻ:﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة غافر:85].

والقرآن الكريم، "يؤكد لنا أن سنن الله في التاريخ ثابتة ماضية إزاء الجماعات البشرية التي تتنكّب عن الطريق، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة، وعن مدى دورها الحضاري، ومقدار منجزاتها المادية، والأدبية في مقاييس الكم، ومعايير المساحة، والأحجام"(3).

---

(1) الخازن، علاء الدين علي البغدادي: **لباب التأويل في معاني التنزيل**. 4مج. دار الفكر. بلا طبعـة، ولا بلـد النـشر. ج3ص90.

(2) الثعالبي، عبد الرحمن: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**. 3مج. ط1. تحقيق أبو محمد الغُماري الإدريسي. بيروت: دار الكتب العلمية. 1401هـ/1996م. ج2ص208.

(1) خضر، د.عبد العليم عبد الرحمن: **المسلمون وكتابة التاريخ**. 1مج. ط1. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسـلامي. 1414هـ/1993م. ص275.

ودراسة السنن الإلهية في حركة التاريخ، والسير الحضاري؛ لازمة، "والذي يجهل هذه السنن، أو يتجاهلها لن يعرف، ولن يفهم حركة التاريخ"[1].

فالسنن الإلهية لا تحابي أحداً؛ فهي سنن ثابتة في بناء هرم الحضارة، وتشييد قواعدها، كما هي سنن ثابتة في تقويض صروحها، وزعزعة أصولها؛ تمهيداً للانهيار؛ وطي صفحتها من عالم المشاهدة؛ ولفها في عالم الغيب المكنون. فتغدو أثراً بعد عين. "ومن أجل أن نطمئن بين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن، ونفاذها، وعدم تبدلها، أو تحولها، إنها موجودة أساساً في تصميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان، والعالم.. ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب، وأكّد وجودها في حركة التاريخ"[2]. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الأحزاب:62].

والقرآن الكريم باني الحضارة، وحامي خط سيرها، وضامن استقرارها، تَحدث بعمق عن هذا الأمر، ولفَت الأنظار إلى ما يصون الحضارة من مرض الموت، وأهدى إلى بناة الحضارة، باقةً مزهرةً من تجارب الحضارات عبر التاريخ؛ ليأخذوا من الماضي عبرة للمستقبل.﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:77]. "وتلك السنن ثابتة ثبات القوانين الفلكية، والفيزيائية، ومن خلال معرفة تلك السنن؛ نميز المقدمات من النتائج، ونرى سلسة التغيرات المتصلة بينها، وحينئذ نكون قد دخلنا من الباب الأمامي المشرع لفهم الواقع"[3].

وسنن الله تعالى لا تقتصر على المكذبين، والمذنبين؛ فسننه تعالى نافذة "في الكافرين والمؤمنين، فإن الدنيا ما بقيت مع مؤمن، ولا مع كافر، ولكن المؤمن يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، والكافر تبقى عليه اللعنة في الدنيا، والعقاب في

---

(2) خليل: **المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره**. ص101.

(3) المصدر السابق: ص109.

(4) بكّار، عبد الكريم: **فصول في التفكير الموضوعي**. 1مج. ط1. دمشق. بيروت: دار القلم. الدار الشامية. 1413هـ/1993م. ص274.

العقبى"[1]. ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [سورة فاطر:43]. "سنة لا تبديل لها في ذاتها، ولا تحويل لها عن أوقاتها"[2].

والسنن منهج، و"هذا المنهج هو منهج الله الذي سنّه للمؤمنين جميعاً. وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه، مطرد في غاياته، وأهدافه.... وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته، ومنهجه، وطريقه.. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله، تجمعها آصرة المنهج الإلهي، على اختلاف الزمان والمكان، واختلاف الأوطان، والألوان، وتربطها سنّة الله المرسومة في كل جيل، ومن كل قبيل"[3]. ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [سورة النساء:26].

وسنن الله تعالى في قيام الحضارات وأفولها، جاريةٌ جري الشمس في مجراها." وهي لا تعمل في الغالب فرادى، وإنما تعمل مجتمعة، وخاصة في حياة المجتمعات، والشعوب"[4].

وأما تفصيل سنن الله عز وجل في بناء الحضارة، وسننه تعالى في ديمومتها، وسننه جل وعلا في أفول نجمها، وسقوطها عن مسرح الحياة، فهذا ما سنجد آثاره في ثنايا هذه الرسالة، أما الكشف عن السنن بشكل متكامل؛ فسبق أن أشرت إلى بعض الدراسات فيها، والأمر عندي يحتاج إلى مزيد بحث وتعمق، وتحليل.

والحضارة التي تراعي ضوابط ديمومتها؛ هي الحضارة التي ستفلتُ من شِباك السقوط، وتحظى الشمس بالإشراق على نضارتها، ويسعد القمران بالإطلال على محاسنها. وإن تعثّرت فسرعان ما تنهض من جديد؛ لتكمل مشوار العطاء الحضاري؛ حتى تبلغ به مأمنَه؛ أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً. والحضارة التي تغفل أو تهمل تلك الضوابط، والسنن؛ هي الحضارة العجولة إلى لحوق الشمس في مغيبها، وتركض جهلاء مسارعة إلى مدافنها الأبدية. ويسعني أن

---

(1) الرازي: **التفسير الكبير**. ج9ص12.

(2) النسفي، أبو البركات عبد الله: **مدار التنزيل وحقائق التأويل**. 4مج. بيروت: دار الفكر. ج3ص344. بلا ذكر الطبعة، ولا التاريخ.

(3) قطب: **في ظلال القرآن**. ج2ص631.

(4) قطب، محمد: **رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة السنة.1411هـ/1991م. ص53.

أردد مع الوحي الأمين، تراتيل الذكر الحكيم الخالد، بهزيج ملائكي رخيم فخيم:﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [سورة الفتح:23].

الفصل الثالث

عوامل أفول الحضارات في المنظور القرآني. وفيه سبعة مباحث.

المبحث الأول: الكفر.

المبحث الثاني: الظلم.

المبحث الثالث: الترف.

المبحث الرابع: الذنوب والفواحش.

المبحث الخامس: الاستكبار والطغيان وغرور القوة.

المبحث السادس: الفساد الاقتصادي

المبحث السابع: النزعة المادية الصرفة.

المبحث الأول

الكفر

كما أن ينبوع الحضارة ينبجس سلسبيلاً رائقاً من الإيمان بالله تعالى، فإن سلسلة تفكك عرى الحضارة الذي قد يصل إلى انهيارها، يكمن أساساً في لب العقيدة الفاسدة المحركة لعجلة الحضارة، وما يتفرع عن هذه العقيدة من تصورات، ومفاهيم منحرفة.

فالإيمان أساس الصلاح، والكفر أس الفساد، قال الله ﷻ:﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[سورة التوبة:109].

وقبل أن أشرع في الاستدلال على دلائل أفول نجم الحضارة ذات العقيدة المنحرفة، فإني أجد نفسي مضطراً للعودة قليلاً إلى ما أثبته في المبحث الأول من الفصل الأول من هذه الرسالة. فقد تبين كيف أرسى القرآن النظرة الصائبة الراشدة للحياة بامتدادها المنظور عبر الزمن في الأرض، وتمام نظرته للحياة، وآفاقها اللامتناهية في الحياة المطوية في صحائف الغيب، والتي عبر عنها القرآن الكريم بالحياة الآخرة فقال ﷻ:﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة العنكبوت:64]. ومعنى ﴿ لهي الحيوان﴾ "الحياة الدائمة"[1]. و" لهي الدار الحقيقية لامتناع طرآن الموت عليها"[2].

والحضارة السعيدة هي الحضارة التي تسعد الإنسان في الدارين، ولا يكون ذلك لحضارة فقدت التصور الصائب لما بعد الموت، أو تلك التي تنكر الحياة الأخرى برمتها.

---

(1) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. 2مج. ط1. تحقيق صفوان عدنان داوودي. دمشق: دار القلم. بيروت: دار الشامية. 1415هـ. ج2ص836.

(2) البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. 5مج. تحقيق عبد القادر حسونة. بيروت: دار الفكر. 1416هـ/1996م. ج4ص323.

وهنا أجد نفسي متواصلاً مع ما ابتدأت به؛ لأبين أسباب انهيار، وأفول الحضارة التي تحـاد الله ﷻ، بالكفر، أو بالشرك به ﷻ. أو تلك التي تفقد التصورات الصائبة عـن الله، والإنـسان، والكون، والحياة.

والكفر كلمة وردت في القرآن الكريم، على أوجه منها:" الكفر بالتوحيد، وكفـران النعمـة، والتبري، والتغطية، والجحود"[(1)].

والكفر يعد المعولَ الأول في هدم الحضارة. وأيما حضارة قامت على الكفر هي في الحقيقة تحمل سبب انهيارها، وعامل أفولها. وهي حضارة معاندة منذ البداية لسنن الله ﷻ في الخلق والتكوين، ومصادمة للفطرة الإنسانية التي فُطرت على الإيمان بالله تعالى،﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الروم:30]. "والفطرة: قابلية الدين الحقّ، والتهيؤ لإدراكه. ومعنى فطر الناس عليه: أن الله خلقهم قابلين له، غير نائين عنه"[(2)].

والإنسان منذ ولادته يولد صفحة بيضاء نقية طاهرة، "فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته، وتوحيده، وأنه لا إله غيره"[(3)]. فيولد الإنسان مسلماً مؤمناً بالله تعالى.

والإنسان هو الذي يختار بعد ذلك بين طريق الإيمان، أو الكفر. فعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه[(4)] أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا. كل مال نَحلْتُه عبداً حلال. وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم. وإنهم

(1) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن: **نزهة الأعين النواظر في علم الوجـوه والنظـائر**. 1مـج. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1404هـ/1984م. 516. والدامغاني، الحسين بن محمد: **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**. 1مج. ط2. تحقيق عبد العزيز سيد الأهل. بيروت: دار العلم للملايين. 1977م. ص405. الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**. ص485.

(2) مخلوف، حسنين محمد: **صفوة البيان لمعاني القرآن**. 2مج. بيروت: دار الفكر. ج1ص160،159. لم تذكر الطبعـة، ولا التاريخ.

(3) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج3ص432.

(4) عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية المجاشعي التميمي. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج4ص752.

أتتهم الشياطين؛ فاجتالتهم[1] عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم. وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا"[2]. فالكفر صدام مع الفطرة الإنسانية.

والكفر مدمر للحضارة، وإن لمعتْ بين ثناياها زخارف الدنيا، أو ظهرت زينتها الخلاّبة، فقال ﷻ:﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلاً ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾[سورة البقرة:126].

"والكفر وإن لم يكن سبب التمتيع، لكنه سبب تقليله، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا، غير متوسل به إلى نيل الثواب. ولذلك عطف عليه ﴿ ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ أي ألزه إليه لز المضطر لكفره، وتضييعه ما متعته من النّعم"[3]. ونوع التمتع هو تمتع عام، وإن جنح بعض المفسرين إلى أجل النعم أنها "الأمن، والثمرات"[4].

فالكافر يتمتع في حياة معدودة الأيام، والأنفاس. ووصف القرآن الكريم هذا المتاع بأنه قليل، وعاقبته وبالٌ أبدي، ووبيلٌ سرمدي في جحيم ينسي الدنيا، وزخرفها. ولئن كان الرهان على المتاع قلة، وكثرة، فأين كفّة ميزان المتاع الدنيوي في الرجحان من كفّة المتاع الأخروي؟ والقرآن الكريم لا ينكر متاعاً قد يجده الإنسان في حضارة قامت على الكفر، بيد أنه حاجج أولئك المتمتعين بالمتعة نفسها، فما دمتم طلاّب متعة، فأين عقولكم المفكرة من الكثرة، والقلة؟ وإذا رغبوا بالمتاع مع الإصرار على الكفر، فالعاقبة الأخروية جلية بينة، كما نصت الآية.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بأنْعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في

---

(1) اجتالتهم الشياطين: بمعنى استخفتهم، فجالوا معهم في الضلال. ابن الجزري: **النهاية في غريـب الحـديث والأثـر**. ج1ص317. ابن منظور: **لسان العرب**. ج11ص131. مادة جول.

(2) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الجنة وصفة نعيمها. باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهـل الجنـة والنـار. رقـم الحديث2865. ج4ص2197.

(3) البيضاوي: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. ج1ص400.

(4) المهيامي، علي بن أحمد: **تبصير الرحمن وتيسير المنان**. 2مج. ط2. بيروت: عـالم الكتـب. 1403هـ ـ/1983م. ج1ص59.

الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قطّ؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قطّ، ولا رأيت شدة قط"[1].

ومن الحكمة الربانية أن كشف القرآن حقيقة قد تُخدع بها النفوس؛ وهي متاع الكافر في الحياة الدنيا، فاقتضت الحكمة بياناً لا لُبس فيه، ولا غموض، فقال ﷻ:﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [سورة آل عمران:196-197]. ففي المدينة المنورة "كانت اليهود تضرب في الأرض؛ فتصيب الأموال، فقال الله ﷻ: لا يغرنك ذلك"[2]. "والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة، والحظ، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم. وروي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء، ولين عيش؛ فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع، والجهد؛ فنزلت"[3].

ويدد القرآن وهماً ربما يتسرب إلى النفوس، إذا ما أمهل الله ﷻ الكافرين، فـسدروا فـي حضارة كافرة يتقلبون فيها الليل، والنهار، ولا يجدون ريحاً من سخط الله، وعذابه.

قـــال ﷻ:﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧ ﴾ [ســورة النور:57]. فلا تحسبنهم" فائتين الله بأن لا يقدر عليهم"[4].

وآثار الكفر في سقوط الحضارة في عالم الشهادة المنظور؛ أمر مقطوع به. قـال ﷻ:﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران:56-57].

---

(1) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب صفات المنافقين. باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة. رقـم الحديث2807. ج4ص2162.

(2) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد: **معاني القرآن**. 3مج. ط2. تحقيق أحمد يوسف نجـاتي. ومحمـد علـي النجـار. 1980م. ج1ص251. لم تذكر الطبعة، ولا التاريخ، ولا بلد النشر.

(3) ابن حجر، أحمد بن علي: **العجاب في بيان الأسباب**. تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس. الدمام: دار ابن الجوزي. 1مج. ط1. 1997م. ج2ص818. وينظر: البيضاوي: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. ج2ص135.

(4) النسفي: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**. ج3ص153.

" فأما عذاب الدنيا فهو يجري على نظام أحوال الدنيا: من شدة، وضعف، وعدم استمرار، فمعنى انتفاء الناصرين لهم منه، انتفاء الناصرين في المدة التي قدر ﷲ لتعذيبهم في الدنيا، وهذا متفاوت"(1).

وفي التعبير القرآني لفتة بيانية مؤثرة، وبلاغة ساحرة. وهي تعبير القرآن الكريم بصيغة المتكلم ﴿ فأعذّبهم﴾. وحين جاء الوعد للمؤمنين بصيغة الغائب ﴿ فيوفيهم﴾، فالكافرون لم يؤمنوا بالله، ولم يعترفوا به؛ فكان من المناسب أن يسمعهم ﷲ صوته، وأن يواجههم بالجريمة، ويلقاهم بالعذاب. وأما المؤمنون فهم مؤمنون بالله؛ فخاطبهم بالغَيبة التي هي حضور جلي في قلوبهم(2).

فالعذاب الشديد في الدنيا؛ يتسلط على الحضارة الكافرة؛ حتى يذيب قوامها؛ أو يشرع عليها سيفُ العذاب؛ فلا يقر قرارها؛ ولا يهنأ عيشها؛ ولا تلتذّ متعها؛ وتبقى تحت آثاره المرعبة؛ فيذْهب ظِلالُ بريق الموتِ المتموج، ما يلْمع من متَع الحضارة.

والقرآن الكريم استعرض دلائل الانهيار، والسقوط في الحضارات السابقة، ومنها تلك التي اعتدت بمالها، وأعدادها، تتكئ على المال تارة، وأخرى تنفخ الكبرياء في أعدادها نفخة الشموخ الزائف. ويخرج ذلك كلّه من كُوة الكفر. تظن خائبة، أن تلك الوسيلتين مع الكفر؛ ينأيان بها عن قدرة ﷲ الخالق الجبار الذي يستحق العبادة وحده، فقال ﷻ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران:10-12]. "ومعنى [قوله تعالى] ﴿من ﷲ﴾: من عذابه الدنيوي، والأخروي. ومعنى أغنى عنه: دفع عنه. ولما كان المال في باب المدافعة، والتقرب، والفتنة، أبلغ من الأولاد؛ قُدم في هذه الآية"(3).

---

(1) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج3ص261.

(2) ينظر: الخطيب، عبد الكريم: **تفسير القرآن بالقرآن**. 30مج. بيروت: دار الفكر العربي. ج3ص476. بلا تاريخ، ولا طبعة، ولا بلد النشر.

(3) التوحيدي: **البحر المحيط**. ج2ص387.

وعدد القرآن الكريم العِبر في الدرس الحضاري، عبر الزمن، وفي أثناء المسيرة الحضارية المتعاقبة؛ وذلك في أرقى، وأصح، وأنصع تحليل للحضارات؛ فذكر الكفر سبباً رئيساً من أسباب العصف بالحضارة المتراخية على راحة الكفر؛ فأغرقها كفرها في بحار الظلمات، ومهاوي الردى السحيقة. فقال ﷻ في موضع التهديد:﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الإسراء:69]. وكلمة ﴿ تبيعاً ﴾ تعني:" ثائراً يطالبنا بما فعلنا"(1).

وأتى القرآن الكريم بالذكر السيئ على حضارات كافرة، طاردتها اللعنة الإلهية في طرقات الحضارة، فما استطاعت رد بأس الله ﷻ، ولا أمكنها علوها الخادع من دفع النقمة الربانية لذي الجلال الجبار. فما نفعها تُرس الكفر، وما زادها إلا شقاء، ووبالاً، فقال ﷻ عن قوم عاد أولي القوة، والمنعة:﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة هود:59-60].

وافتتح العذاب بالإخبار عنهم بـ﴿ ألا﴾ "للإخبار عنهم بهذه الأداة التي لا تُذكر إلا بين يدي كلام عظيم يعظم موقعه، ويجل خطبه، والتأكيد في الإخبار بكفرهم تحقيق حالهم. ولما كان الأمر عظيماً، والخطب جليلاً كرر الأداة ﴿ ألا﴾ التي تقال عند الأمور الجليلة"(2).

ويستعرض القرآن الكريم، نماذج حضارات ملأت سمع الزمان، ويحلل أعمق تحليل عوامل انهيارها، وذوبان الجليد عن عوارها المستور، فيذكر "مملكة سبأ" ذات الرغد العميم، واللذة المشتهاة. حضارة ذات جنان بهرت الأنظار،﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة سبأ:15].

فهذه الحضارة المتنعمة بألوان النعيم، تتقلب في جنّتين عن اليمين والشمال. وإذا كان القرآن الكريم البليغ المعجز، وصفها بحضارة الجنان والنّعيم، فهل بعد ذلك من وصف أبلغ؟ فماذا صنعت تلك الحضارة بهذه النعمة الوفيرة، ربانية المصدر والعطاء؟ أجاب القرآن عن ذلك، وبين في فاصلةِ الآية نوع الجزاءِ وعِلّةَ النهاية،﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم

(1) الشوكاني: **فتح القدير**. ج2ص244.

(2) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. 22مج. ط1. دائرة المعارف العثمانية. 1395هـ/1975م. ج9ص316،317. لم تذكر بلد النشر.

بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾[1] ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة سبأ:16-17].

والدرس الحضاري في القرآن الكريم شاهد دائماً في سور كثيرة، ومناسبات عديدة؛ يحلّ؛ ويصوب؛ ويرشد؛ ويُفهم؛ ويفصح؛ ويجلّي أسباب الانهيار، وعوامل الأفول؛ ويجيب إجابة دامغة عن علة الهدم في الحضارات؛ وتذرية صروحها الشاهقات مع ريح العذاب الإلهي،﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الرعد:32].

وهنا أتى بلفظ الرسل بالتنكير، "للتكثير أي برسل كثيرة"[2]. فلا تغتر حضارة كافرة، بمتع الحياة ترفل بأثوابها؛ فسرعان ما تدركها الرياح الهوج، تمزق أثوابها، أو يدركها الفناء؛ فيخلّفها أثراً بعد عين، ممزقة الأسمال، بالية الجسد. و"الإملاء، والإمهال أن يترك ملاوة من الزمان في خفض، وأمن"[3].

و"الإملاء: الإمهال مدة طويلة من الزمان في دعة وأمن"[4]. وهو "إطالة المدة بتأخير العقوبة"[5].﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة غافر:22]. "أي ذلك العذاب الذي نزل بهم"[6] فإن الكفر سببه.

ويصدر القرار الرباني الذي لا رجعة عنه، أن التعاسةَ شبحٌ يلاحق الحضارات الكافرة، وكابوسٌ يطاردها. ويتبين ذلك كل قارئ في صحائف الحضارات البائدة، فقال الله ﷻ:﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(1) العرم: الوادي. والأكل: كل ما اجتنى. والخمط: شجر فيه الشوك. وأثل: شجر ثابت الأصل. السدر: شجر قليل الغناء والأكل وقد يخضد ويستظل به. ينظر: القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **العمدة في غريب القرآن**. 1مج. ط2. تحقيق د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1404هـ/1984م. ص246. والأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص256،15.

(2) خان، حسن صديق: **فتح البيان في مقاصد القرآن**. 10مج. بيروت: دار الفكر العربي. ج5ص104. بلا طبعة ولا تاريخ.

(3) النسفي: **مدارك التنزيل**. ج2ص251.

(4) خان: **فتح البيان في مقاصد القرآن**. ج5ص104.

(5) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**. 4مج. ط1. تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين. بيروت: دار الكتب العلمية. 1415هـ/1994م. ج3ص17.

(6) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: **معالم التنزيل**. 4مج. ط1. تحقيق خالد العك. ومروان سوار. بيروت: دار المعرفة. 1406هـ/1986م. ج4ص95.

﴿كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ (1) عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠﴾ [سورة محمد:8-10].

وأما اغترار الحضارات القائمة على الكفر، بمتع نالتها؛ فهو بمثابة اغترار الطفـل بمتعـة تلهى بها، سيحرمها بعد حين. أو اغترار الغر الجهول المخـدوع،﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢﴾ [سورة محمـد:12]. فهم"يتمتعـون أيامـاً قلائـل"(2). ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ۝٣٩﴾ [سورة فاطر:39].

---

(1) دمر عليهم "أبلغ من دمرهم؛ لأن معناها أهلكهم مع أموالهم، ودورهم، وأولادهم، وأطبق عليهم الهلاك إطباقاً فلم يبق شيء إلا شمله الدمار" الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**. 3مج. ط9. القاهرة: دار الصابوني. ج3ص208. بلا تاريخ.

(2) النسفي: **مدارك التنزيل**. ج4ص151.

المبحث الثاني

الظلم

الظلم أبشع صورةٍ تبرز فيها الحضارةُ الآيلةُ للسقوط. ويعجلُ سيرها إلى مدفنها، وطيها من الوجود. ولهذا حفَلَ القرآن الكريم، بتبشيع الظلم، وبيان وخيم آثاره على الحضارة. وأيما حضارة اتسمت بالظلم، لا يكاد فجرها أن ينبلج؛ حتى يأذن نجمها بالأفول. ولهذا كان الظلم قرين الكفر، وعبر القرآن بالظلم عن الكفر. وليس بعد الكفر ذنب. فقال ﷻ:﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[سورة البقرة:254]. وإن دلّ هذا التعبير على شيء؛ فإنما يدلّ على عميق أثر الظلم في اجتثاث الحضارة الظالمة من الوجود، وإراحة كاهل الحياة من أعباء ظلمها.

"والظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بعدول عن وقته، أو مكانه. والظلم يقال: في مجاوزة الحقّ. ويقال: في الكثير، والقليل. قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة: ظلمٌ بين الإنسان، وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر، والشرك، والنفاق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان:13]. والثاني: ظلمٌ بينه، وبين الناس. وإياه قصد بقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة الشورى:42]. والثالث: ظلمٌ بينه، وبين نفسه، قال الله تعالى:﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [سورة فاطر:32]. وكل هذه الأقسام حقيقة ظلمٌ للنفس. فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه"(1).

والظلم مفهومه واسع. "وكل من أخذ مال أحدٍ، أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع؛ فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها

---

(1) الفيروز أبادي: **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. ج3ص542،541. والأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص353. وورد الظلم على عِدة معانٍ في القرآن الكريم، منها: "الشرك، الذنب من غير الشرك،القتل، النقص، ظلم الناس، الضرر، الجور، جحود القرآن، والسرقة". ينظر: الدامغاني: **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**. ص308.

ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران"(1).

ومنذ أن كان الإنسان حذّره الله ﷻ أن يقع في الظلم، فقال ﷻ:﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ ﴾ [سورة البقرة:35-36].

ومنذ أن وطأ الإنسان برجله الأرض في رحلة الحياة، وسياحته في الأرض، وتعميره جوانبها، أخبر الله ﷻ عن نفسه بأنه لا يظلم أحداً. وأنه ﷻ منزهٌ عن الظلم. فقال ﷻ:﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [آل عمران:108]. وقال ﷻ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ﴾ [سورة يونس:44]. وإن الظلم من كسب الإنسان، وكلّ يقع عليه من آثاره؛ هو جزاء ما اقترفت يداه. قال ﷻ:﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾ [سورة الأنفال:51]. "لأن تعذيب الكفار من العدل"(2).

ولكي لا يموج الإنسان في بحار الظنون، والارتياب؛ أكّد الله تعالى نفي الظلم عن نفسه العلية نفياً قاطعاً، ينفي أي وهمٍ يلتبس عند الإنسان؛ إذا ما رأى عواقب الظلم تقضي عليه.﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ ﴾ [سورة النساء:40].

ولاتساع مساحة الحديث عن الظلم في القرآن الكريم، فأشير هنا إلى ما كان له أثر على السير الحضاري، والمسيرة الحضارية. فالظلم خطر ماحق، وسيف تنتحر به الحضارة الظالمة، ويغمد في أحشائها؛ إذا ما سلّطته على الخلق، أو شهرته في وجه البشرية. ولخطر الظلم على الحضارة، كانت نُذر الله تعالى ترسل تترى؛ كي تتحاشا الحضارةُ الغضب الإلهي، والانتقام الرباني، الذي إذا وقع فلا راد له. فقال ﷻ:﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝ ﴾ [الأنعام:131]. "لأن سنة الله أنه لا يعاجل الناس بالعقوبة حتى يبعث رسولاً ينبههم،

---

(1) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص288.

(2) النسفي: **مدارك التنزيل**. ج2ص108.

ويقيم حجج الله عليهم"[1]. وهذا "شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عدله ورحمتـه...، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدم إليهم بالإنذار، والتنبيه"[2].

وإمعان النظر في آيات القرآن الكريم؛ يدل على مدى تكثيف العرض للمـشهد الحـضاري، عبر الحضارات التي سبقت حضارة الإسلام، وكان هذا التكثيف في الفتـرة المكيـة، وهـي ـ مرحلة التأسيس والتجذير للحضارة الوليدة ـ. وشحن القرآن أذهان الرعيـل الأول، بتجـارب زاخرة بالمعاني لمن سبق من الأمم. ومع أن هذا الرعيل شقّ طريقه بصعوبة بالغة، بين أخطار السوط والعذاب؛ والتنكيل والاضطهاد؛ والمقاطعة والمطاردة؛ في مرحلة الاستـضعاف، إلاّ أن الله العليم الخبير، أوضح في كتابه العزيز ضرورة التأهيل الثقافي والتربوي، عبر مسيرة البناء. وهذا يدلّ أيضاً على عميق الثقة التي زرعها القرآن في نفوس المسلمين. فبطحاء مكّـة تأكـل ظهورهم، وسياط الطغاة تلهب أجسادهم، إلاّ أنهم ينهمكون في بناء الحـضارة. وحتـى تكـون الحضارة نقية، تنجو من مهالك الحضارات السابقة؛ كـان الـسبيلُ لـذلك، عـرض المـشاهد الحضارية، تتراءى لهم ببلاغة القرآن، وأساليب بيانه، كأنها مشاهد بِنْت الساعة.
والعرض القرآني أكّد أن الظلم كان هو العامل الرئيس في دفع نجم الحضارة إلى الغروب.

والحكمة الإلهية شاءت تحريم الظلم، و"الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو مـا ينشأ عنه من فساد العمران، وخرابه؛ وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري،... فلما كـان الظلـم مؤذِناً بانقطاع النوع لِما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة؛ فكـان تحريمه مهماً، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحـصر"[3]. وأثر الظلم ماحق للحضارة، مبيد لخضرائها لدرجة أن" الملك يبقى مع الكفـر، ولا يبقـى مـع الظلم"[4]. وذلك بمعنى طول مدة المكث، والاستمرار.

---

(1) حوى، سعيد: **الأساس في التفسير**. 11مج. ط1. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. 1405هـ ـ/1985م. ج3ص1731.
(2) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. 8ص81.
(3) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص288.
(4) الرازي: **التفسير الكبير**. ج18ص76.

وعرض المشهد الحضاري في القرآن، أخذ صفة العموم مرة، وفصل حضارات بأسمائها تارة أخرى، فهي مسيرة القرون[1] المتعاقبة. ومن العرض الحضاري لقوافل الحضارات الهالكة بظلمها، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة يونس:13-14]. "والإهلاك: الاستئصال والإفناء"[2]. فهذه الآية الكريمة حشدت قروناً كثيرة، وآجالاً مديدة، واختزلت المشاهد الحضارية البائدة، في مشهد واحد، ومركب واحد، وموكب واحد، اجتمع فيه عنصر واحد تمحورت الحضاراتُ حوله صريعةً مكدودة خامدة، انصهرت في بوتقته، وأتونه. هذا المحور هو الظلم.

ويتوالى عرض المشاهِدِ الحضارية في القرآن الكريم، ويفصل الفعل الحضاري، ويحلّلُ أسباب أُفول نجمِ حضارات، سطع ردحاً من الزمن في سماء الكون، ويكشف عن مكمن الجرح الذي أمات نزيفه الحضارات، وقضى على لُبها، ويشير إلى السوسة التي نخرت عظمها؛ فقوضت عروشها، وهدت أركانها، وغدت خِرباً للبوم، والغراب.

وسياق القرآن الكريم الإبداعي، تارة يغض الطّرفَ عن الأسماء؛ لأن العبرة في الفعل، فسجل الزمان مليءٌ بها. ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الحج:45-48]. فهذا مثل مضروب لقرى كانت غنّاء زاهرة خضراء حية، تموج بالحياة، وتمور بالحضارة موراً. وتزدهي بمبانيها، وآبارها، وقصورها. وتخضر سهولها يانعاتٍ بالثمار، مزهرات بالأزهار، تدب الحياة في أوصالها، إذا بها تتحول إلى يبابٍ قفْرٍ هالكة يابسة أغصانُها، مصفرة سهولُها، آبارها الفارغة الخاوية؛ تشهد على أمر عظيم، وفعلٍ جلل، تسلّل إلى

---

(1) للقرن معان كثيرة. منها:" القرن القوم المقترنون في زمن واحد. وأربعون سنة. أو عشرون سنة. أو ثلاثون سنة. أو سبعون سنة. أو ثمانون سنة. أو مئة وعشرون سنة. أو مئة سنة. وهو الأصح". ينظر: الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن** ص449. الفيروز أبادي: **بصائر ذوي التمييز**. ج4ص260.

(2) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج11ص113.

حياتها؛ فأضحت قصورها أشلاء باكية، وأطلالاً خاوية، تصفُر فيها الرياح الهوج، بعدما ضجت بصخب الحياة، تشكو علّةً مرة علقمية اسمها الظلم.﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:59]. فالظلم هول من الأهوال، وفظيع من فظائع الأمور، مدمر مزلزل؛ يستأصل الحياة؛ ويجتثّ أصولها من الأعماق؛ ويقوض أركان الحضارات أياً كان جذرها ضارباً في الأعماق، أو صيتها محلقاً في الآفاق.﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة النمل:50-53].

فالظلم يحول حركة الحضارة إلى خمودٍ، ودهش، وشرود، ووجوم، ثم يفوز المؤمنون، ويتمرغ الظالمون الخاسئون.﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة هود:66-68].

"وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه لا يقف عند حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل"[(1)].

ومن المشاهدِ الجليلة الطويلة، لحِزمٍ أممية، وحِقبٍ إنسانية، ودوراتٍ تاريخية. قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام:42-45].

فهذه أمم عضها ناب الجوع، وقرصتها شدة الضراء، وألمت بها نوازلُ قارعة، وصنوفُ البلاء؛ عسى أن يرجعوا لطريق الله ﷻ؛ فما انتفعت نفوسهم؛ ولا رقّت قلوبهم، بل زين لهم الشيطان مواقفَهم، وأعمالهم، فلما نسوا؛ فتح الله تعالى لهم ﴿ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، "أي فتحنا عليهم

(1) الماوردي: **أدب الدنيا والدين**. ص153.

أبواب كل شيء كان مغلقاً عليهم من الخير"(1) ففتحتْ أبواب الدنيا، وتقلبوا على فُرش متاعِها، وجنباتِ نعيمِها، وفي قراءة ﴿ فتّحنا﴾(2) وذلك للمبالغة. "ولكن كثيراً من الناس يصلون إلى حال من الشرك، والفجور لا يضيرها بأس، ولا يحولها بؤس"(3). "فقطع دابر القوم" أي فأخذناهم أخذَ استئصال. وقَطْع الدبر كنايةً عن ذهاب الجميع؛ لأن المستأصل يبدأ بما يليه، ويذهب يستأصل إلى أن يبلغ آخره، وهو دابره"(4).

وهذه سنة الله تعالى الجارية في خلقه، وناموسه الثابت في انهيار الحضارات، وأفول نجمها.

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [سورة الأنعام:21]. ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [سورة طه:111].

وأمواج الغضب العاتية التي أسقطت سقُفَ الحضارة على أهلها بدداً، لا يتوقف عذابها في الدنيا، بل يلحق السخط الإلهي، أولئك الظالمين، عذاباً أليماً في دركات الجحيم. حيث تتعالى صيحاتُ النّدمِ القاتل، وصرخات المصطرخين في نيران الجحيم، فلا مجيب إذ فات الأوان، وانتهت دورةٌ من دورات الحضارة الظالمة؛ فكُبكِبتْ في الدنيا على وجهها، وجرجرت في النار على مناخرها. فكما أنها لم تَلِن لصوت الحقّ في الدنيا؛ فلهيب النار يصهرها.﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ٤٥ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧ ﴾ [إبراهيم:13-14].

(1) الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري: **معاني القرآن وإعرابه**. 5مج. ط1. تحقيق د.عبد الجليل عبده شلبي. بيروت: عالم الكتب. 1408هـ/1988م. ج2ص248.

(2) ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد: **حجة القراءات**. 1مج. ط2. تحقيق سعيد الأفغاني. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1399هـ/1979م. ص250. وهذه قراءة ابن عامر الشامي.

(3) المراغي: **تفسير المراغي**. ج7ص124.

(4) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج7ص231.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:"الظلم ظلمات يوم القيامة"[1]. فينقلب الظلم إلى ظلمات في نارٍ تلظى، يصلي لهيبها الأشقى.

والحضارة المستبدة الظالمة التي فجرتْ بظلمها، وهي تركن إلى قواها، وتسلّيها زخارف الحضارة، وركونها إلى قواها، وتركن إلى آلهة مستعارة مزيفة، اعتقدت أن فيها قوةَ الإله الخالق الرازق ﷻ، فما فتئت تلك الظنون أن تستقر؛ حتى تبخرت، وتلاشت أوهاماً، ونهضت الحقيقة كالمارد؛ تهزأ بتلك الآلهة الكاذبة، وتمد الحياة الإنسانية بتجارب حضارات بادت بظلمها، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[2] [سورة هود:101-105].

وقد تغتر حضارةٌ ظالمة ببعد العذاب عنها، وتظن أن ميزان العدل ذهبت كفّتاه مع الريح؛ فتستبيح الفِعالَ الظالمةَ الغاشمة، وتستبد بالضعفاء، وتنهشُ المستضعفين، وتحولهم إلى هياكل عظمية، أو إلى عبيد يوقدون البخور في مواكبها، ويسبحون بحمدها، وفي ساعة السكرة، والغفلة، تستبد بالبشر، وتنْحلُ نفسها صفةً من صفات الجبار؛ فهنا يأتي الوحي الأمين، بالتنزيل الحكيم، يتلو التهديد، والانتقام، بقول الباري ﷻ:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:42]. فالظالم المستبد لن يفلت من العقاب، "فمن سنّة الله أيضاً إمهالُ الظالم، ولكن دون إهماله، وقد يكون في عدم تعجيل عقوبته في الدنيا لحكمة يعلمها الله، ولا نعلمها مثل استدراجه، أو لكون الظالم قد ظلم غيره، وما حلّ فيه من ظلم

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب المظالم. باب الظلم ظلمات يوم القيامة. رقم الحديث2315. ج2ص864. مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم الظلم. رقم الحديث2578. ج4ص1996.

(2) ذكر الدكتور السامرائي حِكماً في حذف الياء من الفعل يأتِ، فلم يقل القرآن في هذا الموضع يأتي. فقال: لهذا الحذف سببه، "فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله؛ فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله. فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان". وحذف التاء من الفعل تكلم فقال تكلم ولم يقل (تتكلم)، إشعاراً بقلة الكلام في ذلك الوقت. ينظر: السامرائي، د.فاضل: **التعبير القرآني**. 1مج. ط2. عمان: دار عمار. 1422هـ/2002م. ص88، 89.

هو جزاء ظلمه لغيره، أو لعلم الله ﷻ بصلاح هذا الظالم مستقبلاً، وتوبته توبة نصوحاً، وتحلله من ظلمه، أو لغير ذلك من دوافع تعجيل العقوبة على الظالم"(1).

والظلم يردم الحضارةَ تحت أكوامِ التراب، ويمسك بوسطِها ومناكِبها، نحو أعماق الموج العاتي، ويغرقها في الطوفان الهائج، ويهدر البحر الهدار بساعة الأجل المحتوم لموت الحضارة الظالمة، ومثال ذلك فرعون رمز الحضارة الفرعونية الظالمة،﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة القصص:39-40].

"وما كان شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الأمم بظلم منه لها، في حال كون أهلها مصلحين في الأرض، مجتنبين للفساد، والظلم، وإنما أهلكهم، ويهلكهم؛ بظلمهم؛ وإفسادهم فيها"(2)﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة هود:117].

وعندما يرى المؤمن الهالكين، ويرى بعين الحقيقة البصيرة نجاته من إهلاك الظالمين؛ فحقّ عليه أن يقول:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة المؤمنون:28-30].

---

(1) زيدان: **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**. ص117.

(2) رضا: **تفسير المنار**. ج12ص192.

المبحث الثالث

الترف

الترف مظهر من مظاهر الحضارة، وهو يدل في بعض مواطنه على ازدهارها، وقوتها. وفي المقابل يعد الترف سوسةً؛ إذا نخرت في هياكل الحضارة؛ خرت سقفها على الأرض، وتهاوت أعمدتها، بلا قرار. وهنا أقف على معاني الترف في سيء أثره، وسوء فِعله في تهاوي الحضارة، ودحرها نحو الهاوية.

فالترف: "التاء والراء والفاء كلمة واحدة، وهي الترفة"[1]. وهي "التوسع في النعمة"[2]. "وأترفته النعمة: أطغته"[3]. "والمترف: الذي قد أبطرته النعمة، وسعة العيش. والمترف: المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها"[4]. و"البطر: الطغيان في النعمة"[5].

فالتّرف فيه طغيان، وبطَر، وفتح لأبواب الملاذات، والشهوات. و"الترف مكون من جانب مادي؛ وهو التنعم، وجانب معنوي؛ وهو البطر"[6].

فالدلالة اللّغوية للتّرف تشي بالمعاني الإيجابية، والسلبية في آن واحد، فإيجابيته أنه توسعة في النعمة، ومظهر من مظاهر بروزها. وسلبيته في تحول هذه النعمة إلى طغيان، وبطر، وانغماس في الملاذات، يطغي النفس الإنسانية؛ فتفجر في نعمة خالقها ﷻ، وتجذبها جذبةُ الطين جذبةً تخلُد إلى ثقيل طينه، وتتمرغ في متع الحياة؛ فتنسى رسالتها في الحياة، بل تنسى التصور

---

(1) ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج1ص345.

(2) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص84.

(3) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: **مختار الصحاح**. 1مج. بيروت. دمشق: المكتبة الأموية. 1398هـ/1978م. ص76. لم يذكر رقم الطبعة.

(4) ابن منظور: **لسان العرب**. ج9ص17. مادة ترف.

(5) ابن منظور: **لسان العرب**. ج4ص68. مادة بطر.

(6) القرضاوي، د.يوسف: **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**. 1مج. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1417هـ/1996م. ص242.

الصحيح لها؛ فيصبح الترف أولاً، وآخراً، ووسيلة، وهدفاً؛ ولهذا فإن "القيد المفروض على شهوة الترف قد فرض لصالح المجتمع، ولمصلحة الفرد"[(1)].

ويجر الترفُ معصيةً، ورذيلة، وفنوناً مستحدثة، تكرس عبادةَ الدنيا، والارتماء في معبـدها؛ حتى يصدق في حضارة هذا نوعها قـول الله ﷻ:﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:20]. فيتضخم جانب المتع؛ حتى يصير غُدةً سرطانية؛ تمتص زهـرة الحـضارة؛ فتـذبل؛ وتموت، في وقت يظن فيه أنها تحققُ أقصى درجات الحضارة، والرقي، بينما هي في الحقيقـة تحتضر، وتناجي ساعة الموت، فما تجد نفسها إلا ذابلة على مـسرح الحيـاة،﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [سورة يونس:24]. فهي صحوة الأوصال قبل الوداع الأخير، والنظـرة الأخيـرة التي بعدها يقبض البصر، وتدلفُ الحضارةُ في أكفانِها البرزخية، "فـربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها، ويومض ذُبالُها إيماضةَ الخمود، كما يقع في الذبال المشتعل، فإنه عند مقاربة انطفائه؛ يومض إيماضة توهم أنها اشتعال، وهي انطفاء، فاعتبر ذلك، ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته"[(2)].

والترفُ انغماسٌ مثيرٌ؛ يبعث الاشمئزاز في بعض منحدراته؛ حينما ترفـل الحـضارة فـي مشاربه، ومآكله، وشهواته، وملذاته، وألبسته، وأرديته، والتصرفات المبتذلة من الطبائع المترعة من كأسه المميت. حتى قيل: "التّرف سوء كله"[(3)].

"فالإتراف هو الباعث على الإسراف، والفسوق، والعصيان، والظلـم، والإجـرام، يظهـر فـي الكبراء، والرؤساء، ويسري بالتقليد في الدهماء؛ فيكون سبب الهـلاك، والاستئـصال؛ أو فقـد الاستقلال"[(4)].

---

(1) قطب، محمد: **الإنسان بين المادية والإسلام**. 1مج. ط5. بيروت: دار الشروق. 1398هـ/1978م. ص84.

(2) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص294.

(3) عباس، د.فضل حسن: **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**. 1مـج. ط1. عمـان: دار الفرقـان. 1407هـ ـ/1987م. ص102.

(4) رضا: **تفسير المنار**. ج12ص191.

"ومن مفاسد الحضارة الانهماك فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ؛ فيفضي ذلك إلى فساد النوع. والترف إذا بلغ غايته؛ انقلب إلى فساد؛ وأخذ في الهرم..، والترف هو عين الفساد"(1).

والترفُ سببٌ من أسباب الإعراض عن الحق، وصمِّ الآذان الغارقة في بحار المتع، والشهوات، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:33].

و"الترف يغلّظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها؛ فلا ترى دلائل الهداية؛ فتستكبر على الهدى، وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور. والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء، وقوة؛ فيحسبونه مانعهم من عذاب الله؛ ويخالون أنه آية الرضى عنهم؛ أو أنهم في مكان أعلى من الحساب، والجزاء"(2). قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة سبأ:34-36].

وما فتئ القرآن الكريم يضرب الأمثال عن الحضارات التي ازدهت ألوانها، وتلك التي ارتدتْ حلّةَ الترف، وبطرت بالنعمة الربانية، والفيض الإلهي؛ فما شكرت المنْعِم ﷻ على ما أسداها، ومنَحها، وأعطاها. فقال ﷻ:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة النحل112]. فهذه حضارة اكتست حلَلَ الأمن، وأردية الطمأنينة، تأتيها الأرزاقُ بفيضٍ رغيد؛ فلا تحتاج إلى أن تكد بطلبه في الأرض، ولا تُثقلُ مناكب الأرض بضربها؛ فالأرزاقُ تساق إليها. ومما يدلّ على أنها حضارةٌ مستقرة؛ أن اكتنفتها غمامةٌ مطمئنة، تهطلُ عليها سكينةً، واطمئناناً. ويرتحلُ الناس إليها، والرزقُ يرتَحلُ إليه، وتقصدها الجموع البشرية، فالأمن مطلب من مطالبها، وأمنية من

(1) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. ص374،373.

(2) قطب: **في ظلال القرآن**. ج6ص2910.

أمانيها. فماذا صنعت هذه الحضارة المغبوطة بمتعِها، ونعمِها؟ بطرتْ النعمة، وأترفهـا النعـيم؛ فكفرت بأنعم الله؛ فنالت جزاءها المحتوم، وذهبت إلى قدرها، بما جنت علـى نفـسها؛ فـذاقت صنْفَ الجوع؛ وخُلعتْ عنها فروةُ النعيم، ولبست أرديةَ الجوع، وتجرعت الـصاب، والعلقـم. فـ"سماه لباساً؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال، وشحوبة اللون، وسوء الحال ما هو كاللباس"(1).

والبطر يهلك الـنّعم، والحـضارة ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ ﴾ [سورة القـصص:58]. وهذه الحـضارة الهالكـة بسببِ بطرها الذي يعني أنها "طغت في نعمة الله؛ فأهلكهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا. ويقال: عاشوا في البطر، وكفران النعمة"(2).

والترف سببٌ من أسباب الهلاك، والدمار، والاستئصال. "ومن هنا كان الترف فـي نظـر القرآن من أظهر أسباب الانحلال الاجتماعي، والتدمير المعنـوي للأمـة، ولاسـيما إذا كثـر المترفون، أو أصبحوا أصحاب السلطة. قال الله تعالى مقرراً هذه السنة الاجتماعيـة"(3): ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧ ﴾ [ســورة الإســراء:16-17]. وقولـــه تعالى:﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ "التدمير هو الإهلاك، مع طمس الأثر، وهدم البناء"(4). وهـذه الآيـة الكريمة تبين سنّة من سنن الله تعالى" أن هذا الانحدار إلى هاوية الفساد، والانهيار يبدأ من تفتت القمة الاجتماعية في الأمم، والشعوب، وفساد القمة نذير صارخ بإفساد المجتمع...، والترف من أقوى، وأسرع، وأخبث عوامل التفتت الاجتماعي"(5).

(1) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**. ج10ص142.

(2) السمرقندي: **بحر العلوم**. ج2ص522.

(3) القرضاوي: **دور القيم**. ص241.

(4) الآلوسي: **روح المعاني**. ج15ص44.

(5) عرجون: **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**. ص36.

ووصف القرآن الكريم الظالمين بأنهم مترفون، فقال ﷻ:﴿ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [سورة هود:116] "أي متلبسين بالإجرام الذي ولّده الترف راسخين فيه"(1). "والترف مفسد للجماعة، منذر بانهيارها، ولهذا قرنه القرآن الكريم بالظلم، والإجرام"(2).

ويرسم القرآن الكريم صورةً حية متحركة، ومشهداً من مشاهد الهلاك، كأنه أمام النواظر الآن، يتلاحق فيه الغضب الرباني، ويطارد الحضارة المترفة، وهي تركض أمامه في ذهولٍ ودهشة، لا تسعها الطرقات، وتبحث عن مأمنٍ؛ فلا تجده، فقال ﷻ:﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (3) ۝١٥﴾ [سورة الأنبياء:11-15].

وعبر القرآن الكريم، عن إهلاك الحضارة المترفة بالقَصم. "والقَصم: دقّ الشيء. والقصم: كسر الشيء الشديد؛ حتى يبين"(4). ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ﴾ وهي "واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم؛ لأن القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء"(5). ومعنى الآية" أي حطمناها، وهشمناها؛ وذلك عبارة عن الهلاك"(6).

والمشهد المصور في القرآن الكريم يذكرنا بالصورة التي نقلتها القنوات الفضائية للزلزال الذي ضرب "جزر المالديف" في جنوب شرق آسيا(7). فماجت الأمواج الثائرة من أعماق البحار،

(1) رضا: **تفسير المنار**. ج12ص191.

(2) القرضاوي: **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**. ص240.

(3) قال الرماني: "أصل الخمود للنار، وحقيقته هادئين، والاستعارة أبلغ، لأن خمود النار أقوى في الدلالة على الهلاك، على حد قولهم: طفئ فلان كما يطفأ السراج" ينظر: الرماني، علي بن عيسى: **النكت في إعجاز القرآن**. 1مج. ط4. تحقيق محمد خلف الله. ود.محمد زغلول سلام. مصر: دار المعارف. ص92. مطبوع ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. بلا تاريخ.

(4) ابن منظور: **لسان العرب**. ج12ص485. مادة قصم. والواحدي: **الوسيط**. ج3ص231.

(5) الزمخشري: **الكشاف**.ص673.

(6) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص452.

(7) بتاريخ2004/12/26م، ضرب زلزال مدمر جزيرة سومطرة وسيرلانكا، ومناطق شاسعة. وجزر المالديف، وكانت تسمى تلك الجزر "جنّة السياح". وامتدت آثار الزلزال إلى مناطق واسعة من آسيا وإفريقيا. وجرفت الجزيرة عن موقعها. وعلى رأي علماء مختصين بلغت قوة الزلزال ما يعادل مليون قنبلة ذرية. وأعقب الزلزال أمواج عاتية بلغ ارتفاعها عشرة أمتار. وقد يصل ارتفاعها أحياناً إلى 45م. وتفوق سرعتها سرعة الطائرة النفاثة. وحملت مليارات

في علو شاهق، مرعب وسرعة هائجة تفوق سرعة الطائرة النفاثة، تطارد الناس في الطرقـات، وتحملهم ومتاعهم إلى أغوار المحيط في سرعة فائقة، ورأى الناس جميعاً كيف تراكض القـوم في الطرقات، والأزقةِ؛ يهرعون مرعوبين مذهولين فارين من مكان كان يسمى "جنّة الـسياح"، فأين اللهو، والترف، والملاذات، والمتاع، وصخَب الدنيا، والملاهي، والليل السامر؟ ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ ﴾[سورة الأنبياء:12]. وذلك قول يقـال: "اسـتهزاء بهم"(1).

فذهبت السكرة وأتت الفكرة، فهل من مدكر؟ رأينا أهلَ الترفِ الباذخ؛ يبتلعهم الموج فـي بطـن البحر الغاضب، ومن ثم يقذفهم الموج رمماً على أوكار الفسوق، والعصيان، شاهدة على تـدمير الرذيلة للحضارة المترفة المترعة مـن كـؤوس الحـرام، والفـواحش،﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ ﴾ [سورة لمؤمنون:64-67].

لقد حرم الإسلام بعض أشياء محددة تُعد أمثلة بارزة للترف، ومـن ذلـك أوانـي الـذهب والفضة، ومفارش الديباج، والحرير، وحلي الذهب، ولبس الحرير للرجال(2). وذلـك التحـريم، كأنه خطوط حمراء يحذّر الأمة من الوصول إليها، أو الاقتراب منها؛ فـإن اقتربـت منهـا أو تجاوزتها؛ فهي نُذرٌ من نُذر السقوط الحضاري؛ أو الموت بكامل الزينـة، كمـوتى النـصارى يزفون إلى مراقدهم بأنْفَس حلِلهم. فهي حلَلٌ قشيبة، ولكنها حلّةُ الموت. وكذلك حال الحـضارة المترفة تزفّ إلى الموت بِحلِلها الزاهية.

وما أجمل تلاوة الآي الكريم في الكتاب المبين! فهي تلاوةٌ تهز الوجدان؛ وتهتز له معـاطفُ الحضارةِ الراشدة. قال الله ﷻ:﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ

الأطنان من مياه البحر. وكان منظره مرعباً كما بثته شاشات التلفزيون. ويطلق العلماء على هـذه الأمـواج. اسـم "تسونامي"أي موج الميناء. وأطلق على الطوفان"طوفان القرن".وفاق عدد الضحايا 234ألف قتيل وعشرات الآلاف من الجرحى. ودمار يقدر بمليارات الدولارات. وخلّف الزلازل والطوفان أمراضاً وأوبئة في تلك البقاع. ووصفت الأمـم المتحدة الحدث بأنه كارثة لم يسبق لها مثيل. هذا ونشرت الصحف صورة لمسجد نجت جدرانه ومئذنته، تتوسط بقعـة مدمرة.ينظر: **جريد القدس**. عدد12701بتاريخ2004/12/28م. والعدد12072. بتاريخ2004/12/29م.

(1) الواحدي: **الوسيط**. ج3ص232.

(2) ينظر: القرضاوي: **دور القيم**. ص242-245.

سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الزخرف:33-35].

المبحث الرابع

الذنوب والفواحش

الذنوب: كلمةٌ مدلولُها عام، ويندرج تحتها جملةُ مفاهيم تدل على: "كل فِعلٍ يستَوخَم عقبـاه؛ ولهذا سمي الذنب اعتباراً بما يحصل من عاقبته"(1).

والذنوب سببٌ من أسبابِ هلاكِ الحضاراتِ، ومحوِ آثارها من الوجود، قـال ﷻ:﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ [سورة آل عمران:11].

والفواحشُ، كلمةٌ لها مدلولٌ عام أيضاً، وهي:"ما عظم قبحه مـن الأفعـال، والأقـوال"(2). ووردت كلمة الفاحشة في القرآن الكريم على معانٍ عـدة: "أحـدها: المعـصية. ومنـه قولـه تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ [سورة الأعراف:28]. والثاني: الزنا. ومنه قولـه تعـالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾[سورة النـساء:15]. والثالث: اللواط. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾[العنكبوت:28]. والرابع: نشوز المرأة. ومنه قولـه تعـالى:﴿ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ [سورة الطلاق:1]"(3).

وسترتكز دراستي على المعاني التي لها أثرٌ في انهيار الحـضارة، وأقـول نجمِهـا، كمـا استعرضته الآيات القرآنية الكريمة. قـال ﷲ ﷻ:﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [سورة الأنعام:6].

"هذا النص في القرآن ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ إنما يقرر حقيقة، ويقرر سنّة، ويقرر طَرفاً من التفسير الإسلامي للتاريخ.. إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن ﷲ هو الذي يهلـك

---

(1) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص203. والفيروز أبادي: **بصائر ذوي التمييز**. ج3ص19.

(2) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص418.

(3) ابن الجوزي: **نزهة الأعين النواظر**. ص467،466.

المذنبين بذنوبهم، وأن هذه سنّة ماضية... فإن هلاك الأجيال، واستخلاف الأجيال، من عوامله فعلُ الذنوب في جسم الأمم، وتأثيرها في حالة تنتهي إلى الدمار"[1].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾، فهذا نص قرآني، طوى حقب الزمان في مشهد رهيب، وأتى بخلاصة فريدة لقرون مديدة؛ أصابها الهلاك والدمار، وقد مكن لها في الأرض أي تمكين، وجرت النّعم تحتها أنهاراً، يغترفون منها؛ فاكتسبوا الآثام، والذنوب، ولوثوا صفاء الطبيعة بذنوبهم؛ فهلكوا بمستنقعات الذنوب، فهو ليس ذنباً واحداً، أو نوعاً واحداً، بل هي أنواع كثيرة متعددة؛ فهلكوا بها.

والحضاراتُ الشقيةُ، هي عنوان التعثر الحضاري. والسبر العميقُ، والتحليلُ الدقيقُ لانهيارها، وتعثّر خطاها، بعدما وثبتْ فوق متْن الزمان، وغُرةِ الدهر حيناً، إذ بها تُجندلُ من على ظَهر الجوادِ، وتتدحرج في السقوطِ الحضاري؛ ووراء ذلك كلّه ذنوبٌ أثقلتْ ظهر الحياة، وعجتْ بها رحابةُ الأُفق؛ فسدت الفضاء، وفصلَ القضاء فصلاً لا ريب فيه؛ بأُفول شمسِ تلك الحضاراتِ العاصيةِ الغريقةِ في ذنوبها؛ فشهقتْ شَهقَةَ النزاع؛ واختنقتْ بذنوبها، وفواحشِها.

وذلكم التاريخ يفتح صحائفه لقراء عِبره، ويشرع حوادثَ الزمان للتحليل الراشدِ عن تلك الحضارات الزاهية، ثم البائدة. ولئن كان حديثُ القرآن عاماً في هلاك الحضارات، وعبر عنه بالقرون المتلاحقة؛ فلا يساور النفس شك أن تلك القرون أظلمتْ بأسماء حضاراتٍ أطفأتْ الذنوب وهجها، وأعتمت الفواحشُ نهارها.

وعلى سبيل المثال حضارةُ الإغريق والرومان، حضارتان عظيمتان تمتلئان قوة، وفروسية، وحكماء، وبلغاء، كيف سارتا برجليهما القويتين؛ سير الفارسِ الشجاع نحو الموت، وليت الشجاعةَ هي الدافع لِمِقْصلةِ الموت، بل الحضارة هي المدحورة إلى مقصلة الموت دحراً، وداحرها ذنوبٌ لها قوة عجيبة؛ رمتها بمنجنيق الآثام إلى الهلاك، خارج الحلبة التي اعتاد أبطال الرومان علو ساحتها متلاكِمين.

---

(1) قطب: **في ظلال القرآن**. ج2ص1038.

فهما حضارتان قدستا الشهوةَ الآثمة، وما زالت تماثيلُهم الخليعةُ شاهدةً عليهم، حتى آلهـتهم التي عبدوها؛ اتسمت بالعري، والخلاعة، فكيف عابدوها؟ ومـن عجيـب هـاتين الحـضارتين الهالكتين بالذنوب، أن الرومان استوردوا آلهة جديدة من اليونان؛ ليقدسوها وأي إله هـذا إنهـا "الآلهة فينوس VENUS وهي التي أحضرت من صقلية عام 217ق.م"[1]. وهـي إلـه الحـب والعشق الذي يعكس فجوراً، وإباحية، وخلاعة، ومجوناً سادت المجتمع الإغريقي، والرومـاني. وصبغت تلك الحضارتان بهذه الصبغة، فماتتا بما كسبتا من خطايا؛ ما زالت تلوث الحياة.

لقد كان هذا المجون السافر، وراء الكلمةِ الحكيمة التي قالها لهم أحد قادتهم: "تحـضر دون إسراف"[2]. فهل الحضارةُ المادية المعاصرة بعيدةٌ عـن أسـباب هـلاك حـضارة الإغريـق والرومان؟

إذن هي قرون خلت، وبادت، وحدثت الأرض أخبارها عما فعل أهل تلك الحضارات. "إن التفسير المادي للتاريخ؛ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمـم، وأحـداث التاريخ؛ ذلك أن وجهته ابتداء؛ هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحيـاة، واسـتبعاد القاعـدة الاعتقادية التي يقوم عليها"[3].

ويمضي القرآن الكريم على نهج أسلوبه البديع في الحديث الحضاري؛ فيغفـل ذكـر اسـم الحضارات تارة، وأخرى يسميها باسمها، فكلا الأسلوبين ظاهر في العرض الحضاري. وعلـى أسلوب ذكر الحضارات البائدة الهالكة بذنوبها، جالَ الذكر الحكيم في خارطة العـالم؛ فاختـار قارتين من قارات الكرة الأرضية، هما آسيا وإفريقيا، وأشار بإصبع الحقيقة إلى سـبب المـوت والهلاك الكامنين في الذنوب، فقـال ﷻ:﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ

---

(1) نصحي، د.إبراهيم: **تاريخ الرومان**. 2مج. مكتبة الانجلو المصرية. ج1ص410. لم تذكر الطبعة، ولا بلـد النـشر. كانت وما زالت كثير من الدول، تأخذ بالقانون الروماني، ويعد مرجعية لكثير مـن الـدول، ويقـال عـن عظمتـه الكثير."ومع كل ما يقال عن عظمة القانون الروماني، فإن الإنسان الروماني كان يعيش من دون قانون، لأن سـيطرة الإمبراطور، ورجاله فوق القانون. ولا قيمة للإنسان في نظرهم، فيجنّدون الناس بالقوة؛ ليضحوا بهـم فـي ميـادين حروبهم، ويعتبرون الناس جميعاً عبيداً لهم" ينظر: مؤنس، د.حسين: **الحضارة دراسة في أصـول وعوامـل قيامهـا وتطورها**. 1مج. ط2. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1998م. ص59.

(2) نصحي: **تاريخ الرومان**. ج1ص410.

(3) قطب: **في ظلال القرآن**. ج2ص1038.

لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة العنكبوت:38-40].

فهذه قافلة تخطو خطاها إلى الهلاك، والبوار؛ لتصبح أثراً بعد عين، يمتد طولُها من حـضارة عاد، وثمود المغرورتين بعنْجهية القوة، مروراً بالحضارة الفرعونية الطاغية المستبدة المتألهـة بغير حق، والمتعالية بزخرف الباطل، بشقيه: سطوةِ سيف فرعون، وسلطان مال قارون. عليهما اللعنة في دار الخلود، آماداً، وآباداً. فمصارع تلك الحضارات متنوع بما تستحق بـذنبها ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، فمنها أُخذت بصيحة أفزعت قوتها المغرورة، وأخرى ابتلعتهـا الأرض، فمـا عادت تملك بقعة تحميها، ومنها من كان على موعد مع القدر المحتوم بين أمواج دثّرتها دِثـار الموت الزؤام، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنفال:52-54].

ويستعرض القرآن الكريم فيما يستعرضه من الحضارات الهالكة بذنوبها، حضارة ثمـود؛ إذ انبعث شقي متسلط من أشقيائها؛ فكذبوا رسول الله صالح ﷺ، وعرض القـرآن الكـريم هـذا المشهد، في قوله تعـالى:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الـشمس:11-15]. "والدمدمة: المبالغـة فـي العقوبـة، والنكـال"(1). أي "أهلكهـم، وأزعجهـم"(2). وقولـه تعالى:﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ يعني "بسبب ذنبهم، وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب، فعلى كل مذنب أن يعتبـر

(1) السمرقندي: **بحر العلوم**. ج3ص483.
(2) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص192.

ويحذر"[1]. "فلو كانت هذه الحضارات مبنية على قيم ثابتة؛ لاكتسبت مناعة ضد الزوال، ولكن؛ لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق؛ أخذها الله أخْذَ عزيزٍ مقتدر"[2].

والحضارة الساهية الغافلة عن سنّة الله تعالى بالإهلاك بالذنوب، والمغترة بإمهال الله تعالى، تحسب أن سنةَ الله ﷻ في إهلاك المذنبين الغارقين في الفواحش، والآثام؛ هي سنّة غائبة عـن الوجود؛ وذلك الظن الخائب مبعثه؛ تأخّر القدر المقدور، والساعة المحتومة التي لا فرار منهـا؛ إن أزفتْ آزفتُها؛ واقتربت غوائلُها. وتغشى غاشية الذنوب غشاوتها على قلب تلـك الحـضارة، وتحجب الآثام رؤية العذاب المستنفر قرب منازلهم، ففي الوقت الذي يستعجلون عـذاب الله ﷻ باستهزاء الأغرار الأغبياء؛ كان العذاب ينتظر ساعة الصفر؛ لقرع منازلهم؛ وقلع وجودهم فوق الأرض، فسجل القرآن الكريم هذا الموقف الحضاري العجيب، وغباوة الحضارة الغافلة، فقـال ﷻ:﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾[سورة:ص15-16]. وقوله تعالى:﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ يعني:"ما لها من رجوع"[3]. و﴿ قِطَّنَا﴾ يعنـي "النصيب"[4].

لقد استعرض القرآن المجيد، شأن حضاراتٍ تدحرجت بين أرجل الزمن، وكانـت ذنوبهـا سبب تدعثرها؛ ومن ثَم هلاكها؛ فموبقاتها جرجرتها إلى النّطع؛ فألقى قدر الله ﷻ سيفَه الصارم المسلول عليها؛ فغيبها في بطون العِبر، والعِظة الحضارية، بينما كانت في ساعة نومها تظنهـا ساعةً هانئة، أو في ساعة لَعِبٍ؛ هي لعبة الوداع الأخير، فقـال ﷻ:﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٠١ ﴾ [الأعراف:97-101].

---

(1) الزمخشري: **الكشاف**. ص1206.

(2) الشعراوي، محمد متولي: **قصص الأنبياء**. 5مج. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي. 1416هـ/1996م. ج1ص400.

(3) الشوكاني: **فتح القدير**. ج4ص424.

(4) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص454

ويبلغ الدرس الحضاري مداه في بيان أثر الذنوب، والفواحش على الحضارة؛ فيضرب القرآن الكريم للأمة الواعية، مثلاً يعد نموذجاً للحضارة الهالكة بالفواحش. وهذه الحضارة الغابرة هلكت بفاحشة مستقبحة؛ هي اللواط. فدمرتها تدميراً عنيفاً، ومزقتها شر ممزق. فالذنوب مهمتها "تمزيق الانسجام بين خلايا المجتمع"(1). فتفكّك عراه تمهيداً لتفكيك حضارته، وذرها مع رماد الحضارات البائدة.

والحضارة الهالكة بفاحشة اللواط، حضارة ذات اتساع على رقعة اليابسة، ولها شأن بالجهد الحضاري؛ يتجلى ذلك من موقعها؛ فهي مجموعةُ مدنٍ كبرى متلاصقةٍ بالجوار، ومتساندة بالضلال، والفساد الاجتماعي، والفحش الأخلاقي. واسمها المشهور كما أطلقه القرآن، هو المؤتفكات. فقال ﷻ:﴿ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ ﴾ [سورة الحاقة:9]. والمؤتفكات سلسلة خمس قريات متجاورة هي:"صبعة، وصعرة، وعمرة، ودوما، وسدوم: هي القرية العظمى"(2). وسدوم هي العاصمة، وهي "أم تلك البلاد"(3). ومساحة تلك البلاد شاسعة، فهي "ما بين المدينة، والشام، وقيل: فيها أربعة آلاف ألف"(4). "وسميت الريح بتقليبها الأرض مؤتفكات، للانتقال، والانقلاب، ومنه قيل: لمدائن لوط ﷺ المؤتفكات"(5). والإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب: مؤتفكة"(6).

أما هذه الحضارة الضاربة ما بين المدينة، والشام؛ فهي حضارة عبثتْ بالفطرة السوية، وانحرفت انحرافاً غير مسبوق لحضارة أخرى؛ فابتدعت مسلكاً يعاند جبلةَ الخَلْق، والخُلُق، باقترافها فعلاً مشيناً أطلق عليه القرآن الكريم اسم الفاحشة، فقال ﷻ:﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ

---

(1) عويس، د.عبد الحليم: **تفسير التاريخ علم إسلامي**. 1مج. ط1. المنصورة: دار الوفاء. 1418هـ/1998م. ص150.

(2) الطبري: **جامع البيان**. ج12ص98. والطبري: **تاريخ الأمم والملوك**. ج1ص183. ضبط هذه القرى مختلف فيه، فلم أعلق عليه، لعدم الأهمية. ومعلوم أن لفظ القرية هو اصطلاح قرآني. ويدخل في معناه مفهوم المدينة اليوم.

(3) الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**. ج1ص152.

(4) الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**. ج1ص182.

(5) الحموي، ياقوت بن عبد الله: **معجم البلدان**. 5 مج. بيروت: دار الفكر. ج5ص219. بلا طبعة ولا تاريخ.

(6) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص26.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [سورة الأعراف:80-82].

فقد بلغت تلك الحضارة مبلغاً؛ أن تأفّفت من الطهر والطهارة، ونأتْ بنفسها عن الولوج في عالم الطهارة؛ فاستساغت عالم القَذر، والرذيلة، والفواحش. فعالمها سفلي؛ تهوي إليه؛ فهوى بها قدر الله الجبار بما استحقت من الهبوط، والسفلية. فقال ﷻ:﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤﴾[سورة النجم:53-54].

كما أن تلك الحضارة وصفت بأقبح ما يوصف به الفعلُ الشائن، والترف الشاذ؛ فوصفها القرآن الكريم بصفات غاية في السوء، والقبح، فقال ﷻ:﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾[سورة ألأنبياء:74]. ومن أعمالهم القذرة أن يتناكح الرجال في المجالس؛ ففعلوا ما لم تفعله الحيوانات. قال ﷻ:﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾[سورة العنكبوت:29]. ووصفهم بالمسرفين:﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾[سورة الأعراف:81]. ووصفهم بالمجرمين:﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾[سورة الأعراف:88]. ووصفهم بالجهل:﴿أَئِنَّكُمۡ (1) لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [سورة النمل:55]. ووصفهم بالظالمين:﴿ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾[سورة العنكبوت:31]. ووصفهم بالفاسقين:﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ [سورة العنكبوت:34].

حضارة هذه بعض أفعالها، وتلك بعض صفاتها، وقد بنت قصوراً، وشادت صروحاً، وأقامت نوادٍ، ومجامع، بيد أنها نكست الفطرةَ السويةَ انتكاسةً لم يسبق لها مثيل، فأي ثمرة تجني الإنسانية من حضارة مسخت إنسانيتَها، ولوثت فطرتَها. فلا القوة الغاشمة محل فَخْر، ولا العمران الشامخ عنوان افتخار؛ إذا ما سفلت النفس الإنسانية إلى أسفل سافلين بتلك اللوثات الفكرية، والسلوكية.

(1) الهمزة هنا دالة على تشنيع الفاعل. ينظر: عباس: **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**. ص193.

والسنن الإلهية، لا تتخلف عن مواكبة الحركة الحضارية؛ لا من حيث البناء؛ ولا من حيث الهدم. وكلما ابتعدت الحضارة عن سنن البناء، ومقومات الإشراق الحضاري، اقتربت من أسباب الفناء، وسنن الغروب الحضاري. فعن زينب بنت جحش[1] رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ قالت: يا رسول الله: "أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث"[2].

وهذه الحضارة المنحرفة الشاذة، لقيت مصيرها المقدر، وحفرتْ مدافنَها بيدها، ويا ليتها مدافن طبيعية، إنها أعنفُ ما تكون مصيراً، وأسوأُ ما يكون مآلاً. فهم الذين كانوا يستعجلون العذاب، ويلحون بطلبه من لوط ﷺ بهزء، وسخرية. فأجاب القرآن ذلك الطلب، ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة هود:81].

فانجلى ليلُ الظالمين مع إشراقة الشمس، ونسجت خيوطَها الأولى لبدايةٍ جديدة، وطُويتْ صفحاتُ حضارةٍ مظلمة ظالمة في ليلٍ بهيم، وتنفّس الصبح تنفّس المكروب بعد الفرج، ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القمر:38]. فما هي إلا لحظات، صيحة واحدةٌ تأخذهم قبل أن يستأنفوا يوماً جديداً بأوزارهم الشاذّة، فقال جلّ وعلا:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[سورة الحجر:73]. فاستقبلهم إشراق الشمس بصيحةٍ مهلكةٍ مدمرة. ثم تلا ذلك انتقامٌ آخر،﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [سورة الحجر:74]. فانقلبت تلك البقاع رأساً على عقب؛ فهي حضارة قلبت المفاهيم، والحقائق، والطبائع، والفِطر، "فكان الجزاء من جنس العمل"[3]. ثم أعقب الصيحةَ، والخسف، مطرٌ غاضب، يحمل حجارة من طينٍ يبسٍ معلّمٍ، منضودٍ؛ ليكتملَ مشهد الغضب الفظيع على

---

(1) زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين. وأمها أمية عمة النبي ﷺ تزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث وقيل سنة خمس ونزلت بسببها آية الحجاب. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج7 ص667.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الأنبياء. باب قصة يأجوج ومأجوج. رقم الحديث3168. ج3ص1221. مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج. رقم الحديث2880. ج4ص2207.

(3) ينظر: الخالدي، د.صلاح: **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**. 4مج. ط1. دمشق: دار القلم. 1419هـ/1998م. ج1ص521.

حضارة تنكّبت الفطرة السليمة أيما تنكّب، ﴿ وَأَمْطَرْنَا [1] عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة هود:82-83].

(1) المطر: هنا مطر عذاب. وأنوه، أن باحثين دخلوا في جدل، حول كلمة المطر في القرآن الكريم، فمنهم من قال: كلمة المطر يقصد منها العذاب، ولا تأتي إلا بهذا المعنى. وقالوا:" المطر في القرآن لم يرد إلا في سياق الأذى أو العقاب والعذاب، بل إن إشتقاقات وتعريفات المطر في القرآن، معظمها في ذلك المطر الخاص المكون من حجارة من سجيل" ينظر: الخالدي: **القصص القرآني**. ج3ص518. وأقول هنا: هذا ليس دقيقاً في المفهوم القرآني ولا اللغوي. أما القرآني، فيعترض عليه بقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[الأحقاف:24]. فقوم عاد لما رأوا السحابة قالوا: هذا مطر؛ لأن السحابة إذا أقبلت من جهة الوادي؛ أمطروا. فحسبوه خيراً، وسموه مطراً. وكذلك قوله تعالى:﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ ﴾[سورة النساء:102]. و"المطر الماء المنسكب. وقيل: إن مطَر يقال في الخير. وأمطر في العذاب" ينظر: الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص524. الفيروز أبادي: **بصائر ذوي التمييز**. ج4ص511. ونقل ابن منظور في اللسان عن ابن سيدة: "أمطرهم الله في العذاب خاصة" ينظر: ابن منظور: **لسان العرب**. ج5ص178. مادة مطر. كقوله تعالى:﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[سورة الشعراء:173]. والذي رأيته عند ابن سيدة: "أن أمطرتهم أصابتهم بالمطر.(ونسب لأبي عمرو بن العلاء. قوله:) أمطرهم الله في العذاب خاصة" ينظر: ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل: **المخصص**. 17مج. تحقيق لجنة التراث العربي. مكة المكرمة: دار الباز. ج9ص110. وقال ابن فارس: "مطر الميم والطاء والراء أصل صحيح فيه معنيان: أحدهما الغيث النازل من السماء، والآخر جنس من العدو. فالأول المطَر، ومطِرنا مطراً. وقال ناس: لا يقال أُمطر إلاّ في العذاب. قال الله تعالى: ﴿ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ [سورة الفرقان:40]". ينظر: ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج5ص323. ولم يفرق الجوهري بين مطر وأمطر. قال:" مطرت السماء تمطر مطراً وأمطرها الله. وقد مطرنا. وناس يقولون مطرت السماء وأمطرت بمعنى. والاستمطار: الاستسقاء. ومنه قول الفرزدق: واستمطروا من قريش كل منخَدِعٍ" أي سلوه أن يعطي كالمطر" الجوهري: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. ج2ص818. فصل الميم. وقال ابن دريد ت(321): "وفي التفسير إذا كان رحمة فهو مطر، وإن كان من العذاب فهو أمطر" ينظر: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: **جمهرة اللغة**. 4مج. ط1. حيدر أباد. مجلس دائرة المعارف العثمانية. 1345هـ. ج2ص375. قلت: والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد الفرق جلياً، وتحميل كلمة المطر للعذاب خاصة، لا دليل عليه في القرآن، ولا اللغة، وليس على أدل من ذلك قوله تعالى:﴿أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾[سورة الفرقان:40]. فالإضافة للسوء، هنا، تعني أن المطر فيه سوء. فإنه قد يحمل الخير، فلو كان المطر في العذاب سوء، لاكتفى بذكره دون حاجة لوصفه. فأضيف المطر للسوء، لإزالة الإبهام عنه. "والإضافة تفيد إزالة الغموض والإبهام، عن معنى جزئي في الجملة". ينظر: إسبير، محمد سعيد: **الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها**. 1مج. ط2. بيروت: دار العودة. 1985م. ص118. والصواب أن يقال: تصريف الفعل مطر في القرآن الكريم. أتى بالهمزة: "أمطرنا، فأمطِر، أُمطرت" أتت في بيان مطر فيه عذاب. ولا يعدو الأمر أكثر من ذلك. والله أعلم بمراده.

وانتهت تلك الحضارةُ ركاماً تحت الأنقاض. وفي الآية الكريمة إشارة بارعة إلى كل حضارة تراودها وساوس الشيطان، فيحرفها الهوى ويميل بها إلى ما مالت إليها حضارة قوم لوط، عندئذ ستكون النهاية أليمة ومروعة،﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

فماذا تقول الحضارة المادية الغربية، التي احتذت حذو حضارة "سدوم"؛ فشرعت فاحشة اللواط في تشريعاتها، ونادت بالحرية الجنسية، وتزويج الذكور للذكور، والإناث للإناث. وأسست جمعيات، ومؤسسات ليس لها من عمل سوى المطالبة بذلك على اعتباره حقاً من الحقوق الشخصية. وتقام لهؤلاء الشاذين أحزاب تجمعهم، ونقابات تمثلهم، ولهم أعياد يجتمعون من كل دول العالم، فأي حضارة هذه، وهي التي تنادي بأن تلحق الأمم بركبها. "فدولة بريطانيا تحكمها حكومة فيها وزراء لوطيون شاذون. وقرر مجلس العموم البريطاني خفض السن المسموح معه ممارسة الشذوذ لسن ست عشرة سنة. وفي كندا أقر مجلس النواب الكندي قانوناً يعطي الشواذ حقوق المتزوجين بأغلبية كبيرة. وتبنى البرلمان الهولندي قانوناً يجيز زواج مثيلي الجنس وتبني الأطفال من قبل أبوين من الجنس نفسه. إنها حضارة الانحطاط، والشواذ"[1].

حضارة فتكت بالشعوب قتلاً، وتدميراً، وفتكت بالشعوب أمراضاً لا علاج لها. إنها حضارة الإيدز[2] الذي يتهدد شعوباً كاملة بالفناء. وهذه حضارة لا تستند لشيء سوى منطق القوة المدمرة؛ فهي مدمرة نفسياً، وجسدياً، وصحياً لهذه الأرض، إلى أن يشرق فجر الإسلام بإذن الله تعالى؛ فتستريح البشرية من عنائها.

(1) بدوي، عمار توفيق أحمد: **الزواج المبكر مسألة أثارت الجدل عرض ونقـض**. 1مج. ط1. فلـسطين: مركـز نـون للأبحاث والدراسـات القرآنيـة. 1421هـ ـ/2001م. ص112. وينظـر: **جريـدة القـدس**. بتـاريخ2000/4/5م. و200/4/13م و2000/9/14م.

(2) ظهر الإيدز عام 1981م في الولايات المتحدة الأمريكية على الساحل الغربي، منها، عندما دخل لوطيان المستـشفى، وتبين للأطباء أنهما فقدا المناعة المكتسبة، التي خلقها الله لدى الإنسان، لتدافع عنه، وتدرأ عنه الأمـراض، وصـدق قول الله فيهم ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[سورة الحشر:19]. ينظر: شبيب، محمـد نجاح: **الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط**. 1مج. دمشق: دار الفكر. 1996م. ص235. لم تذكر الطبعة.

المبحث الخامس

الاستكبار والطغيان وغرور القوة

مما لا شك فيه، أن القوةَ رمزٌ من رموز ازدهار الحضارة، وهي مطلب من مطالبها أيضاً، فالحضارة القوية هي التي تستطيع أن تحمي نفسها من العـوادي، وأن تبـسط عباءتهـا يمينـاً ويساراً. ولا يخامرني شك أن القوة مبعثٌ من بواعث الطغيان، والاستكبار أيـضاً؛ إذا افتقـدت الحضارة تصوراً يقوم قوتها، ويهدي مسيرتها.

لقد أشرتُ بوضوح في مقومات الحضارة إلى أن قوة النظام السياسي في الحضارة عامل من عوامل نهوضها، وسبب من أسباب سعادتها. وحينما أتحدث هنا عن عوامل انهيار الحـضارة، فإن القوة أحد هذه العوامل الرئيسة، أيضاً.

لقد حدثنا القرآن الكريم حديثا مطولاً رائعاً عن حضارات بـادت خـضراؤها، واستؤصـل وجودها من الحياة؛ بسبب اعتدادها بقوتها، لدرجة الغرور، واستكبرت استكباراً؛ فلاقت حتفهـا بقوة بأسها الطاغية، واستكبارها، فضعفها، وانهيارها؛ تمثّل فـي قوتهـا الطاغيـة المـستكبرة المغرورة.

فالقوة ما لم تهتدِ بهدى الإيمان بالله ﷻ؛ فإنها تتحول إلى طغيان واستكبار؛ يشقي الحضارة؛ وينزل السخط حيثما حلّ ظلّها، أو هطلتْ سحابتُها السوداء الداكنة.

والتجربة الحضارية في التاريخ البشري، بعد طوفان قوم نوح ﷺ، تـسربت إليهـا عوامـل الانهيار من القوة الطاغية المستكبرة. وأول قوم بنوا حضارةً جديدة استأنفت ضخّ الحيـاة فـي عروق الحضارة؛ هم قوم عاد. فقال ﷻ بعد قصة قوم نوح ﷺ يحكي عن قوم عـاد ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ ﴾ [سورة المؤمنون:31].

وقوم عاد، اجتمعت فيهم صفات جديرة بأمة ستعمر حياة جديدة لبني البشر، وتقـوم علـى كاهلهم، مهمة صعبة، بعد تجربة الطوفان الذي ابتلعت أمواجه الحياة، ودمرت مرافقها. فقال الله ﷻ:﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ

تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف:69]. فقوله تعالى:﴿ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜطَةٗ ﴾ يدلّ دلالة واضحة على أن أجسام هؤلاء القوم، فاقت العادة في جسم البشر الطبيعي، سواء من حيث الخَلْقُ، أو من حيث مدلولُ هذا الخلْق على القوة، بكل أشكالها العضلية، وغيرها، بدليل الآية الكريمة،﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:26]. وأصرح من ذلك كله، قوله تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾[سورة الفجر:6-8]. "فمعنى ذلك أنها كانت حضارةً أقوى وأعظم من حضارة قدماء المصريين"[(1)]. وقدماء المصريين شادوا حضارة قوية، وبنوا الأهرامات التي تدل على مدى قوتهم.

وحضارة عاد، تعد مثلاً للحضارة المزدهرة القوية الباهرة؛ فأوتيت أسباب الحياة؛ وازدهرت بها السهول، والجبال، والهضاب، والتلال. قال ﷺ:﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:128- 129]. والريع:"المكان المرتفع"[(2)]. ومدهم الله ﷻ بنعم كثيرة؛ تعيد للحياة سيرتها، فقال ﷺ:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[سورة الشعراء:131-133].

فالنعم العميمة، والخيرات الوفيرة، والأجسام القوية، التي تمتّعت جسداً، وسمعاً وأبصاراً، وأفئدةً؛ استقبلتها عاد بكفر النّعمة؛ فما شكرت خالقها رب العالمين. بل انتفشت كبرياء، وعنجهية، وتطاولت على الخَلْق، بما رفُلت به من نعم، ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة فصلت:15].

والقوة تحولت إلى طغيان، وبطش، وعدوان، وظلم، مما استدعى شكوى نبيهم هود ﷺ ، كما حدث القرآن:﴿ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾[سورة الشعراء:130-131].

---

(1) الشعراوي: **قصص الأنبياء**. ج1ص392.

(2) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص235.

والبطش:" أخذ الشيء بقهر، وغلبة، وقوة"[1]. وحاول هود ﷺ أن يعيد قومه إلى جادة الصواب، ويجعل قوتهم الشديدة تنساق، وتخضع لهدى الوحي؛ فتكون قوة نافعة، لا بطش فيها ولا استكبار. قال ﷻ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾[سورة هود:52-53]. ولكن قوم عاد المستبدين بقوتهم، والذين استكبرت نفوسهم، وملئت طغياناً، استخفوا بقول نبيهم، وعدوا قوله سفاهة من الرأي ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧﴾[سورة الأعراف:66-67].

لم تعتبر عاد بمن سبقها من الأمم، ولم تتّعظ بالحضارات السالفة، ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ۝١٣٦﴾ [سورة الشعراء:136]، وسرعان ما أنستها النّعم أمواج الطوفان العارم الذي دمر قوم نوح؛ فعتَتْ عن أمر ربها. وهكذا المستكبرون في كل آنٍ، يقتلهم الغرور الزائف؛ ويحسبون أنهم ملكوا ناصيةَ الحياة، فهي مِلْك بنانهم، ورهن إشارتهم؛ فيخبطون خبط عشواء، وينسون قوة الله الخالق ﷻ، ويستعلون على الخلق، ويطمس الغرور أعينَهم، وتعمى الأبصار والبصائر؛ فلجوا لجوج الطغاة المستبدين؛ فلم تَعد الأرض قادرة على حمل وطأة كبريائهم؛ فتتأهب لإذن ربها بابتلاعهم في بطنها، والكون كله ينظر إليهم نظرة ازدراء، ويتحفّز لأن ينقض عليهم؛ فيمزقهم كلّ ممزق، ويفتّت حضارتَهم بِدداً في المعمورة؛ عسى أن تكون عِظة في أُفول الحضارة؛ فيستوعب بناة الحضارة، أن القوة وحدها، ليست مقوماً من مقومتها، وحينما تصل الحضارة إلى قمة الطغيان، والاستبداد؛ فإنّها ستصل حينئذ إلى أعلى القمة التي ستهوي منها إلى منحدرات الهلاك، وتنهار مرة واحدة.

وحضارة عاد، اعتادت على الرغد السعيد، حتى عندما أقبلت ملامح الغضب القادم، ظنّته من جملة الرغد الذي اعتادته،﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤﴾[سورة الأحقاف:24].

(1) ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج1ص262.

فالريح الذي كان يحمل خيرات السماء؛ فيرسل السحاب مدراراً، تصب النعم صباً مـن الله ﷻ؛ فتتلقّاها حضارة عاد بالكفر، والطغيان، والاستكبار، آن لتلك الرياح أن تفلت مـن عِقالهـا، لكن هذه المرة مزمجرة بالسخط، مدمرة بالغضب، تحمل الـنّحس، والـشؤم، بعـدما حملـت المبشراتِ، والبشائر.﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ ﴾[سورة الحاقـة:6]. فالريح الـصرصر تشد كل ما فيها، والصر، "يرجع إلى الشد"[(1)]. ولبيان الحقيقة التي حجبتهـا قـوتهم المـستكبرة الطاغية؛ أوضح لهم نبيهم هود ﷺ، تلك الحقيقة القادمة التي أوشكت أن تقتلع جذورهم،﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ ﴾ [سورة الأعراف:71]. والرجس يعني:"العذاب"[(2)]. فبـدأ العـذاب بيومٍ مشهود،﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ ﴾ [(3)] [سورة القمر:19-20].

وليت اليوم انتهى إلى هذا الحد، فالغضب القادم لم يأخذ ثأره من هذه الحـضارة الطاغيـة المستبدة، في يوم واحد، ولم يشفِ غيظ المقهورين المستضعفين من بطـشها الأرعـن، فامتـد العذاب والهلاك، تدميراً سبع ليال، وثمانية أيام نحسات حـسوماً، فقـال ﷻ:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا [(4)] فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ [(5)] خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ ﴾[سـورة الحاقـة:6-8]. ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١

---

(1) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**. ص312.

(2) ابن منظور: **لسان العرب**. ج6ص95. مادة رجس.

(3) في هذه السورة، وردت ﴿ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ ، وفي سورة الحاقة ﴿ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ . قال الرماني(ت386هـ) عن الآية الأولى: "هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما، وإهلاكهما إياهمـا" وفي الآية الثانية قال:"وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الأجساد مـن الأرواح" ينظر: الرماني: **النكت في إعجاز القرآن**. ص83 ،84. وقال الدكتور فضل عباس: " تشبيه الناس، وقد اقتلعت الـريح رؤوسهم عن أجسادهم، ليس من الأمور المعروفة بين الناس، فاختار القرآن الكريم مشبها به ألفوه كثيراً فـي بيئـتهم الطبيعية، فكم من ريح اقتلعت الأشجار من جذورها، وهذا منظر ليس غريباً عن الإنسان في كلّ زمان ومكـان. أمـا الآية الأخرى فإن المراد منها خلو هذه الأعجاز من الحركة والحياة، وهذا أمر مركوز في فطر الناس". ينظر: عباس، د.فضل حسن: **إعجاز القرآن الكريم**. 1مج. عمان: دار الفرقان. 1991م. ص18. بلا طبعة.

(1) الحسم: إزالة الشيء، يقال: قطعه، فحسمه، وسمي السيف حساماً. وقيل للشؤم المزيل الأثر منه ناله حـسوم. ينظـر: الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص133.

(2) قال الدكتور صلاح الخالدي عن "نخل منقعر" في سور القمر: "كان منظوراً إلى مجموع النخل". وعن "نخل خاويـة: "كان منظوراً فيها إلى أفراد النخل" ينظر: الخالدي، د.صلاح: **البيان في إعجاز القرآن**. 1مج. ط3. عمان: دار عمار. 1413هـ/1992م. ص40. ورد عليه د.فضل عباس، عاداً المسألة من مسائل النحو بقوله: "النخل يـذكّر، ويؤنّـث،

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾[سورة القمر:21-22]. فهل ادكرت الحضارة المادية اليـوم، بشقيها الأمريكي، والأوروبي؛ فارعوت عن طاغوتيتها، واستكبارها، وغرورهـا اللامتنـاهي، واحتقارها للإنسان، والبشرية؟

ويستمر العرض القرآني للحضارات المستكبرة الطاغية المغرورة بقوتها، وسطوة سلطانها؛ فيعرض القرآن الكريم في مقطع قصير عدة مشاهد، لحضارات صريعة قوتها، وقتيلة طغيانهـا، تسلسلت جميعها في عِقد الطغيان، والاستبداد، والفساد، فقـال ﷻ:﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر:6-15].

والحضارة الفرعونية، التي انتسبت لأطغى طغاة الأرض فرعون، كانـت نموذجـاً للكِبـر والطغيان، والغرور المجنون، فتلاطمتْ بين موج البحر القاتل، وتركها جدثاً، يطفو على الميـاه الغاضبة، عِبرةً للمعتبرين.

وفرعون الطاغية، انتفشّ زهوه، واستكبر طغيانه؛ فادعى الربوبية على الخَلْق المستضعفين، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾[سورة النازعـات:24]. وفي حضور عام، تعالى فرعون باسـتكباره،﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [سورة القصص:38].

لقد فاق طغيان فرعون الحد، وتجاوز ما تحتمله النّفس؛ فأرسل اللهُ ﷻ إليه موسى ﷺ. قـال ﷻ: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾ [سورة طه:24]. وأسرف في العلو، والعتو،﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ

وصف التذكير في سورة القمر، ووصف التأنيث في سورة الحاقة. والآيتان بذلك سواء، فلم ينظر إلى المجمـوع فـي سورة القمر، ولا إلى الإفراد في سورة الحاقة، فاللفظ واحد في السورتين" ينظر: عبـاس: **إعجـاز القـرآن الكـريم**. ص17. قلتُ: ما حكاه الدكتور الخالدي ليس بعيداً، وهو مسبوق بهذا القول. فقد قاله: الأصفهاني ت503هـ . قـال: "النّخل معروف، وقد يستعمل في الواحد والجمع، قال الله تعالى:﴿ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ وقـال: ﴿ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾". ينظـر: الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص540. أما قصة التذكير والتأنيث، فصحيح أن النخل يذكّر ويؤنث، ولكن ليس ذلك في العربية قاطبة. قال ابن منظور: "فأهل الحجاز يؤنثون النّخل، وفي التنزيـل العزيـز﴿ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾[سورة الرحمن:11]. وأهل نجد يذكّرون" ينظر: ابن منظور: **لسان العـرب**. ج11. ص652. مـادة نخـل. فأحببتُ أن أوضح ما تناقش فيه الشيخان، وأجلو محلّ الجدال، بالدليل والبرهان.

فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[سورة يونس:83]. وقُبح العلو، والاستكبار، اتصفت بهما تلك الحضارة الغابرة، فقال ﷻ:﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[سورة المؤمنون:45-46]. وقال ﷻ:﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[سورة القصص:39].

وهذا المستكبر الطاغي، وقع في تناقض مع نفسه؛ وهو التناقض الذي يكشف حقيقة المستكبرين، وخواء نفوسهم؛ وذلك واضح من رده على دعوة موسى، وهارون عليهما السلام،﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[سورة المؤمنون:47]. فهو يقر ببشريته، ولم ينس الاستكبار، وهو يعير النبيين بعبودية قومهما بني إسرائيل، له.

وفرعون الطاغية المستكبر، ليس في يده سوى السيف، والقيد، والسجن، يهدد بها كلّ من خالف أمره، أو خرج عن طاعته، وهو على أأس حضارة مستبدة، فقال لموسى ﷺ ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[سورة الشعراء:29]. وتلطّخت يداه بدماء الأبرياء، وكان رمزاً لقاتلي الطفولة.

وكشفَ القرآن الكريم، عن أفعال آل فرعون الإجرامية، في معرض المن على بني إسرائيل، فقال ﷻ: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[سورة البقرة:49].

وكان فرعون مستكبراً مستبداً، يحكم كلّ صغيرة، وكبيرة، بأمره، فعندما انبلج فجر الحقّ أمام السحرة الذين أتى بهم لمحاجة موسى ﷺ، اعترض اعتراض المتكبر المتعالي﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة الأعراف:-123-124].

وفرعون الطاغية المستكبر، تعامل مع البشر كما تعامل مع الجماد؛ من حيث المِلْكيةُ، فهو يعد نفسه يملك مصر، كما يملك أهلها؛ فيريد أن يتحكّم كما يشاء بهما جميعاً،﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة الزخرف:51].

أما نظرته للبشر؛ فهي نظرة استعلاء، وتطاول، وعلو؛ فهو صاحب القرار في لقمة الخبز، ومالك الأرض، وهو صاحب القرار في فكر وعقيدة قومه،﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ

﴿أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [سورة غافر:29]. وهذه النظرة تطابق تماماً ما عليـه قـادة الحـضارة المادية المعاصرة، كما سنرى.

والموقف الفرعوني الاستكباري له دوافع منهـا، مـا صـرح القـرآن بـه، مـن قولـه تعالى:﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾[سورة الزخرف:54]. ثم علّق القرآن علـى هذا الاختيار والإقرار ممن ساروا في ركاب فرعون،﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾[سـورة طـه:79]. وقـال ﷻ:﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ [ســــورة هود:97-99].

وأرسل الله ﷻ النّذر تترى إلى تلك الحضارة المستكبرة، ولم تنتفع بها(1)، إلى أن كانت النهاية المتوافقة مع سنن الله ﷻ في الحضارات المستكبرة، وهي سنّة لا تتبدل، فقصم الله ﷻ تلك الحضارة. وفي مشهد جمع بين النّعم التي تنعموا بها، والعاقبة التي آلت إليه، قال ﷻ: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ [سورة الدخان:24-29].

ولما حانت ساعة النهاية، واقترب الوعد الحقّ في تحطيم صنمِ الاستكبار، قال الله ﷻ: ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾[سورة القصص:40].

وسجل القرآن الكريم، نهاية رأس الطغيان، والاستكبار، وفضح ضعفَه، وجبروتَه المزيـف، وألوهيتَه المدعاة، فقال الله ﷻ: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾[سورة يونس:90-92].

(1) ينظر: **سورة الأعراف**: الآيات 130-135.

ومن العجيب، أن هناك من يبجل حضارة الفراعنة، ويتغنى بالأهرامات مـدافن الفراعنـة، ويمجد بناءها، ولا أدري كيف تمجد تلك المدافن على أنها إنجاز حضاري، وهي دليـل سـاطع على عبودية الشعب، واستعباد الفراعنة لهم؛ فأذلوهم؛ لتشييد مدافنهم.

ويحلو لي أن أنقل بعض أبيات من الشعر للشاعر خليل مطران الملقّب "شاعر القطرين" من قصيدة كانت أصدق وصف، لذلك الإنجاز الحضاري، الذي أذاق المصريين عـذابات المعانـاة، والموت، فلا أدري كيف يتباهى بالذّل، وهل العبودية مظهر حضاري؟

شـــاد فـــأعلى، وبنــى فوطّـــدا	لا للعـــلا، ولا لـــه، بــلْ للعِـــدى
مـــستعبِدٌ أمتَـــه فـــي يومِـــهِ	مـــستعبِدٌ بنيـــهِ للعـــادي غَـــدا
إنّـــي أرى عـــد الرمـــال ههنـــا	خَلائِقـــاً تَكْثُـــر أن تُعـــددا
صـــفْر الوجـــوهِ بَادِيـــاً جِبـــاههم	كَـــالْكلأِ اليـــابِس يعلُـــوه النَّـــدى
محنيـــةً ظهـــورهم، خُـــرس الخُطـــى	كالنّمـــل دب مـــستكيناً مخْلِـــدا
أكُـــل هـــذي الأنفُـــس الهلْكـــى غَـــداً	تَبنِـــي لِفَـــانٍ جـــدثاً مخلـــدا؟
قُومـوا انْظُـروا الـسّوقةَ فيمـا حـولكم	تَـدوس هامـاتِ الملـوكِ همـدا[1].

ومن تلك الحضارة الطاغية نموذج آخر، اعتد بطغيان المال، ونفوذه، وسلطانه في الحيـاة. ومثّل هذا النموذج قارون، وهو ثري طغاه المال؛ فاستكبر به على الخلق؛ فعتا بهـذا الطغيـان، فكان ثالثَ ثلاثة قامت على سوئهم الحضارة الفرعونيـة،﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [سورة العنكبـوت:39]. وكان قارون باغياً مستبداً، يتحكّم بالناس بأمواله، ويغذي سطوة فرعون بكنوزه، وكأنه خزينـة الدولـة،﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [سورة القـصص76]. "ولم يذكر القرآن فيم كان البغي، فربما بغى عليهم باغتصاب أموالهم، وأراضيهم، كما يفعل طغاة المـال، وربمـا كـان البغـي

(1) مطران، خليل: **ديوان الخليل**. 3مج. ط1. بيروت: دار مارون عبود. 1975م. ج1ص460. عنوان القصيدة الأهرام.

بحرمان حق الفقراء، والمساكين، وعلى كل حال، لقد أبطرته النّعمة؛ حتى طمست نور بصيرته؛ وهذا سبب البغي، والعدوان"[(1)].

ومن استكبار هذا الطاغي، إنكاره للمنْعِم عليه بالنّعم الكثيرة، وهو الله ﷻ، ففي معرض الجحود، والكفران، قال قولته:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾[سورة القصص:78]. "تعجب، وتوبيخ على اغتراره بقوته، وكثرة ماله"[(2)].

ومعنى ﴿ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ "أي لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾[سورة الجاثية:35]. ﴿ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾[سورة فصلت:24]. وإنما يسألون سؤال تقريع، وتوبيخ كما في قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ ﴾[سورة الحجر:92]"[(3)].

وحينما يبلغ الاستكبار مبلغه، ولا راد له من قدرة البشر، لم يبق إلاّ قدرة الله تتجلى بعظمتها؛ لتنهي فصلاً من المأساة البشرية، وتخضع الرؤوس المستكبرة، لسنّة الله في أخذها، وتدميرها، ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ ﴾[سورة القص:81]. "ولو كان المال أو القوة يدلان على فضيلة، لما أهلكهم الله"[(4)].

وتستمر قافلة الحضارات، تتراءى وكأنها مشاهد حية يرسمها القرآن الكريم للحضارة الوارثة؛ كي لا تقع في خطأ من أخطاء الحضارات الهالكة، فقال ﷻ:﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾[سورة الروم:9]. فمهما بلغت قوة الحضارة، فلا يعني ذلك أنها ستعجز الله الجبار القوي المتعال، ﷻ،﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤ ﴾ [سورة فاطر:44].

---

(1) الصابوني، محمد علي: **قبس من نور القرآن الكريم**. 16مج. ط1. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. 1418هـ/1997م. ج9ص244.

(2) البيضاوي: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. ج4ص304.

(3) الشوكاني: **فتح القدير**. ج4ص187.

(1) المصدر السابق: ج4ص187.

والحضارة التي تظن أن قوتَها، دِرع حماية، وتُرسٌ يقيها سيوفَ القدر؛ هي حضارة واهمـة أيضاً، فقـال ﷻ:﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾ [سورة غافر:21].

والحضارة التي تحسب أن إنجازاتها المادية، هي رصيدها في دفع الخطـر المـاحق الـذي ينتظرها، بسبب طغيانها، هي حضارة تعيش في أوهام مكتسبات قوتها، أو هي كالنّعامة، ولكنها غرزت رأسها في طيش جبروتها؛ عسى ألاّ ترى مستقبلاً موشّحاً بالسواد، فلم تـدرك الـدرس الحضاري البليـغ،﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ ﴾ [سورة غافر:82].

وأما الحضارات التي استهوتها القوة، وبريق السيف، فغطى وهجه عينيها، فلم تَعـد تـرى سوى قوتها، وتصر على الاستكبار، فإن صحائف الكتاب المجيد ما زالت تَهدِلُ تـارةً، وتُدمـدم أخرى بعِبر الـسابقين،﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ ﴾ [سورة محمد:13].

لقد مضت سنّة ﷲ تعالى النافذة؛ أن العلو، والاستكبار، والطغيان، والاستبداد؛ هـي طـرق قصيرة، لإبادة الحضارة، وتسريع زوالها، وتسارع بها للوصول إلى النهاية الوخيمـة، وتعجـل بالقارئ؛ ليصل إلى الصفحة الأخيرة، والفصل الأخير منها، فقـال ﷻ:﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [سورة القصص:83].

المبحث السادس

الفساد الاقتصادي

ذكرتُ الاقتصاد المزدهر مقوماً من مقومات الحضارة، وعموداً من أعمدتها؛ تُبنى به لبناتها، حجراً حجراً. وفي الوقت نفسه، يعد فساد الاقتصاد، هادماً للحضارة؛ ينقض لِبَنَاتها لِبَنَةً لِبَنَةً. ويهوي بها إلى مراقدها الأبدية!

وحينما نتدبر النص القرآني الذي يعالج دور الاقتصاد في المسألة الحضارية؛ فإننا نرى عمقاً، وغوصاً في المعاني، يتجاوز مرحلة التفصيلات الجزئية في عالم الاقتصاد، مع أنه يذكرها، ولا يهملها، بيد أنه يركّز الحديث، ويبلوره على محور الأصول العامة، والقواعد الرئيسة في مقومات الحضارة.

والكتاب العزيز الذي نزل به الوحي الأمين جبريل عليه السلام، على قلب نبينا محمد ﷺ، ما ترك شاردة، ولا واردة؛ تساهم في إشراق الحضارة؛ أو في بيان عوامل أفول شمسها، إلاّ وذكرها، بنص صريح بليغ مبين.

فقد قص علينا القرآن الكريم من خبر الحضارات الغابرة، حضارة "مدين"(1). وأرسل الله ﷻ نبياً لهم، هو شعيب ﷺ، فقال الله ﷻ:﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ [سورة الأعراف:85].

وامتازت هذه الحضارة بميزات نَبعتْ من كفرها، وتصورها الخاطئ، وميزتها في فسادها الاقتصادي، وممارساتها الشوهاء في باب المعاملات الاقتصادية، فقال ﷻ:﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾[سورة هود:84-86].

---

(1) يقال: مدين تقع بالقرب من تبوك. ينظر: الحموي: **معجم البلدان**. ج5ص77.

فهذه حضارة أراد شعيب ﷺ أن يشيد بناءها على الإيمان بالله ﷻ، وعبادته، وأن يرفع قواعدها، على التصور الاعتقادي الصحيح. ثم بين لقومه أن شجرة التوحيد، يتفرع منها منهاج حياةٍ ينظّم شؤونَها في شتى المناحي، فعبادة الله ﷻ، ليست في زاوية التبتّل الفردي، بل هي عبادة ساجدة في الاقتصاد، والاجتماع، والخُلُق، والسياسة، وفي كل شيء. وأكّد شعيب ﷺ ذلك؛ بأن نفى الألوهية عن أي إله يشرك مع الله تعالى في حياة الإنسان، أو في تسيير حضارته الراشدة، ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.

واستهل شعيب ﷺ دعوته بعد توحيد الله ﷻ، بالبدء بالاقتصاد، الذي رأى الانحراف فيه فتحاً لبابٍ الفساد، الذي إذا فُتح على حضارة؛ فإنه يجرفها؛ ويقتلع قواعدها، مهما كانت عظيمة﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [سورة الشعراء:181-183].

والوفاء بالكيل، والوزن بالقسطاس المستقيم، له دلالة اجتماعية في البناء الحضاري، يعني استقامة وعدلاً في مرافق الحياة جميعها، و"تنشر العدل السلوكي بين الناس"[(1)].

فالانحراف الاقتصادي فساد، وهو يصل إلى العيثِ في الأرض فساداً. وكلمة العيث لوحدها "تدل على الفساد"[(2)].

ونَصح شعيب ﷺ قومه، قال الله ﷻ: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، وبقيت الله: في تفسيرها أقوال:" أحدها: ما أبقى الله لكم الحلال بعد إيفاء الكيل، والوزن، خير من البخس"[(3)].

---

(1) الشعراوي، محمد متولي: **تفسير الشعراوي**. 9مج. أخبار اليوم. ج7ص4236. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ، ولا بلد النشر.

(2) ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**. ج4ص230.

(3) ابن الجوزي: **زاد المسير**. ج4ص148. وبقية الأقوال، هي: "الثاني: رزق الله خير لكم روى عن ابن عباس أيضا وبه قال سفيان. والثالث: طاعة الله خير لكم قاله مجاهد والزجاج. والرابع: حظكم من الله خير لكم قاله قتادة. والخامس: رحمة الله خير لكم قال ابن زيد. والسادس: وصية الله خير لكم قاله الربيع. والسابع: ثواب الله في الآخرة خير لكم. قال مقاتل: والثامن: مراقبة الله خير لكم ذكره الفراء" ينظر: **زاد المسير**. ج4ص149.

والاقتصاد فرع، من فروع عظيمة، بسقت من دوحة العقيدة، واعتركت تلـك العقيـدة فـي الحياة؛ لتبني حضارة الإنسان؛ ليعيش سعيداً في دنياه، ثم تحمله على أكفّها؛ للفوز بالجنـة فـي الآخرة.

وأيما اقتصاد اخترعه البشر، وند عن التصور الاعتقادي الصحيح؛ فهو اقتصاد شرود فـي تيه الفساد؛ يؤْثِر مصالح ضيقة على مصلحة العامة؛ وينشئ امبراطورية المال، تتقلب في نِعمها فئة، وتُحرم خيراتها فئات.

والاقتصاد إن ساءت سياسته، وانحرفت مبادئه؛ فإنه يزرع الكراهية في جـدار الحـضارة، الذي سرعان ما ينهار تحت وطأته؛ فيهدم الحضارة.

لقد وعتْ حضارةُ "مدين" رسالةَ شعيب ﷺ، ولكنها لم تستوعبها؛ فدارت بها الأرض دورتَها، لما طاب منها أن تُذعِن اقتصادها لمقتضيات الإيمان بالله، والتصور الاعتقادي الصحيح.

وفي حومة الجدل المثير بين باني حضارة الرشاد، وبين قوم اسـتمرؤوا فـساد الاقتـصاد وانحرافه، وأصروا على مكاسبه في حضارتهم. سجل القرآن الكريم هذا الجدال،﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ ﴾[سورة هود:87].

فهذا هو أصل المسألة، أن مرد الاقتصاد إلى المنهج الرباني، كما الـصلاة، والـصلاة عبـادة، ضمن سلسلة رائعة من العبادات يتبتّل بها المرء إلى ربه ﷻ؛ فيغمر نورهـا الحيـاة، وليـست شعائر تؤدى، وتترك في المحراب، ويخرج المصلي مخلّفاً لها، ولأثرها هناك.

وقوله تعالى:﴿ أَصَلَوٰتُكَ ﴾، فهذا استفهام، وهو "للإنكار عليه، والاستهزاء به"[1]. فهم ينكـرون التصور الاعتقادي الصحيح، وهذا أس البلاء، في الحضارات الهالكة. أنها انفصمت من التصور الاعتقادي الصحيح، وبالتالي؛ فهي تستهجن، وتستهزئ أن يكون للاقتصاد وشيجةٌ بالإيمان بـالله ﷻ.

(1) الشوكاني: **فتح القدير**. ج2ص519.

ورسول الحضارة الربانية يبذل وسعه في تبصير قومه، أن رغد الاقتصاد ليس هو محل الجدل، ولا موضع النقاش، إنما هو منهجهم الفاسد المتعطش للإصلاح؛ فخلّد القرآن الكريم ذلك:﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[سورة هود:88].

وقوله تعالى:﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قيل:"أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين"(1). وقطع قولُ شعيب ﷺ كل قول قد يتسرب إليه شك في المقاصد، أو يظن به أنه باحث عن نصيب شخصي من عائدات الاقتصاد، وثماره، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

وحضارة "مدين" الصماء، أعماها نفعها الملوث، وكسبها الحرام، واقتصادها الفاسد؛ فاستمرأت لقمة الحرام، وأَلِفَتْ دنَس الاقتصاد؛ فحسمت موقفَها الغبي العجول، وأعلت لهجةَ الجدل، ووتيرةَ الخطاب، واقتربت المواقف من الحسم الذي لا بد منه بين النبي المصلح المقوم اعوجاج الحضارة، وبين قومه الذين ألفوا العوج، ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[سورة هود:91].

فلما أرخت تلك الحضارة سدائل الصمم على آذانها، وعمت أبصارها، لفظت كلماتها الأخيرة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[سورة الأعراف:88-90].

---

(1) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**. ج2ص456. وأرجح هذا القول. بل أقدم المراد بالرزق، رزق النبوة على الرزق الحلال. فشعيب ﷺ أراد أن يبين لهم أن الرزق ليس حقولاً مريعة، ولا ثماراً يانعة، فقط. فهناك رزق آخر، يغذي الأرواح، إنه الوحي المبين. والله أعلم بمراده.

لقد بلغت حضارة مدين من السفاهة، والجهل مبلغاً كبيراً، إذ طلبت التحدي بنزول العذاب، وهي لحظة من لحظات الغرور، تستعجل فيه القدر المخبوء،﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا [1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾[سورة الشعراء:187]. عندئذ، صار مصير حضارتهم على فوهة القدر؛ فأطلقت يداه؛ ليأخذ نصيبه من تلك الحضارة الجهول المفسدة، جزاء ما آثرت من اقتصادٍ دنسٍ، على الاقتصاد العفيف، ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾[سورة الأعراف:91-93].

"وهذا بيان مثير، ينشر في النفس مزيجاً من الخوف، والتحسر، والأسى لحال الكافرين الخاسرين من قوم شعيب، هؤلاء القوم الذين أقاموا في نعيم العيش الرخي، لكنهم طغوا، واستكبروا، وأبوا إلاّ الكفر، والفساد في الأرض؛ فأخذهم ﷻ نكال جحودهم، وعصيانهم شر أخذة"[2].

وأخيراً، غابت شمس حضارة مدين، غياباً أبدياً، بمفاهيمها العوجاء، وبفسادها الاقتصادي، النابع من تصور اعتقادي فاسد.

وهكذا يسير القرآن في عرض المشاهد الحضارية للأمة الوارثة، وللحضارة الوارثة؛ حتى لا تقع في منزلقات تلك الحضارات؛ ولتظل شامخة البنيان، قوية الأركان، ترنو إليها الأمم، وتهفو للانضواء تحت رايتها البشرية، وهي اليوم أحوج ما تكون لتصورها أصلاً، وفرعاً.

ويمضي القرآن الكريم في سيرة البناء الحضاري النظيف من فساد الاقتصاد، وتلوثه؛ فيحرم تحريماً واضحاً أكل المال بالباطل. فالكسب بالباطل؛ طريق إلى الفساد المدمر، وهذا التحريم يعد قاعدة رئيسة من قواعد الاقتصاد النظيف العفيف، فقال ﷻ:﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾[سورة البقرة:188].

---

(1) كِسفاً: جمع كِسفة وهي:القطعة من السحاب والقطن. والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبي، فادع ﷻ أن يسقط علينا كسفاً من السماء. ينظر: الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص482. الزمخشري: **الكشاف**. ص769.

(2) عبد العزيز، د.أمير: **التفسير الشامل للقرآن الكريم**. 6مج. ط1. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. 1420هـ/2000م. ج3ص1296.

ولم يقتصر بيان أسس الاقتصاد الآثم الذي يفتح أبواب العذاب على بيان القواعد العامة المحرمة. بل تعدى الأمر ذلك ببيان ألوان بعينها، هي من صميم الخراب، والدمار، وجاب الهلاك للحضارة، وإن رأت في ظاهر الأمر ازدهاراً. وأضرب مثلاً بجريمة الربا. فالربا جريمة فظيعة، قال ﷻ:﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ ﴾ [سورة البقرة:275-276]. فهذه صورة فظيعة، منفّرة، لآكلي الربا. فكيف إذا أقامت الحضارة نظامها الاقتصادي كله على أساس الربا؟ وسأبين خطر الربا على الحضارة في مبحث الحضارة المادية.

المبحث السابع

النزعة المادية الصرفة

الحضارة التي تطمح بالبقاء، وتريد الارتقاء بالإنسان؛ هي تلك الحضارة التي تتحكّم بنقطة التوازن، بين ظلمة الطين، وإشراقة النور. وهما اللتان منهما كان التكوين، والخلق الإنساني، ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[سورة ص:71-72].

والإغراق في المادة، وحاجات الجسد؛ يطمس الإنسان في ظلمات الطين، وتُطمس معه الحضارة، وتدفن تحت أنقاض التراب. والحضارة التي تريد من الإنسان أن يعلو بروحه إلى مقام الملائكة؛ ليكون مخلوقاً نورانياً؛ هي حضارة ستصطدم مع رغبات الجسد، ويعجز الإنسان معها، عن العروج في تلك المعارج. ولهذا رأينا، التوازن، صفة أصيلة، في الحضارة الحقّ.

والنزعةُ المادية البحتة، اعوجاجٌ في التصور، وفهمٌ طائش للحياة، وتعكس تدهوراً مميتاً في حياة الحضارة.

ولقد عرض القرآن الكريم، هذا التصور الأعوج في ثنايا الآيات الكريمة، وهو يتحدث عن الحضارات الهالكة المتدحرجة في وديان التصور الخاطئ للحياة. فالحضارة المادية، التي سادت في قوم عاد، حملت هذا الفهم القاصر، قال ﷻ:﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً(1) فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[سورة المؤمنون:35-41]. فظنوا أن الدنيا دار خلود،﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، وأنها "هي الغاية"(2)، فما تصوروا البعث بعد الحساب، ولا السؤال بعد العمل، وأثّر هذا التصور الأعوج، تأثيراً كبيراً على هذه الحضارة؛ فأصبحت حضارةَ بطش، وإغراق في

---

(1) الغثاء، "غثاء السيل، والقِدر، وهو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس، وزبد القِدر، ويضرب به المثل فيما يضيع ويذهب غير معتد به".الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. ص400.

(2) عباس: **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**. ص100.

الفساد، وأذى للمستضعفين، ومتعةٍ نَزِقَةٍ، وماديةٍ صِرفة، وغطّت ظلمةُ الطين شعاع حضارتِها، وجلَبَتْ تصوراتُها شروراً للبشرية؛ فأطاحت الصيحة بتاجها بين كثبان الرمال، في جنوب الجزيرة العربية.

ولئن كانت حضارة عاد، مثلاً في المادية المتعالية بمظاهر قوتها، وسوء تـصورها، فـإن الحضارة الفرعونية الهالكة، لا تقلّ ظلاماً في التصور عن تلك الحضارة البائدة، فـضرب لنـا القرآن الكريم، مثَلاً برُكْنٍ من أركان الحضارة الفرعونية، وهو قارون المخسوفُ المتجرجر في طبقات الأرض السفلى، والغائر عن وجه الحياة، فخرج بكامل الزينة المادية ظاناً أنه قـد بلـغ النهاية، وحقّق وجوده الإنساني، واكتملت فصول شخصيته، يتبختر في قومه، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾[سورة القـصص:79-81]. وعقّب النص القرآني على هذه المادية المغرقة، فقـال ﷻ:﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [سورة القصص:77].

فهذا هو توازن النظرة إلى الدنيا والآخرة. وبيان التصور الراشد للمادية، فالحضارة الرائدة، هي التي ترسم لأبنائها طريقاً ماتعاً، صالحاً في الدنيا، يكـون جـسراً تمـر بـه، إلـى نعـيم الآخرة،﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

أما الحضارة الغارقة في مادية الدنيا؛ فتحيى فيها، وتموت لها، ويفنى عمرهـا فـي ماديـة كثيفة، لا إشراق فيها، ولا شروق لها؛ فهي الحضارة العرجاء، أو كذاك الطائر، يعجزه الطيران بجناح واحد، فهو مهيض الجناح.

وكذلك الإنسان المادي إذا استنفرته أشواق الجنّة، شده الطين؛ فأخلد إلى الأرض، وإذا هبت رياح الجنّة؛ انزوى عنها بعيداً، متدثراً بحجب الدنيا الغليظة،﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ

لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[سورة التوبة:38].

والمادية مهلكةٌ إن كانت هي الأول، والآخر في تصور الحضارة، وهـي أغطيـةٌ سـوداء، تحجب رؤيةَ الحق، وتدفع إلى التطرف، والاغترار الجهول بنعيم هو من باب المتـع الـسريعة الذوبان، وكشف القرآن تداعيات هذه النظرة الخائبة، فقال ﷻ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[سـورة سبأ:34-35].

وكر الزمان بحضارات معجبةٍ بالمادية، ومتفنّنة بصنوفها، وزاهي ألوانها، ومـضى دولاب الحياةِ الصاخبة، بمثل تلك الحضاراتِ، فتمايلت سكرى، من كأس المتَع، وودعت الحياةَ بنظـرةِ إعجابٍ بفاتن زينتِها، فقال ﷻ: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ ﴾[سورة مـريم:74].

"عن ابن عباس: أحسن أثاثاً ورئياً. قال: الرئي المنظر، والأثاث المتـاع"(1). "وحـسن المنظـر يكون من جهة حسن اللباس، أو حسن الأبدان، وتنعمها، أو مجموع الأمرين"(2).

والقرآن الكريم عرض التصورات المادية الخائبة، لتلك الحـضارات، وحاججهـا، وأضـاء البرهان في الطريق، وصحح المفهوم الخاطئ، لمفاتِن المتع الدنيوية، وأجلى مظاهرها الماديـة، وندب القرآن حظ الجهلاء من العلم المغمور في نواحي المادية الضيقة، ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[سورة الروم:5-6].

ورسم القرآن الكريم الحد الفاصل، بين التطرف في النظرة المادية، والإفراط فيها؛ كـي لا تأسِر مباهج الحضارة، الإنسان، فقال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الحديد:20].

---

(1) الطبري: **جامع البيان**. ج16ص117.

(2) الشوكاني: **فتح القدير**. ج3ص347.

وحملة التزهيد بالمتع المادية، لا تعني حرمان الحضارة من مباهجها، فالحضارة فيها نعـيم مادي، وتؤدي إلى نعيم أخروي، والحياة المادية قسمة قسمها الله ﷻ بين الخَلْق، فكـلّ إنـسانٍ سيناله نصيبٌ منها، وكلّ حضارة ستأخذ حظها. والذي حذّر منه القرآن الكـريم، هـو التعثّـر بالمتاع، والخلود إلى دعَتِه، وأن تشكلَ الحياةُ المادية مفاهيم الحضارة، وترسم خطى سـلوكها، ومـستقبلها، فقـال ﷻ:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[سورة الإسراء:18-21].

عن عمرو بن عوف[(1)] ﷺ لما جاء مال البحرين، وسمعت الأنصار بقدومه إلى النبـي ﷺ "فوافوا صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فلما انصرف، تعرضوا له. فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: "أظنّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء قالوا: أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا، وأملوا ما يسركم. فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها؛ وتهلككم كما أهلكتهم"[(2)]. فالخشية من التوقف عنـد أسـوار الدنيا، ومن ثَم التدحرج في قيعانها، ووخيم مستنقعاتها؛ فتهلك الحضارة.

وعلى هذا المنحى، تُفهم أحاديث النبي ﷺ التي زهدت في الدنيا، وقلّلت شأنها."عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس كنفتـه فمر بجدي أسك[(3)] ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه. ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقـالوا: مـا

(1) عمرو بن عوف الأنصاري حليف بني عامر بن لؤي، شهد بدراً، وما بعدها. ومات في خلافة عمر ﷺ، وصلى عليه. ينظر: ابن حجر: **الإصابة**. ج4ص667.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الرقاق. باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيهـا. رقـم الحـديث3791. ج4 ص1473.

(3) أسك: تقال لمقطوع الأذنين، ولمن قصرت أذناه. ينظر: ابن الجزري: **النهاية في غريب الحديث والأثر**. ج4ص384. الخطابي، حمد بن محمد: **غريب الحديث**. 3 مـج. تحقيـق عبـد الكـريم العزبـاوي. مكـة المكرمـة: جامعـة أم القرى.1402هـ. ج2ص351. لم يذكر رقم الطبعة.

نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنّه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيـه؛ لأنّه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم"[1].

(1) مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الزهد والرقائق. رقم الحديث2957. ج4ص2272. لم يذكر اسم الباب.

الفصل الرابع

مستقبل التمكين للحضارة الإسلامية. وفيه أربعة مباحث.

المبحث الأول: علامات تدهور الحضارة المادية المعاصرة.

المبحث الثاني: الحضارة الإسلامية هدفها الإنسان وتستمر بحياته.

المبحث الثالث: البشائر الإيمانية في مستقبل التمكين.

المبحث الرابع: الحضارة الإسلامية وارثة الحضارات.

المبحث الأول

علامات تدهور الحضارة المادية المعاصرة

شغلتْ الحضارةُ المادية العالم اليوم[1]، وهي صاحبة النفوذ الأوسع في الأرض، وتمكّنت تلك الحضارة، من بسط نفوذها على رقعة اليابسة، ولجأت في ذلك إلى كلّ أساليب الترهيب، والترغيب. وشنّت حروباً مدمرة، ورغّبت شعوباً، وأمماً بشعارات براقة؛ بغية السيطرة عليها، وسلّطت سيفها القوي الصقيل على رقاب المستضعفين.

والحضارة المادية الغربية، لا يجادل اثنان بأنها ملكت أسباب القوة، وأن أساطيلها البحرية، والجوية، تضرب شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً في الأرض. كما أنّه لا يماري أحدٌ بأن هذه الحضارة قطعت أشواطاً بعيدة في ميادين العلم المادي، وبلغت شأواً عالياً في مخترعاتها الباهرة، وتربعت مركباتُها الفضائية على سطح القمر، وغزت غيره من الكواكب.

وأنّها تملك أكبر شبكة إعلامية في العالم، فتملك ترويج الخبر، وتعميمه كما تهوى، وتشتهي، وتصنع في هنيهات من الأخبار، والسياسات، والانقلابات في العالم وفق وجهة نظرها؛ فيصبح الأبيض أسود، والأسود أبيض. وأنها بلغت الذروة، في الاستهلاك الشهواني في جانب المتعة. حتى قال مفكرو هذه الحضارة: "إن السعي وراء الرخاء أصبح غاية الحياة"[2].

وأن أمريكا زعيمة هذه الحضارة، هي صاحبة النفوذ المطلق في سياسات الدول، وهذا برهان على قوتها، ولا أماري مطلقاً بأن هذه الحضارةَ شبحٌ يطارد كل شيء.

هذه منجزات للحضارة الغربية، يقر بها كل من درسها. وآمل ألاّ أكون قد نسيت شيئاً من قدرات هذه الحضارة الجارفة. والأهم من ذلك كله أن هذه الحضارة المادية هي الحكم الفصل

---

(1) هذا البحث يقصد به الحضارة الغربية المادية المعاصرة فقط، وليست الحضارة الغربية منذ التأسيس. "والتدهور الحضاري في أوروبا بدأ في العصور الوسطى عام(476م)، وامتدت العصور الوسطى حتى عصر النهضة الأوروبية الحديثة نحو عشرة قرون من الزمان. وقد سمي نصفها الأول: عصر الآباء. وكان عصر ظلام وجهالة وتخلف، وسميت القرون الخمس التالية: العصر المدرسي، حيث ظهرت فيها أول بارقة أمل للتحضر بإنشاء المدن". ينظر: علي، د.عصام الدين علي: **آفاق الحضارة الإسلامية والأوروبية**. 1مج. الاسكندرية: منشأة المعارف. ص439. بلا طبعة ولا تاريخ. والنهضة الأوروبية بدأت بما التقطه طلابهم من علماء المسلمين في الأندلس.

(2) بويس، ج.دي: **مستقبل الحضارة**. 1مج. ترجمة لمعى المعطي. القاهرة: دار الكرنك. 1961م. ص244. والمؤلف كتب كتابه ليرد على كتاب اشبنغلر في تدهور الحضارة الغربية.

في قضايا العالم من الألف إلى الياء، وهي مسئولة مسئولية تامة كاملة، عن كل ما يجري في العالم. وقدمت نفسها للعالم على أنها تتحمل مسؤوليته.

والسؤال الذي يطرح نفسه ماذا قدمت هذه الحضارة للبشرية من سعادة وإسعاد؟ وهل هي مؤتمنة على الإنسانية؟؟ أم هي مدمرة لها، تفني أرومتها؟ هناك أسئلة مثيرة للغاية تثار حول هذه الحضارة القاتلة للمعاني الإنسانية.

ولقد تعرضت هذه الحضارة لنقد لاذع من كبار المفكّرين والفلاسفة في منابتها، فالفيلسوف الألماني الشهير "اشبنغلر"، هو أشهر من نقد هذه الحضارة، قال: "فيا لضخامة ما يمكننا أن نعمل في نقد العالم الغربي توسيعاً وتعميماً"[(1)].

وهل الحضارة تقوم على القوة المرهبة الرهيبة فقط. وعلى التحكّم الكامل بمقدرات الشعوب، واقتصادهم، ولقمة عيشهم؟ وهل الحضارة تعد ذات قيمة إذا ما رفعت العلم مكاناً علياً؟ ولعل السؤال الأهم من ذلك كله، حضارة هذه بعض صفاتها، هل يعقل أن يتحدث عن تدهورها؟ وهل الحديث عن تدهورها، هو من باب المواساة للضحايا، والهدهدة على كواهل المستضعفين؟ أم هو ضربٌ من ضروب الخيال، ووهم من الأوهام[(2)]؟؟

والعلل التي تنخر جسد الحضارة أكثر من أن تحصى، فهي مليئة "بالأمراض الحضارية"[(3)]، والذي يجعلها تقف على رجليها، هي تلك القوة الرهيبة، والترسانة الحربية الهائلة التي من خلالها تنهب خيرات الأمم؛ لتعيش عليها.

---

(1) اشبنغلر: **تدهور الحضارة الغربية**. ج1ص75. وتحدث عن"انحطاط الحضارة الغربية الذي أخذ ينتشر في طول الأرض وعرضها". ص120. والمؤلف أكبر ناقد للحضارة المادية الغربية، وكتابه هذا أحدث زلزلة فكرية بين الكتّاب في الغرب.

(2) هذا المبحث الذي أسطر حروفه، أحوج ما يكون إلى الهدوء الذي يصعب، ويشق وجوده، على أي باحث تلظى سعير الحضارة الغربية، وكانت أمته إحدى الأمم الصريعة من حراب طغيانها. وفقَد وطنه الغالي، فردوس الدنيا، بسبب مؤامرات هذه الحضارة، والتي ما زالت تكرس العدوان وتحمي الظلم، وتنتحل له الأعذار، وهو ينحر الضحايا على مذبح تلك الحضارة المشئومة. التي سببت الآلام، وتباريح الظلم الساخط، في بقاع الأرض.

(1) مصطلح أمراض حضارية، ذكره د.عبد الحليم عويس. ينظر: عويس، د.عبد الحليم: **العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري**. 1مج. ط2. القاهرة: دار الصحوة الإسلامية. 1420هـ/1999م. ص99،93.

والنظرة إلى هذه الحضارة ستكون بناء على مقومات الحضارة، وعوامل أفولها، وأضعها في كفتي الميزان. ونظراً لكون هذه الحضارة استحوذت على كثيرين في العالم، ولتشعب الحديث عنها؛ فلن أستطيع الإلمام بكل جوانبها في هذا المبحث، وأكتفي بإلماعة عنها.

وقبل أن أعرض عوامل الانهيار في هذه الحضارة، أقدم بين يدي ذلك جملة آراء لكبار مفكّري، ومحللي الحضارة في الغرب، حول أفول حضارتهم المادية.

قال الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون، صاحب الكتابات المتعددة في الحضارات:" وجب علينا التسليم بأن علامات الانحطاط، أصبحت بادية في معظم الأمم الأوروبية، وعلى الأخص في الأمم المعبر عنها باللاتينية سواء جاءها هذا الوصف من حيثُ الأصلُ، أو من حيث التقاليد، والتربية"[1].

أما الفيلسوف الألماني "ألبرت اشفيتسر"، الحاصل على "جائزة نوبل" فقد نعى الحضارة المادية، فقال:" نحن نعيش اليوم في ظلّ انهيار الحضارة"[2].

ويصف اشفيتسر الحضارة المادية، فيقول: "وهكذا عبرنا وصيد[3] القرن العشرين، ونحن مخدوعون عن حقيقة أنفسنا خداعاً لم يبدده شيء. وكل ما كتب آنذاك عن حضارتنا كان يهدف إلى توكيد اعتقادنا بعلو قيمة هذه الحضارة... ومن الواضح إلى كل ذي عينين أن الحضارة بسبيل الانتحار. وما بقي منها لم يعد في أمان. إنها لا تزال قائمة؛ لأنها لم تتعرض للضغط المدمر الذي طغى على التبعية، لكنها كالبقية بنيت على شفا جرف هار، ومن المحتمل أن يجرفها أي انهيار جديد"[4].

---

(2) لوبون،: غوستاف: **سر تطور الأمم**. 1مج. ط2. ترجمة أحمد فتحي زغلول. القاهرة: المكتبة التجارية. ص177. بلا تاريخ. ولوبون كاتب معروف في تحليل الحضارات وله كتب عديدة في ذلك..

(3) اشفيتسر، ألبرت: **فلسفة الحضارة**. ترجمة د.عبد الرحمن بدوي. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة. ص11. بلا تاريخ، ولا طبعة. والكاتب حصل على جائزة نوبل. وهذا الكتاب جدير بالقراءة، ففيه تحليل عميق، وقاس للحضارة المادية الغربية.

([3]) الوصيد: هو فناء البيت والدار. ينظر: مجمع: **المعجم الوسيط**. ج2ص1048. ولعل المقصود ساحة القرن العشرين.

(1) اشفيتسر: **فلسفة الحضارة**. ص12.

وهذا الخوف من انهيار الحضارة الغربية، وأفول نجمها، هو قلق أرهـق تفكيـر المـؤرخ الإنجليزي "توينبي" صاحب المؤلفات الشهيرة في الحضارات، قال: "ولعل ملاك الموت سيـضع يده الباردة على حضارتنا كذلك"(1).

وقال: "إن خيرة القضاة يحتمل أن يعلنوا بأن عصر اضطرابات الحضارة الغربيـة قـد أنـاخ بكلكله(2) على الغربيين"(3).

وقال الدكتور "ألكسيس كاريل" الحاصل على جائزة نوبل: "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا؛ فقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية؛ إذ أنها تولـدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا"(4).

وإذا عدنا إلى المقوم الأول من مقومات الحضارة، وهو الإيمان بالله ﷻ، والتصور الصحيح للكون، والإنسان، والحياة؛ فإننا سنجد هذه الحضارة أبعد ما تكون عن الله تعـالى؛ فهـي منـذ بدايتها قامت على مخاصمة الكنيسة التي كانت تمثل العقيدة الدينية عندهم. كما أنهـا لا تحمـل تصوراً صحيحاً، عن الإنسان، والكون، والحياة.

أما الشّق المنهار، وهو الشيوعي؛ فهو لا يؤمن بالله ابتداء، وأما الشق الغربي، فهو لا يؤمن بالله في الحياة. وعلى أحسن حالاته، يقرأ الإنجيل تعويذات في الصلاة، أو لشحن العاطفة الدينية في خوض المعارك الجائرة ضد الإنسانية، ومن يعتقدون خصومتهم(5).

"فالمدنية الغربية، لا تجحد الله البتة، ولكنها لا ترى مجالاً، ولا فائدة لله في نظامها الفكـري الحالي"(1).

---

(2) توينبي ،آرنولد: **مختصر دراسة التاريخ**. 4مج. ط2. ترجمه فؤاد محمد شبل. القاهرة: الإدارة الثقافية بجامعة الـدول العربية. ج3ص427. حاول توينبي التلاعب بالألفاظ، واختيار الكلمات المؤثرة، ليواسي حضارته، بأنها قد تفلت مـن الانهيار، والتجأ إلى العناية الإلهية، وكأن العناية الإلهية يخفى عليها ظلم وإجرام هذه الحضارة.

(2) الكلكل: الصدر. ينظر: مجمع: **المعجم الوسيط**.ج2ص801.

(3) توينبي: **مختصر دراسة التاريخ**. ج3ص411.

(4) كاريل، د.ألكسيس: **الإنسان ذلك المجهول**. 1مج. تعريب شفيق أسعد فريد. بيروت: دار المعارف. 1974م. ص37. لم تذكر الطبعة. والمؤلف طبيب فرنسي.عمل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك. وحصل على جائزة نوبل.

(1) كما فعل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، جورج بوش، حينما شن الحرب على العراق، وسماها بالحروب الصليبية.

لقد أدركت فئة من المفكرين الغربيين أهمية الصلة بين الحضارة، والدين. قال لوبون:"أهم المبادئ المؤثرة في الحضارة المبادئ الدينية"(2). ولكن هذا القول لا أثر له في حضارتهم المادية.

ويقول لوبون عن الحضارات الساقطة: "فهي تهتز من الوهن، ونظاماتها تتداعى واحداً إثر واحد. وعلّة ذلك؛ فقدانها كلّ يوم شيئاً من إيمانها الذي قامت عليه. فإذا فقدته قامت حتماً حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد؛ لأن التاريخ يدلنا على أن الأمم لا تحيى طويلاً بعد اختفاء معبوداتها"(3).

والحضارة المادية، تهيم بلا دليل، وليس معها قبس هدايةٍ نورانية،﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[سورة الأنعام:122].

والفراغ الفكري العقائدي الذي تعيشه الحضارة المادية الغربية، حاول مفكّروهم أن يملئوه بالعودة إلى الفلسفة التي يخترعها الإنسان؛ عسى أن تقوم بهذه المهمة. والفيلسوف الأمريكي "وول ديورانت"، صاحب أشهر كتاب في الحضارة، وهو "قصة الحضارة"، يقول ناعياً حضارته المادية، باكياً أو متباكياً على العالم المصطلي من شقاء الحضارة المادية:"وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة؛ لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض. وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العِلم منّا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا، ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة؛ تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب. إننا نواجه مرة أخرى المشكلة التي أقلقت بال سقراط؛ نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحلّ محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى؛ حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد

---

(2) أسد، محمد: **الإسلام على مفترق الطرق**. 1مج. ط3. نقله إلى العربية. د.عمر فروخ. بيروت: دار العلم للملايين. 1951. ص37.

(3) لوبون: **سر تطور الأمم**. ص190.

(4) لوبون: **سر تطور الأمم**. ص162.

الأغراض، ونرتب سلّم الرغبات. إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية، ونلقي بأنفسنا فـي هـذا الانتحار الجماعي للحرب"(1).

والذي آسف له أن اشفيتسر، وول ديورانت، اتجها الاتجاه نفسه في البحث عن حـلّ علّـة الحضارة في الفلسفة، ظنّاً منهما أن الحل عندها. فقال: "إن العامل الحاسم في إحداث هذه النتيجة هو انصراف الفلسفة عن القيام بواجبها"(2).

فالفلسفة عنده هي التي تعطي التصور عن الأشياء، "تتضمن في داخلها تفلسفاً أوليـاً عـن الإنسان، والمجتمع، والجنس، والإنسانية، والحضارة"(3).

والمفكران المذكوران تاها في إيجاد الحل للعلّة؛ فهربا من الداء إلى الوبـاء، وصـدق الله تعالى:﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾[سورة تبارك:22].

وهؤلاء الفلاسفة، والمفكّرون الغربيون،" لا تزال الأكثرية تظن خطأً أن منبع تلك المفاسـد، والآلام هو في فروع تلك الشجرة الخبيثة، فلا يزالون يضيعون أوقاتهم، ومساعيهم في تـشذيب الفروع، ولكنهم لا يدركون أن الفساد كله في أصلها، وجذرها، وأن الأملَ في نشأة فرع صـالح من أصل فاسد حماقةٌ، وجنون"(4).

ويتّهم اشفيتسر الفلسفة؛ لقصورها في الجانب الحضاري، فيقول: "الحارس الذي كان عليه أن يظلّ ساهراً يقظاً في ساعة الخطر، كان هو نفسه نائماً"(5).

---

(1) ديورانت، ول: **مباهج الفلسفة**. 2مج. ط2. ترجمه د.أحمد فؤاد الإهواني. مصر: مكتبة الانجلو المصرية. بالتعـاون مع مؤسسة فرانكلينز. 1957م. ج1ص6-7. هذا الكتاب أنصح كل مثقف أن يقرأه، فهو مليئ بالنقد الهـام للحـضارة المادية، ومسلكها، الذي ندعى إلى تقليده.

(2) اشفيتسر: **فلسفة الحضارة**. ص13.

(3) اشفيتسر: **فلسفة الحضارة**.ص13. قلت: رد قسطنيطن زريق، مظاهر الحضارة إلى الدين والفلسفة، ورجح كفّة الدين في التأثير الحضاري على الجماعات. ينظر: زريق، قسطنطين: **في معركة الحضارة دراسة فـي ماهيـة الحـضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري**. 1مج. ط3. بيروت. دار العلم للملايين. 1977م. ص138.

(1) المودودي: **نحن والحضارة الغربية**. ص41.

(2) اشفيتسر: **فلسفة الحضارة**. ص19.

وهذا تيه حقيقي للحضارة المادية الغربية، وتيه لمفكّريها. فالنّور قريب منهم في الشرق الذي استعبدوه، وحاربوه، ولكنهم عمي البصر، والبصيرة،﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[سورة الأنعام:122].

وهذه الحضارة، فضلاً عن اعوجاج تصورها للحياة، على أنها فرصة المتعة؛ فهي تدفن أشواقها، تحت أرجل المتاع الزائل، ولا تنظر بعينيها إلى الحياة المزدهرة في جنّات النّعيم، لِمن آمن، وعمل صالحاً، ولا ترنو إلى دار الخلود، والبقاء،﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ (1) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[سورة النمل:66]. فأشقت نفسها بالرذائل، واستنفذت طاقتها في لذّة عارضة؛ فاستعبدتها الدنيا، وعبدتها بإخلاص منقطع النظير،﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[سورة الأحقاف:20].

ومما لا ريب فيه أن الحضارة المادية الغربية؛ امتازت بالتفوق العلمي الباهر، ولكن العلم دون تصور صحيح للإنسان، والكون، والحياة ليس كافياً لأن تكون الحضارة رشيدة. فالعِلم إذا لم يحط بعناية الدين القويم؛ يصبح وبالاً على الحضارة، ففي حوار سليمان ﷺ مع بلقيس ملكة سبأ، حول قدراتهما العلمية الفائقة، قال الله تعالى عن عِلْمِ سليمان ﷺ :﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[سورة النّمل:42]. فليست المسألة مسألة علمٍ فقط، فقَرن ما يقوم مسيرةَ العلم؛ وذلك بالإسلام،﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

يقول ديورانت :"إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل، ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكّر في ذلك، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة، إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة، ولن ننجو منها بغير الحكمة"(2).

---

(3) "ومعنى الآية:" بل تكامل علمهم في الآخرة، لأنهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه. وقيل: معناه تتابع علمهم في الآخرة. وقيل: كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة، وذلك حين لا ينفعهم العلم، لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين. وقال الزجاج: إنه على معنى الإنكار. واستدل على ذلك بقوله فيما بعد بل هم منها عمون أي لم يدرك علمهم علم الآخرة. وقيل: المعنى بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم". ينظر: الشوكاني: **فتح القدير**. ج4 ص.148.

(1) ديورانت: **مباهج الفلسفة**. ص7.

ويعلق المفكر الإسلامي مالك بن نبي رحمه الله على المنجزات العلمية للحضارة المادية الغربية، أنها: "ليس إلا من المكتسبات، لا من العناصر الأولية"[1] للحضارة.

كما أن المؤرخ البريطاني الشهير "توينبي"، والمعروف بتحليلاته للحضارات، قال عن انحطاط المستوى التكنولوجي: "لا يعتبر هذا الانحطاط علّة انهيار الحضارة"[2].

وفي عبارة صريحة يقول الفيلسوف الفرنسي لوبون:" ولست أعلم أن دولة واحدة سقطت؛ لانحطاط الذكاء في قومها"[3].

فالعلم الذي تتغنّى به الحضارة المادية الغربية ليس كافياً وحده، لحجب نُذر الزوال، وكسوفِ نجمها، تمهيداً للأفول. وما كان العلم وحده مقوماً ذاتياً يقي الحضارة عواصف الغروب العاتية. "وأهم التناقضات التي أوجدها التقدم العلمي، والتي تسفر عن أسئلة ملحة تحدد مصير الإنسان، والإنسانية، أن هذا التقدم الذي قام أساساً على الانسلاخ من الأخلاقيات، والتجرد عن القيم، قد طرح في صميم العلم مسألة أخلاقية، تتأدى في التساؤل عن القيم التي يتأسس عليها التقدم ويتم بها النماء، وعن سبيل ذلك"[4].

والاختراعات العلمية الزاخرة التي تحقّقت في عصر هذه الحضارة، لن تكون في خطر، في حال اندثار هذه الحضارة؛ لأن هذه الإنجازات هي ثمرة جهد حضاري مشترك، وليس جهداً منفرداً لها. "فالتقدم العلمي هو الرصيد الوحيد الذي سيسلمه الغرب للبشرية... ولن يقف العلم، أو ينهار، إذا انهارت في القريب، أو البعيد، حضارة الرجل الأبيض"[5].

---

(2) ابن نبي: **شروط النهضة**. ص89. لعله يريد من مكتسبات الحضارة. أما العلم فهو مقوم من مقومات الحضارة. كما ذكرت.

(3) توينبي: **مختصر دراسة التاريخ**. ج3ص429.

(4) لوبون: **سر تطور الأمم**. ص172-173.

(1) العشماوي، محمد سعيد: **حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني**. 1مج. ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني. 1974م. ص17.

(2) قطب، محمد: **التطور والثبات في حياة البشرية**. 1مج. القاهرة: مكتبة وهبة. ص292، 293. لم تذكر الطبعة، ولا التاريخ.

وإذا بحثنا عن العدل في الحضارة الغربية المادية، كمقوم من مقومات الحضارة الباقية؛ فلن نجد له أثراً يذكر، ولا خبراً ينشر، بل نجد صفحاتٍ سوداء داكنة، من الظلم الصارخ، وظلمـاتٍ بعضها فوق بعض متراكمة.

وإذا استقرأنا الظلم كمعول هدم في الحضارات؛ فنجد الحضارة المادية الغربية، راعية مـن رعاة الظلم، وسبباً من أسبابه في العالم، "وهو ما ترك الإنسانية في معاناة من مستجدات التـأزم الحضاري الشامل الذي كاد أن يفقد الإنسان أمله في النجاة"[1].

فهي حضارةُ اللصوص، وقطّاع الطرق، وهي قائمة على سرقة ثروات البلاد المستـضعفة، ونهب مواردها، ومص دمائها. قال الفيلسوف الفرنسي الكبير "روجيه جارودي": "أدت خمـسة قرونٍ من الاستعمار إلى نهب ثروات ثلاث قارات، وتدمير اقتصادياتها، وتكبيلها بالديون"[2].

---

(3) مدني: **أزمة الفكر الحديث ومبررات الحل الإسلامي**. ص108.

(4) جارودي، روجيه. **حفّارو القبور الحضارة التي تحفـر للإنـسانية قبرهـا**. 1مـج. ط1. القـاهرة: دار الـشروق. 1419هـ/1999م. ص37. والكاتب أسلم لاحقاً، بعدما كان رأساً من رؤوس مفكري الغرب، في فرنسا. والاقتبـاس من مبحث يتحدث عن الشمال والجنوب. ومصطلح الدول النامية، وهو جدير بالقراءة.

ويقول المفكّر الألماني اشبنغلر:" إن الاستعمار هو الرمز المميز لاحتضار المدنية (الغربية) وموتها،...قد بت الآن بمصير الغرب، بتّاً لا عودة عنه، أو تعديل"(1).

"وقد ارتبطت الحضارة الغربية منذ يومها الأول بالاستعمار ونفوذه الذي سيطر على العـالم الإسلامي كله، وحاول إخراجه من مقومات فكره، وعقيدته"(2).

فحضارتهم غدة سرطانية، تُذبل زهرةَ الحياة، وتخطفها من المستضعفين الذين تـئن الأرض معهم، وتبكي السماء حالهم، وتقشعر الجبال لمعاناتهم.

أما أهل تلك الحضارة فهم غِلاظ، قساة القلوب، بل لا قلوب لهم. أحيوا حضارة عـاد﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[سورة الشعراء:130].

والحضارة المادية، حضارة لعينة قاتلة مستكبرة،﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴾[سورة المؤمنون:46].

ووصل بها الإجرام إلى حد أنها تلقن الضحية تلقيناً، وهو مسربل بدمائه، أنّه قد حـرر، ونـال أسمى ما يريد من يدها المتغطرسة التي تقطر دماً من جراحه، وتجبره على تقبيل يدها القاتلـة، على أنها يدٌ أخذت به إلى شواطئ السلامة.

وهي حضارة متوحشة، تفتك بخصومها فتكاً، دموياً، رهيباً،﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[سورة فصلت:15]. وهي بعتوها المجنون، تكرر مأساة الحـضارات المنهـارة، وليتها فقهت، ووعت الدرس الحضاري من تلك الحضارات المغرورة الشقية الهالكـة، ولكنهـا عمتْ، وصمت. وأقول ذلك في محل الأسف، والحزن. ولكني في حـين آخـر، أقـول: هـذه الحضارة المادية ليست على شيء؛ لتقود البشرية، قاطبة. ولو كانت هذه الحضارة على كتـاب،

---

(1) اشبنغلر: **تدهور الحضارة الغربية**. ج1ص97. وقال اشبنغلر هذا القول في سياق الحضارات التي قامت على الأشلاء وإذلال الجماهير. وهذا الذي ما زالت الحضارة المادية تؤكّده وتسير عليه.

ومن عجائب الاستعمار، ما صنعته فرنسا، فقد قامت بإصدار قانون في 2005/2/23م ينص على: " الاعتراف بالدور الإيجابي للوجود الفرنسي في المستعمرات في المناهج المدرسية" واحتج على القانون عدد من المؤرخين الفرنـسيين، وجمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان.ينظر: جريدة القدس. عدد12806. بتاريخ 2005/4/15م. قلتُ: هل نسيت فرنسا، ما صنعته في مدارس الجزائر التي ألغت فيها تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي. فهل هذا هو الدور الإيجابي؟

(2) الجندي، أنور: **أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة والأدب والاجتماع**. 1مج. بيـروت: دار الكتاب اللبناني .1982م. ص240.

لخاطبنها بما خاطب الله تعالى به أولئك الذين تصدروا قيادة الحياة، بلا مؤهـل حقيقـي،﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾[سورة المائدة:68].

وفي حين يفترض أن ينظر إلى الحضارة، بمقدار ما تقدمه من إنجازات إنسانية، وما "تعبر عن معانٍ إنسانية أصيلة"(1). رأينا هذه الحضارة أعدى أعـداء الإنـسانية، وألّـد خـصومها. فالقنبلـة النوويـة الفتّاكـة التـي ألقتهـا الطـائرات الحربيـة الأمريكيـة علـى المـدينتين اليابانيتين،"هيروشيما وناكازاكي" شاهدة على ولوغ هذه الحضارة في الإجرام، والإرهاب. ويرى الدارس لهذه الحضارة المادية الغربية، كم هي مجرمة قاتلة، دموية(2)، وحشية، كيـف أبـادوا مدينة كاملة من الوجود، ودمروا كل شيءٍ حي، ومن تبقى على قيد الحيـاة، مـا زالـت آثـار الجريمة شاهدة على جسده، وورثها كلّ من تناسل من نسله(3).

وهذه الكارثة الدموية، التي اقترفتها زعيمة الحضارة المادية أمريكا، لم تلـق إلا الترحيـب والمباركة، من قادة تلك الحضارة، فقد أروت عطشهم للـدم، والـدمار، والإرهـاب، والحقـد، والكراهية(4).

---

(1) زريق: **في معركة الحضارة**. ص77.

(2) ما زال النشيد الوطني الفرنسي يشتمل على كلمات دموية تعبر عن عقلية أهله. جاء فيه: " إلى السلاح أيها المواطنون. شكّلوا سراياكم وسيروا. وليُسق الدم غير النقي أخاديدنا" انظر: **جريدة القدس** عدد12897بتاريخ 2005/7/15م. لو كان هذا عند المسلمين لطالبوا بتغييره، ضمن تغيير المناهج الدراسية. فضلاً عن ألقاب الشتم التي تلحق بهم.

(2) للوقوف على هذه الكارثة المدوية، وطريقة تدمير الحضارة المادية لتلك المدينتين.ينظر: لاونـد، رمـضان: **الحـرب العالمية الثانية**.1مج. بيروت: دار العلم للملايين. لم يذكر التاريخ ولا الطبعة. ص446. وفي الكتاب وصف مـذهل تشيب له الولدان. في كيفية التدمير، والاستهزاء بالحياة، ومنها الحياة البشرية.

(3) قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون، نقلاً عن أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي:"ليبارك الله ترومـان - رئيس أمريكا- لأنه أسقط عليهم اثنتين منه (القنابل الذرية)، وكان ينبغي له أن يـسقط أربعـاً". ينظـر: نيكـسون، ريتشارد: **نصر بلا حرب**. 1مج. ط1. إعداد وتقديم المشير محمد أبو غزالـة. القـاهرة: مركـز الأهـرام للترجمـة والنشر.1409هـ/ 1988م. ص241. وكانت هذه الكلمة بمناسبة تفوق اليابان اقتصادياً. فانظر إلـى أي مـدى حقـد وأنانية هذه الحضارة. وقال نيكسون في الكتاب نفسه: "إن اليابان فقدت في الحرب العالمية "1.2مليون نسمة". ينظـر: ص243.

لقد فتكت الحرب العالمية الثانية بـ"(17مليوناً) من الجنود، و(18مليوناً) من المدنيين، قد قتلوا خلال خمسة أعوام ونصف. وبلغت النفقات العسكرية(1100مليار دولار). أما الخسائر التي سببتها الحرب فقد بلغت (100 مليار دولار)"[1].

وذلك عدا تخريب المدن والأراضي المحروقة...الخ. فأي شؤم كان ينتظر الإنسانية من هذه الحضارة التي ما زالت تقتل، وتجرم. فهي حضارة تعشق الدم، وتعيش على الدماء والخراب.

هذه الحضارة أبكت العالم أجمع دماً، وتحول إلى مأتم تعالى فيه العويل، والنحيب، كما أنها أغرقت الكرة الأرضية في بحار من الدماء، والأشلاء؛ وجعلتها ساحة مفتوحة للموت، والهلاك، ومارست الإرهاب بشتى صوره وأشكاله، الفكرية، والمادية.

هذه الحضارة المادية، بشقيها الأمريكي، والأوربي المنقاد لها في المسؤولية سواء، والمنقادون لها، هم، كما قال ﷻ تعالى عن قوم ملكة سبأ:﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ ﴾[سورة النمل:33].

والحضارة المادية الغربية المعاصرة، استعبدت الأمم الأخرى التي وقعت تحت سيطرتها؛ فقذفتهم بحِممِ الظلم، والعتو، والإجرام. واقترفت أبشع الجرائم بحقّ الإنسانية[2].

والحضارة الغربية المادية، على الرغم مما تنتجه من ماديات، وتقنيات؛ هي سبيلها إلى السيطرة، إلا أنها تعتمد في رسالتها إلى العالم على آلة الحرب الرهيبة التي تأكل الأخضر، واليابس، وهي تشهر سيفها يقطر بالدم، والأشلاء. فأي حضارة لعينة، تلك التي دبت على الأرض، وجثمت على صدر الإنسانية؛ لتصطلي بالشقاء المحموم.

---

(1) لاوند: **الحرب العالمية الثانية**. ص448.

([2]) من مظالم هذه الحضارة الشقية، أن تقوم بإجبار الدول على التوقيع على اتفاقيات تمنعها بموجبها من رفع الشكاوى والدعاوى على جنودها أمام المحكمة الجنائية الدولية في حالة اقترافهم جرائم ضد الإنسانية. وما أكثر جرائمهم. فقد أجبرت أمريكا عدداً من الدول على توقيع تلك الاتفاقيات إبان غزوها لأفغانستان والعراق. ممهدة لنفسها باقتراف جرائم ضد الإنسانية. ومارست في سبيل ذلك نفوذها السياسي، وحاجة تلك الدول للمساعدات. وهذا أبشع ما يدل على وحشية هذه الحضارة، باستغلال رغيف الفقراء، والجوعى؛ لترويج جرائم القتل. للإطلاع على الخبر ينظر: **جريدة القدس**: عدد12897. بتاريخ 2005/7/15. فأي عدلٍ، وإنسانية تدعيهما هذه الحضارة؟

وصف أحد أساتذة المدرسة العسكرية الأمريكية، جنوده الذين اقترفوا جرائم وحشية مروعة: "لقد واجهنا صعوبات؛ لنجعلهم يأسرون الأعداء بدلاً من تقطيع آذانهم"[1]. فهذه أدنى درجة من درجات وحشية هذه الحضارة ، ولا ننسى ما اقترفه جنودها مع الجنود العراقيين من تقطيع أعضائهم، وبقر بطونهم؛ لتنقل أحشاؤهم، إلى مهد الحضارة المتوحشة؛ كي تجرى عليها التجارب؛ أو لتباع لدى تجار الأعضاء البشرية.

فهل هذه حضارة ستبقى، وتخلد؟ فالله تعالى وحده هو الذي يعلم ما سيحلّ بها من دمار، يعيد الرشد للبشرية المبهورة، والمقهورة من فظائع هذه الحضارة.

وإذا فتحنا أبواب الفساد الخلقي، والسلوك الاجتماعي، للحضارة المادية؛ فإن روائح العفن، تُزكِم أنف الحياة. ولن يستطيع عاد أن يعد المصائب الخطيرة التي تلقي أحمالها على البشرية.

أما على الصعيد الخُلُقي، فلا أجرد هذه الحضارة من كل فضيلة، بيد أني أقول: إنها مرتعٌ خصيب، ومنبت متعفّن لكل رذيلة، آذت النفس الإنسانية، ودمرت سلوكها، وليت تلك الحضارة أغلقت أبواب فسادها الخلقي على أبنائها؛ فاختنقوا بمكاره مفاسدهم، ولكنها صدرت الانحلال الخلقي، والفساد السلوكي لكل أقطار الأرض، عبر وسائل إعلامها، وضغوط مؤسسة الحكم فيها على الدول، والمجتمعات الأخرى، عبر ما تسميه إصلاحات، وتغيير مناهج التعليم؛ ليتفق مع تصوراتها المنحرفة، ومسلكياتها المعوجة. "والإبداع الخلقي هو مقياس من مقاييس التحضر"[2]. فأين هي من الإبداع الخلقي.

لقد أدرك نخبة من مفكري تلك الحضارة، أثر الأخلاق على قيام الحضارة، وانهيارها، ولكن الآذان صماء. فالسيل الجارف، وطوفان الانحراف الهائج من التصور الفاسد عن الإنسان،

---

(1) جارودي، روجيه: **أمريكا طليعة الانحطاط**. 1مج. ط1. تعريب عمرو زهيري. القاهرة: دار الشروق. 1420هـ/1999م. ص87. فالحضارة الغربية حضارة مريضة جسدياً ونفسياً، وما أدلّ على ذلك صور التعذيب التي نُشر بعضها في سجن أبو غريب، كيف كان يتصور الجنود والمجنّدات وهم يغتصبون الأسرى العراقيين في أوضاع يندى لها جبين الإنسانية، وكانوا يتضاحكون، ويلهون بهم كما لو كانوا يلهون بكُرة، وكل ذلك تم تحت عنوان تحرير العراق. فلم تمر حضارة أشد انحطاطاً من هذه الحضارة المادية.

(2) زريق: **في معركة الحضارة**. ص269.

والكون، والحياة، كان أقوى أثراً، وأشد تأثيراً من تشقيق الكلام، وتنميق العبـارات، وصـيحات أولئك النفر، لأقوام دفنوا أرواحهم في حمأة الرذيلة، ومدافن العبودية للذات، والمتاع.

قال الفيلسوف الفرنسي"غوستاف لوبون"، عن أهمية الخُلُق في البناء الحضاري: "مفاتيح حياة الأمة خُلُقها ودينها"[(1)]. وفي عبارة صريحة قال: " وإذا أمعنا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم التي يذكرها التاريخ بلا استثناء...؛ وجدنا أن العامل القوي في انحلالها تغير طرأ على مزاجها العقلي ترجع علته إلى انحطاط الخلق"[(2)].

وهي حضارة، تفسخ فيها النسيج الاجتماعي، وتشتّت الأسرة، وهي النواة الأولى للمجتمـع، والمحضن الذي يتربى فيه الإنسان. قال لوبون عن الأسرة: "أما العائلة فصائرة إلى الانحـلال. وقوى المجتمع آخذة في التمزق....، فلما أضاع الإنسان ربه؛ فقد الرجاء"[(3)].

ولعل غياب أثر الأسرة في الحضارة الغربية، هو الذي أفرز الممارسات المنحرفة، والـشاذة لجنود هذه الحضارة، وهم يفتكون بالأبرياء حيث حلّت قوتهم الهمجية الشريرة[(4)].

وذكرتُ في صفحات سابقة، كيف بحث المفكرون عن الأخلاق، في سراب الفلسفة، وبيـداء الأهواء. فالتيه الذي تاه فيه فلاسفة الغرب في البحث عن الأخلاق؛ هو إمعان في الضلال، وتيه المسعى، وجزاء الاستكبار الطاغي، والعتـو المتعـالي،﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ ﴾[سورة الأعراف:146].

"فهذا الروح الخُلُقي منحةٌ من السماء إلى الأرض، يأتيها مع نزول الأديـان، عنـدما تولـد الحضارات، ومهمته ربط الأفراد بعضهم ببعض"[(5)]. كما يشير بذلك القرآن الكريم ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ

(1) لوبون: **سر تطور الأمم**. ص161.

(2) لوبون: **سر تطور الأمم**. ص172-173.

(3) المصدر السابق: ص178.

(4) من عجائب هذه الحضارة، أن تقسم الدول إلى دول شر وخير. فتتهم دولاً مستضعفة، بأنهـا محـور الـشر، ومـن المضحكات المبكيات أن تصف نفسها بمحور الخير. وذلك على رأي جورج بوش رئيس أمريكا.

(5) ابن نبي، مالك: **مشكلة الثقافة**. 1مج. بيروت: دار الفكر. ص111. بلا تاريخ ولا طبعة.

قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[سورة الأنفال:63].

وهذه الحضارة أطلقت العنان للشهوات، أن تفعل ما تشاء، كيف تشاء، تحت مصطلح الحرية، فانفكّت من كل قيد، حتى فاقت الحيوانات في نزوها على بعضها؛ فدمرت كل شيء، ونشرت الرذائل؛ وأغرقت الحياة بطوفان الفواحش، ورافق ذلك كلّه أمراض عجزت عن علاجها، وعلى رأسها مرض الإيدز، الذي يهدد شعوباً كاملة بالفناء. وعدت جرائمها الخُلقية مقتضى من مقتضيات التحضر، ودلالة تشير إلى رقي الإنسان!

ونقلت مفاسدها حيث وصلت أقدامها؛ فلطّخت الحياة، بصبغة بهيمية، بل أسوأ بكثير،﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[سورة الفرقان:44].

هذه الحضارة تعطي الشاذين المنحرفين حقوقاً واسعة النطاق، وتشرع الزواج من مثليي الجنس[1]، فانحرفت عن الفطرة السوية، ومع ذلك، فإن تلك الحضارة مازالت متماسكة من الناحية الشكلية، خاصة أمريكا التي ما ذاقت كأس العذاب بعد. وقد يتساءل متسائل، هذه أمريكا الراتعة في عفن المتع الموبوءة، ومع ذلك مازالت فتية. وكأنها دعوة صريحة لأن تنجر الدنيا خلفها، "فيجب أولا أن نجعل في حسابنا أن أمريكا أمةٌ فتية غنية، وأن طاقتها المذخورة لم تنفق بعد: طاقتها الاقتصادية، والمادية، والنفسية على السواء. فهي إذن أقدر من غيرها على احتمال هذا التيار الجارف من الانحلال. كما يكون الشاب الفتي أقدر على احتمال الأمراض المختلفة. دون أن يبدو من الظاهر أنها قد أثرت في بنيته. ولكن هذا وهم؛ لأن كل نوبة من نوبات المرض تترك آثارها في جسمه لا محالة؛ فتعجل بشيخوخته وتعصف به قبل الأوان. فإذا أصرت أمريكا على ما هي ماضية فيه من الانحلال الخلقي، ولم تأخذ بحجز أبنائها وبناتها أن يتهاووا إلى حمأة الرذيلة؛ فليس لها إلا مصير واحد،... وهو مصير كل أمة في التاريخ أطلقت لنفسها عنان الشهوات. كما صنعت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية من قبل، فاستطاع

---

(1) أقر مجلس النواب الأسباني، قانوناً يسمح بزواج مثليي الجنس، وتبنيهم أطفالاً. وهي ثالث دولة بعد بلجيكا وهولندا. ينظر: **جريدة القدس**: عدد12813. بتاريخ2005/4/22م.

الإسلام الفتي أن يزلزل كيانهما في فترة قصيرة، كأنها البرق اللامع، وكما صنع العالم الإسلامي حين أترف، واجتاحته الشهوات؛ فتهاوى أمام قوة الفاتحين"[1].

وأما عد الانحرافات الخُلقية، والفساد السلوكي في هذه الحضارة، فأعان الله تعالى من يقوم بهذه المهمة؛ لأنه سيصاب بالإعياء، وستكلّ الأقلام قبل الانتهاء من هذه المهمة[2].

كما أن هذه الحضارة دفعت الجريمة إلى مسرح الأحداث، ولم تستطع بكلّ ما أوتيت من قوة أن تضع حداً للجريمة المتصاعدة في موطنها. ففي الولايات المتحدة الأمريكية: "ولاية كاليفورنيا، التي تحتل بمفردها المرتبة السابعة في قائمة القوى الاقتصادية العالمية ـ فاق الإنفاق على السجون المجموع الكلي لميزانية التعليم. وهناك 28 مليون مواطن أمريكي، أي ما يزيد على عشر السكان، وقد حصنوا أنفسهم في أبنية، وأحياء سكنية محروسة. ومن هنا فليس من الغريب أن ينفق المواطنون الأمريكيون ضعف ما تنفق الدولة على الشرطة"[3].

"وبلغ معدل الجريمة في لندن جريمة في كل ست ثوانٍ. وبلغت معدلات القتل والاغتصاب في أمريكا ستة ملايين حداثة عام 1990م. وبلغت الخسائر المالية على ضحايا العنف، والإجرام في أمريكا سنوياً (130.5مليار دولار). وهناك (100ألف شاب) أمريكي من طلاب المدارس يحملون أسلحة نارية. وفي عام 1992م تم توقيف (2829) طالب بتهمة القتل. ووجود الطوائف الشاذة مثل عبدة الشيطان، التي بلغ عدد فروعها في أمريكا (1500) جمعية"[4].

وحسب تقرير لصندوق حماية الأطفال المؤسسة الرئيسة لحماية الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية جاء فيه:"منذ عام 1979م-1991م قتل ما يقرب من (50 ألف) أمريكي، أعمارهم أقل

---

(1) قطب: **الإنسان بين المادية والإسلام**. ص94.

(2) ففي نشرة لمنظمة UNICEF تقول:"يعتبر حمل المراهقات من المشكلات الملحة في الولايات المتحدة حيث يولد طفل من كل ستة أطفال لمراهقات في سن الدراسة". ينظر:نشرة تحمل عنوان الحقوق الإنجابية والجنسية. صادرة عن منظمة اليونسف. وينظر: القرضاوي، د. يوسف: **الإسلام وحضارة الغد**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة وهبة. 1416هـ/1995م. ص36. وفيه نصوص من وثيقة السكان بالقاهرة، التي تجسد انحلال الحضارة.

(3) ينظر: بيترمان، د.هانس. وآخرون: **فخ العولمة الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية**. 1مج. ترجمة. د.عدنان عباس علي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.1419هـ/1998م. ص35. طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة.

(4) ينظر: شبيب: **الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط**. ص25، 300،27، 316.

من تسعة عشر عاماً. و(40 ألف) بين خمسة عشر وتسعة عشر عاماً، قتلوا برصاصات، أو حوادث، أو جرائم متشابكة. في خلال الفترة ذاتها، ونجد أن عدد المحتجزين لارتكاب جرائم قتل وذبح ممن هم دون سن التاسعة عشرة قد تزايد بنسبة93%. وحسب التقرير ذاته، فإنّهم في الأغلب الشباب الذين يقتلون، أو يصيبون شباباً آخرين"(1).

ولقد عددتُ الاقتصاد المزدهر، مقوماً من مقومات الحضارة، وحسبتُ فساد الاقتصاد معولَ هدم لها، يقوض أركانَها. فما هو حال هذه الحضارة مع الاقتصاد؟

ولمعرفة أثر الاقتصاد بناء، وهدماً، في هذه الحضارة، علينا أن ندرك أولاً أن الحضارةَ المادية بحكم تسلطها، ونفوذها الإرهابي القوي، مسئولة مسئولية كبرى، عن الوضع العالمي، اقتصاداً وغيره.

وهذه الحضارة لم تستطع أن تحقق "هدفي الكفاءة، والعدالة"(2) وهما شعاران مرفوعان ولا حقيقة لهما لا في مهد تلك الحضارة، ولا في تلك البلاد المنهوبة المصطلية بنيران التسلط المادي.

ولقد ذكرتُ سابقاً أن هذه الحضارةَ قد نهبت خيراتِ الأمم الاقتصادية، وتحكّمت فيها، وسرقت لقمةَ العيش من أفواه الجياع؛ لتضعها في بطون لا تشبع، تقيم في مهد هذه الحضارة(3). وهي حضارة مصاصي الدماء، " فالدول المتقدمة التي يشكل سكانها قرابة 10% من سكان الأرض، يستهلكون 80% من المصادر الطبيعية"(4).

---

(1) ينظر: جارودي: **أمريكا طليعة الانحطاط**. ص97. ناهيك عن المخدرات والخمور، والعنف. وعصابات الإجرام، الطوائف الشاذة مثل عبادة الشيطان، وعبدة يهوه كوريش، وأبناء الله، والعلميين، والحق المطلق والتي قامت بأفعال إجرامية خطيرة للغاية. وجماعة الهذيان...الخ من العجائب والجنون.

(2) شابرا: **الإسلام والتحدي الاقتصادي**. ص253. وحسب مكتب ميزانية الكونجرس الأمريكي،" في عام 1990م كانت عائدات مليونين ونصف المليون من الأغنياء تساوي مجموع عائدات مائة مليون مواطن قابعين أسفل السلم الاجتماعي." ينظر: جارودي: **أمريكا طليعة الانحطاط**. ص90.

(3) انظر على سبيل المثال ما يحدث في العراق اليوم، من نهب لثرواته النفطية، بالمليارات، والفضائح التي تتوالى، عن برنامج النفط مقابل الغذاء. والشعب العراقي، في شظف من العيش.

(1) بكّار، د.عبد الكريم: **من أجل انطلاقة حضارية شاملة**. 1مج. ط1. دمشق: دار القلم. ص53.

وآخذُ أثراً واحداً من آثار الفساد الاقتصادي في هذه الحضارة المادية، وهو الربـا[1] الـذي شرعته الحضارة الغربية، "وكان ذلك على يد الثورة الفرنسية، وجعلته مبدأ رسـمياً منـذ عـام 1789م"[2]. وبهذا شرعت الاستغلال، ومص الدماء.

وشتان ما بين الحضارة المادية، والحضارة الإسلامية، "فالحضارة الإسلامية، تقـوم علـى أساس من رعاية الجانب الروحي، والمادي إلاّ أن تغليب الجانب الروحي الإنساني، والخُلق هو السمة البارزة في التشريعات الإسلامية؛ فمن ثَم حرم الله الربا، وجعل ثواب القرض أعظم مـن ثواب الصدقة. أما الحضارة الغربية وما شاكلها، فأساسها رعاية المادة، وتغليب الجانب المـادي على الجانب الروحي، وعدم اعتبار الجانب الخلقي في كثير من قوانينها، وسواء في هذا مـن لا يقر بدين كالشيوعية، أو من لهم دين كالدول المسيحية"[3].

والربا سبب الشقاء لكثير من الشعوب، وهدت أثقاله دولاً عديدة، عبر ديـون ربويـة تُعـد بمليارات الدولارات[4]، تئن تحت وطأتها الشعوب المستضعفة، وتكتوي بنار الدنيا قبـل نيـران الجحيم الأبدي. وإذا ما محق الله ﷻ اقتصاد حضارة بجريمة الربا؛ فماذا سيبقى لها؟ ربما تعيش ولكن عيشة الرجل المريض الذي هد أركانه الداء. شلاّء عـاجزة، مهيـضة الجنـاح، مثخنـة الجراح. يطاردها شبح الفقر، يقتلها كل يوم ألف مرة، ومرة.

والحضارة الغارقة في الربا، هي في حرب ضروس دائمة، مع الله ﷻ، القائل في كتابه الكريم:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [سورة البقرة:278-279].

---

(2) يطلق على الربا تجارة الموت. ينظر:عبده، د.عيسى: **وضع الربا في البناء الاقتصادي**. 1مـج. ط2. القـاهرة: دار الاعتصام. 1397هـ/1977م. ص92.

(3) أبو شهبة، د.محمد بن محمد: **حلول لمشكلة الربا**. 1مج. ط2. القاهرة: مكتبة السنة. 1409هـ. ص69.

(4) المصدر السابق: ص89.

(5) الديون الربوية التي تقع على كاهل الدول العربية، هائلة جداً، ينظر: موقع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي على شـبكة الانترنت: www.pogar.org ففيه أرقام مذهلة. ويكفي أن نعلم أن شمال إفريقيا التي جاب فيها مبعوث الخليفة عمر بن عبد العزيز يبحث عمن يأخذ الصدقة فلم يجد، يقع على كاهل هذه الدول 53 مليار دولار. باستثناء ليبيا التـي لـم يتوفر بيانات لديونها.

وعن طريق القروض الربوية، تحكّمت دول الحضارة الغربية، بفقراء الأمم، واستعبدت، دولاً كثيرة؛ فكانت وسيلتها للسيطرة الكاملة على مقدرات المستضعفين.

والمساعدات التي تقدمها الدول الغنية للدول المستضعفة المنهوبة،" تعادل عشر فوائد الديون المترتبة عليها"[1]. فالربا تعاسة أبدية، وإسار قيد العبودية.

وفوق أن الحضارة المادية، تنهب خيرات الأمم، وتسرق قِنَّهم، ووحشية خيرات المستضعفين؛ ومع ذلك فإن زعيمة هذه الحضارة غارقة في الديون" فبلغت ديون أمريكا (4000 مليار دولا) ثلاث مرات أكثر من كل دول العالم مجتمعة"[2].

وفي دراسة أحدث من دراسة جارودي، جاء فيها أن "المديونية الأمريكية في نهاية 2004 م تصل إلى سبعة تريليون وأربعمائة مليار دولار"[3].

وهي حضارة الترف، والسرف، "ويكفي أن نعلم أن بعض الدراسات التقديرية انتهت إلى أن ما استهلكه الأمريكان خلال قرن يعادل ما استهلكته البشرية كلها في تاريخها الطويل! ويكفي التدليل على ضخامة آليات الاستهلاك، والترغيب فيه أن نعلم أن أمريكا وحدها أنفقت على الدعايات عام 1992م ما يقرب من (86) مليار دولار"[4].

وهذه الحضارة، تحرم المستضعفين لقمة الخبز، وفي الوقت نفسه تحيى حياةَ ترفٍ، وبذخ، حدثْ عنها، ولا حرج[5].

---

(1) شبيب: **الشرائع والأخلاق بين الانحطاط والحضارة**. ص127.

(2) جارودي: **حفارو القبور**. ص70.

(3) جبريل، د.محمود: **الهزيمة الذاتية للأمة العربية**. حلقة من برنامج بلا حدود بتاريخ 2004/2/2م. نقلتها عن موقع الجزيرة نت. والمحاور خبير استراتيجي عربي. استمعتُ لأكثر من لقاء معه، وهو صاحب معلومات ثرة. وقال في حواره نصاً" الولايات المتحدة تحولت إلى المدين الأول في العالم وبعض الكتاب أصبحوا يسمونها أكبر متسول في تاريخ البشرية بتستدين وأشياء بتأخذها بشكل البلطجة إن هي بتهجم على ثروات بلد معينة".

(1) بكّار: **من أجل انطلاقة حضارية شاملة**. ص50.

(2) "بريطانيا تنفق 30 مليون جنيه استرليني في عيد رأس السنة ثمناً للبيض المصنوع من الشوكولا فقط. وزجاجة خمر أخذت من مخزون الرئيس الأمريكي جيفرسون، بيعت بمبلغ150 ألف دولار. وقبعة الممثل شارل شبلن بيعت ب83

والجانب الاقتصادي، قائم على سياسة التخمة لفئة قليلة،" ففي فرنسا عام1992م، كان 6% من الشعب يمتلكون 50% من الثروة القومية. و94% يمتلكون الباقي. واعترف كلينتون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق، أن 1% من الشعب الأمريكي يملكون 7% من الثروة القومية"[1].

والسياسة نفسها تطبق من قبل هذه الحضارة على شعوب العالم، ففي تقرير لمنظمة اليونسف، جاء فيه:" إن إفريقيا بحاجة إلى 9.250 مليار دولار من أجل تأمين الحد الأدنى من الغذاء، والرعاية الصحية والصرف الصحي والتعليم، بينما الشعب الأمريكي ينفق لوحده ما قيمته ثلاثين مليار دولار، على البيسبي كولا"[2].

والأنانية مثلبة ذميمة، اتصفت بها هذه الحضارة؛ فهي تريد أن تنفرد بكل شيء، وتنهب كلّ شيء، وتستعبد كل شيء، وهي التي تحدد للدول من صنفها نوعية صادراتها، والمبالغ المسموح بها، كما فعلت زعيمة هذه الحضارة أمريكا مع اليابان، وألمانيا، وكل ذلك بالتهديد، والوعيد[3].

واتفق كثير من الباحثين في الفقه الحضاري، على أن الحضارة تقاس، بما تقدمه من معانٍ إنسانية، "والتحضر يقدر في هذا المضمار، بمبلغ ما يدرك أبناء الحضارة أن الخير في محبة السوى (الغيرية) لا في تفضيل الذات (الأنانية)، وبمدى تغلغل هذا الإدراك في حياتهم الفردية، والاجتماعية"[4].

ألف دولار" ينظر: شبيب: **الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط**. ص174، 175. وهناك عجائب وغرائب في الترف والسرف. يكاد يشابه الخيال.

(3) بكّار: **من أجل انطلاقة حضارية شاملة**. ص50.نقلاً عن جريدة "المسلمون". العدد الصادر في 1414/12/21هـ.. وعدد الأغنياء الذين يملكون ما يزيد على نصف مليار دولار فما فوق 94 مليارديرا وذلك في عام1995م. ينظر: شبيب: **الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط**. ص127.

(4) شبيب: **الشرائع والأخلاق بين الانحطاط والحضارة**. ص83.

(5) أملت أمريكا على اليابان أن تستثمر في روسيا بطلب من وزير خارجيتها جيمس بيكر؛ لأن أمريكا لا تستطيع الاستثمار بنفسها؛ كونها تحمل أعلى مديونية في العالم. ينظر: جارودي: **حفارو القبور**. ص38.

(1) زريق: **في معركة الحضارة**. ص268. يرد الأستاذ محمد أسد، أصول الحضارة الغربية المادية إلى الحضارة الرومانية، ويعدها صورة عن واقعها المادي النفعي البحت. قال:"كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية الاجتياح بالقوةّ واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده. وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوء ولا في ظلمهم انحطاطاً". ينظر: أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**. ص36.

"فالرأسمالية عادت بالمجتمع الديموقراطي الحديث إلى مجتمع تسيطر عليه الفردية، والأنانية، والتخاف في القيم، والمثل العليا؛ لأنه كلما سيطرت الأنانية خفّ وزن القيم، والمثل العليا"[1].

والحضارة المادية، حملت صفتها من اسمها؛ فهي مادية، ولا تقيم وزنا إلا للمادة، التي إذا استبدت بالحضارة؛ قضت عليها[2].

فالحضارة المادية الغربية قامت أساساً على المادة، وعبوديتها، واتخذتها إلهاً منذ اللحظة التي هجرت الكنيسة بسبب آرائها المنحرفة، وتصوراتها العقيمة للحياة. "فأمسوا يعبدون ذواتهم بدل الذات الإلهية. وأوقعتهم الذاتية، والأنانية في الفتنة بما حلّت منهم محل الإله"[3]. وجنتْ على الإنسانية جناية كبرى.

وكرست المفهوم المادي، وتحولت إلى وحش، يركض في الأرض يفترس البشرية، ويلتهم خيراتها، وسعت إلى سلب الثروات الطبيعية من شتى بقاع الأرض؛ فالتهمتها في بطون لا تشبع، ولا ترتوي، وتركت البشريةَ هياكلَ عظمية. وكانت تؤثر رمي الطحين في البحار وأعماق المحيطات على أن يسد الجياع من البشر جوعتهم. وفي أحسن الأحوال ترسل لهم مساعدات ضئيلة، وديوناً ثقيلة، ترهن الأرض، وتساوم الجياع على دينهم، وتاريخهم، وثقافتهم، وأعراضهم، وقوانينهم، مقابل لقمة الخبز للجوعى، وحبة الدواء للمرضى؛ لتضمن استمرار سلاسل العبودية، وقيد التبعية لها لعقود قادمة، فأي أنانية رذيلة، اتصفت بها هذه الحضارة المادية، وأي نظرة دونية هابطة، تنظرها لبني البشر؟

ومن المادية، انفجرت كل المفاسد، والشرور، وتدفقت منها كالشلال؛ تلطّخ الحياة. وعبادة هذه الحضارة للمادة، فتح أبواب الصراع على مصاريعها، " فالتشبث في المادة وحدها، وتركيز الهدف في الدنيا ومتعها - دون أن تكون هناك مثل وقيم يسعى إليها - هو المصدر الأول،

---

(2) البهي، د.محمد: **الدين والحضارة الإنسانية**. 1مج. ط2. بيروت: دار الفكر. 1394هـ/1974م. ص224.

(3) يراجع المبحث السابع من الفصل الثالث في هذه الرسالة، وفيه أثر النزعة المادية الصرفة في انهيار الحضارة.

(4) المودودي: **نحن والحضارة الغربية**. ص39. وأوضح العلامة المودودي، أثر الأنانية في الاجتماع والسياسة، في الحضارة الغربية.

والأخير لفقد الفرد حريته، وعدم قيام مجتمع حر كريم...؛ لأن صراع الأفراد عندئذ حول هـذه الأهداف سيزداد، وسوف تتعقد مشاكل حياتهم، ليس فقط صراع النفوس فيما لها من آمـال ... وإنما صراع الأخلاق فيما تسلكه من وسائل لتحصيل تلك، وإذا شمل الصراع آمـال النفـوس وأخلاقها؛ فقلق النفوس وخوفها، وتوتر الأعصاب؛ هي حصيلة ذلك الصراع المرير"[(1)].

وهي "حضارة مادية هابطة، ليس فيها مكان للمشاعر الإنسانية، ولا المثل الخلقيـة. وهـذا يجرفها إلى تيار الصراع المادي الذي يؤدي إلى الحرب، وإلى الخراب"[(2)]. وهذا ما حدث فـي العالم حروب لا آخر لها، باعثها الحقد والطمع.

"ونظراً لافتقار حضارة العصر لمقومات روحية، وأخلاقية؛ كانت كوارثها، وفـي مقـدمتها استعمار الدول الصناعية للدول الضعيفة المتخلفة... ولما استطاعت الدول الـضعيفة أن تـزيح عنها المستعمر، وتتخلص من شرورهم؛ ابتكر هؤلاء نوعاً جديداً من الاستعمار، إذا دخلوا البلاد بحجة العمل على خدمتها وإزالة تخلفها، ومساعدتها على التحضر، والرقي"[(3)].

وهي حضارة مفسدةٌ فتّانة، "تثير الحروب بين الأمم، ثم يبيعون المتحاربين كلهم سـلاحاً، لا يهم من مات، ولا يهم من قتل، ولا من خربت دياره، ولا من جاع، أو عطش، أو عري،.. مـا داموا يجمعون المال في صناديقهم؛ ليزيدوا به نفوذهم السياسي والعسكري في العالم"[(4)].

---

(1) البهي: **الدين والحضارة الإنسانية**. ص267.

(2) قطب: **الإنسان بين المادية والإسلام**. ص95.

(3) الطويل، د.توفيق: **الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية**. 1مج. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي. ص77،76. لـم يذكر الطبعة ولا التاريخ... وهذه الحضارة تتباكى على القتلى في "دارفور" بالسودان، وتذرف الدموع الكاذبة، وتسعى لتقديم جنود إلى المحاكم الدولية، بحجة ارتكاب جرائم، بحق الإنسانية، وفي الوقت نفسه أمريكا نفسها قبـل تدنيـسها للعراق، استصدرت قراراً دولياً، يحول دون عرض جنودها للمحاكمات الدولية، فأي ظلـم صـارخ ارتكبـت هـذه الحضارة، وأي تمييز عنصري، مارسته بين دماء الشعوب، وأجناس البشر.

(1) أسد: **الإسلام على مفترق الطـرق**. ص44. "كشفت مصادر أمريكية أن واشنطن أنفقت في أوكرانيا خـلال العـامين الأخيرين ما يقرب من 65 مليون دولار لتمويل المنظمات غير الحكومية والتي كان الجزء الأكبر منها مـن نـصيب ممثلي الأحزاب المعارضة. وتمويل رحلات قادة المعارضة إلى أمريكا ليستقبلهم هناك كبار القـادة. وتهـدف تلـك المساعدات إلى إعداد الثورة السلمية هناك أو ما يسمى بفعاليات الثورة البرتقالية في كييف". ينظر: **جريـدة القـدس**. 2004/12/13. عدد12686.

وتُذكي نار الحرب بين الدول؛ لتمدهم بالسلاح؛ فتعمر مصانع السلاح فيها بـدماء، وأرواح الشعوب المغلوب على أمرها، والمقهورة من طغيانها، "فبلغ برنامج صناعة الطائرات الحربيـة في أمريكا عام 1991م، مبلغ (150) مليار دولار"[1].

وتغري الحكومات بالفتك بشعوبها، وبسلخها عن دينها، وعقيدتها، بينما تـزعم كـذباً أنهـا حضارة الحرية[2].

والحضارة الغربية المادية حضارة عنصرية، تمايز بـين البـشر بـاللون، ونـوع الـدم، والخصائص الوراثية، "وترد الحضارة إلى الجنس الأبيض"[3].

"قال وزير الصحة الأمريكي الأسبق ديفيد ستشر: إن (80ألـف) مـن الأمـريكيين الـسود يموتون كل عام، بسبب استمرار الفوارق في الرعاية الصحية. وفي بحث أجراه الوزير المذكور وجد أن عدد الوفيات بين السود يزيد عن 40.55% عن الوفيات بين البيض في كل عام. وكتب شاتسر يقول في عدد خاص من مجلة شؤون صحية: إن ذلك يضيف (83.570) حالـة وفـاة سنوياً"[4].

وحاولت هذه الحضارة أن تلبس لبوس الرقي في نظرتها إلى الأديان، وادعت حرية التفكير؛ وفي الوقت نفسه هاجمت الإسلام هجوماً كاسحاً شرساً، ونصبت مستشرقيها؛ شـراحاً للـدين،

---

(2) جارودي: **حفارو القبور**.39.

(3) ومن ذلك تحريض الرئيس الأمريكي نيكسون للحكومات العربية لمحاربة "النزعة الأصولية". ينظر: نيكسون: **نـصر بلا حرب**.ص293.

(4) ينظر: الطويل: **الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية**. ص17. لم يذكر الطبعة ولا التاريخ. والـشعارات الجميلـة البراقة التي رفعتها الحضارة الغربية، كانت عوجاء في تطبيقها، عرجاء في طريق تحقيقها، فكالت بمكاييل مختلفة في القضية الواحدة. فلنضرب مثلاً عن العدل، إذا تعلقت مسألة بأمريكي أو أوروبي، وفي المقابل إذا تعلقت بشعب مـسلم كامل كيف تكون ردة الفعل؟ حتى قال الشاعر العربي:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر   وقتل شعب آمن جريمة فيها نظر

(1) ينظر: **جريدة القدس**. 2005/3/11عدد12771. نقلاً عن وكالة رويترز.

وأعطت نفسها الحقّ في شرح مفاهيم الإسلام بطريقتها المشوهاء. وشاع مصطلح "إسلام أمريكاني"[(1)].

ورمت الإسلام بتهم كاذبة مليئة بالحقد، والكراهية، وحرفت معاني الآيات القرآنية، ولو استطاعت أن تحرف القرآن الكريم؛ لفعلت. ولكنه دين الحضارة، والحياة، والإنسان، مادامت الحياة.﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[سورة الحجر:9].

ودنّس جنود هذه الحضارة القرآن الكريم، فألقوه في المراحيض، في سجن "غوانتنامو"[(2)] أحد أبرز المعالم الحضارية المعاصرة! ورسم جنودها الصليب على المصاحف في العراق.

"ولم يعرف التاريخ البشري حضارة هوجمت بشراسة وضراوة كالحضارة الإسلامية، لقد أقامت عصوراً طويلة تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، وظلت دوماً تواجه مشكلات، وأزمات لا نشك أنها لو جابهت حضارةَ أممٍ أخرى ليس لها الجذور العميقة في التاريخ؛ لطوحت بها"[(3)].

وسؤال يطرح على الحضارة المادية، أين موقع الإنسان، وأشواقه الروحية، وراحته النفسية فيها؟ لقد انتكس الإنسان انتكاسةً ساحقة؛ في روحه، ونفسه في هذه الحضارة، التي حولته إلى

---

(2) قطب، سيد: **دراسات إسلامية**. 1مج. القاهرة: دار الشروق. ص119. بلا طبعة وتاريخ. لقد حاول الإمبراطور الفرنسي نابليون أن يصنع ما حاولت صنعه الحضارة المادية المعارة، فدخل الأزهر في مصر وارتدى الجبة ووضع العمامة؛ ليحرف في الدين، ولكن سرعان ما انكشف أمره.

([2]) تداولت وكالات الأنباء خبر تدنيس المصحف الشريف في غوانتينامو، وأول من نشر الخبر مجلة نيوزويك الأمريكية. وفي بيان ألقاه أمام وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) الجمعة 27-5-2005، قدم الضابط الأمريكي البرجادير جنرال جاي هوود النتائج الأولية لتحقيق عسكري استمر 12 يوما في مسألة تدنيس المصحف، وقال إن "المحققين استبعدوا 13 زعما، وأثبتوا خمس وقائع محددة لتدنيس القرآن". وقال هوود إن أربعة من الحراس الأمريكيين ومحققا تورطوا في الوقائع الخمس، ومن بينها ثلاث وقائع عمد واثنتان غير عمد. وكانت وثيقة أصدرها مكتب التحقيقات الاتحادي (أف بي آي) يوم 1 أغسطس 2002 ونشرت يوم 25-5-2005 قد تضمنت ملخصا لأقوال أدلى بها معتقل في جوانتانامو لضابط في مكتب التحقيقات خلال مقابلتين أجراهما معه قال فيهما إن جنودا أمريكيين ألقوا بمصحف في مرحاض.

ينظر: www.islamonline.net/Arabic/news/

(1) الجندي: **أخطاء المنهج الغربي الوافد**. ص231.

سن في دولاب آلتها. وبممارساتها الشاذة في بقاع الأرض، وأشاعت الأحقاد بين بنـي البـشر، وشجعت الكراهية، والبغضاء، والعداوة.

أما الإنسان، المخلوق المكرم، والخليفة المؤتمن في تشييد الحضارة؛ كان الضحية الكبـرى للحضارة المادية الغربية، والتي جعلت منه إنساناً مشوهاً، يتضخم في جانب الجسد، ويـضمحل في جانب الروح. وعانت هذه الحضارة من تغليب المادة على الـروح، وكانـت محـلّ النّقـد، "فانهمك العلماء انهماكاً شديداً في النواحي العضوية، والأخلاط، والجانب العقلي للإنسان، ولكنهم لم يقفوا أي قدر كبير من الاهتمام لتكوينه العقلي المؤثر، وحياته الداخلية، وأخلاقـه، ومطالبـه الدينية، والعلاقات الوثيقة العامة بين وجوه النشاط العضوي، والفسيولوجي، والعلاقات الوثيقـة بين الفرد، وبيئته العقلية، والروحية. فلا مناص من إحداث تغيير أساسي"[1].

والحضارة المادية بشقيها الشرقي المنهار، والغربي الذي سينهار، كلتاهما اتفقتا على "التخلّي عن شخصية الإنسان الروحية، وفضائله الخلقية"[2]. ومالتا إلى النزعة المادية الـصرفة القاتلـة. وتعاملتا مع الإنسان على أنه آلة، كآلات المصانع التي يديرونها. وحرم الإنـسان مـن التمتـع بشخصيته الكاملة المتكاملة.

هذه الحضارة التي تتشدق بحقوق الإنسان، كذباً، وزوراً، لقد وصل انحطاط الإنسان بها إلى منحدر سحيق؛ فتاجرت بالإنسان، وبالنساء القاصرات في أعرق الدول حضارة مادية؛ فانتكست وارتكست بالإنسان، وعادت به إلى عصور التخلّف والظلام؛ فغدت المرأة سلعة تباع؛ ليقـضي المترفون من المتحضرين وطَرهم الشهواني، فالحياة متعة أياً كانت. فمما جناه الإنسان من هـذه الحضارة أن غدا سلعة تباع، وتشترى؛[3] ليتلذّذ المنحرفون الشاذون، ممن تُسن لهـم القـوانين إجلالاً، واحتراماً في دول الحضارة المادية الغربية.

---

(2) كاريل: **الإنسان ذلك المجهول**. ص57-58.

(3) أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**. ص48.

(1) نشرت جريدة القدس تقريراً جاء في العنوان العريض:"تجارة البشر تحقق للمافيات 15 مليار دولار، مقابل بيـع 900 ألف إنسان". وتحت العنوان ذكرت ما يندى له جبين الإنسانية، كيف تستغل النساء القاصرات، والفقيرات، والأطفـال، من الشعوب المستضعفة، والدول المغلوب على أمرها، ليباعوا في أمريكا وأوروبا. فهذه هي الحضارة التـي لا تقـيم وزناً للإنسان. وتحدثت الصحيفة عن فتاة بيعت 18 مرة. ينظر: **جريدة القدس:** العدد12686. بتاريخ2004/12/13م.

وهذا الإنسان الذي نشأ على مائدة الحضارة الغربية، وتربى في أحضانها، هو الإنسان الذي تتخوف منه أن يقضي على الحياة؛ بهمجيته، ووحشيته التي نشّأته عليها.

ولا يخفي مفكرو الغرب، وأرباب التحليل الحضاري عندهم، خوفهم أن يقضي الإنسان على الأرض.

وأحب هنا أن أنقل كلمة خطيرة، ومهمة للمؤرخ الإنجليزي توينبي يتساءل هـذا المفكـر، فيقول: "هل تغتال البشرية الأرض - الأم - أو الإنسان ينقذها، إنه يستطيع أن يغتالها بإسـاءة استعمال قوته التكنولوجية المتزايدة. والجانب الآخر، هو أن يستطيع إنقاذها بالتغلب على الطمع العدواني الانتحاري"[1].

وإذا ما فعل الإنسان الخيار الأول؛ فيتنبأ توينبي حدوث الكارثة، فيقول: "وفي هذه الأحـوال المذهلة ثمة نبوءة واحدة، يمكن أن يقدمها الواحد، وهو متأكد منها أن الإنسان وهـو ابـن الأم الأرض، لن يعيش بعد جريمة قتل الأم إن هو اقترفها؛ فالعقاب هو القضاء على النفس"[2].

وهذا تشاؤم حذر من سلوك إنسان الحضارة المادية الغربية. نعم، إنسان الحضارة الماديـة، سيصنع هذا؛ إن بقيت زعامة العالم بين يديه الشريرتين الملطّختين بالدماء، والعنف والإجـرام. وهو تساؤل في محلّه، من مفكّر ومؤرخ شهير. بيد أنّه لم يكلّف نفسه، أو يمعن فكره في الحلّ، أو المخرج من هذا المأزق الذي انتكس الإنسان به من فِعال الحضارة المادية.

وفي الجهة المقابلة، قدم المفكّرون المسلمون الحلّ الأمثل، لهذا المأزق الخطر، وذلك حسب تعبيرهم:" إن قيام المجتمع الإسلامي ضرورة إنسانية، وحتمية فطرية. وأنه إذا لم يقـم اليـوم؛ فسيقوم غداً، وإذا لم يقم هنا فسيقوم هناك؛ ليعصم البشرية من تدمير الإنسان، عن طريق تدمير

وهذه التجارة الآثمة المستهزئة بالإنسان شاعت في أمريكا وهولندا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا، وغيرها.ينظـر: **جريـدة القدس**: عدد12806. بتاريخ2005/4/15م. وهناك جماعة حقوقية أمريكية في شيكاغو اسـمها "هارتلانـد ألايـنس"، أصدرت تقريراً عن انتهاكات حقوق الإنسان في أمريكا جاء فيه: "إن أهم الانتهاكات الاتجار بالبشر". ينظـر:**جريـدة القدس**: عدد 12686. بتاريخ2004/12/13م.

(2) توينبي، آرنولد: **تاريخ البشرية**. 2مج. ترجمة د. نقولا زيادة. بيروت: 1986م. ج2ص267. لم تذكر رقم الطبعة.

(3) توينبي: **تاريخ البشرية**. ج2ص262.

خصائصه الإنسانية، ومن تدمير الحياة الإنسانية التي لا تقوم بغير إنسان محـتفظ بخصائـصه الإنسانية، في حالة نماء، وارتقاء"[1].

والسؤال المطروح، هو: "هل يمكن إزاحة كابوس القلق على مصير الحضارة الغربية الـذي يخيم عليها نتيجة الاعتقاد بحتمية انهيار الحضارات؟ وهل انهيار عشرين حضارة سابقة، يعنـي ضرورة انهيار الحضارة الغربية؟"[2].

والجواب عندي، إن كل الدلائل تشير إلى أن هذه الحضارة الشاسعة الواسعة، تسير عجولة، إلى الغروب، ويميل نجمها إلى الأفول؛ بما كسبت يداها، وستنتحر بسيف ظلمها، وخنجر علوها، وتذبل زهرتها بالسوس، والعفن الذي يأكل أركانها.

ويشكك اشبنغلر في مستقبل الحضارة المادية، فيقول: "فإن مستقبل الغـرب لـيس اتجاهـاً صاعداً متتابعاً أبدياً غير محدد نحو مثلنا العليا، بل إنما هـو ظـاهرة واحـدة مـن ظـواهر التاريخ"[3].

والحضارة المادية الغربية، رغم شبابها الظاهر؛ فإن أعراض الشيخوخة، بدأت رويداً رويداً تظهر عليها، والأمراض عرفت طريقها إلى جسدها الأخرق، ومحاولاتها باسترداد شبابها، عبر سلسلة الحروب الطاحنة التي تقودها؛ ستساهم في تسريع حملها إلى مـدافنها. بعـد أن تجنـدِلَها أعمالُها السيئة عن هرم الحضارة. "فالتدهور؛ نتيجة فساد بطيء، وانحطاط لا يشعر بهما المرء، وهما فساد، وانحطاط يتجليان في كل جوانب حياة الأمة، وينخران قوتها، ولا ريب في أن نهاية هذه الأمم قد تؤخّر بعض الوقت، ولكنها لن تصرف عنها قط، ولا بد أن تحلّ بها"[4].

---

(1) قطب، سيد: **الإسلام ومشكلات الحضارة**. 1مج. بيروت: دار الشروق. ص6-7. لم يذكر الطبعة ولا التـاريخ. وقـد ذكرت النصين الأول للمؤرخ والمحلل الشهير توينبي، وبيان رأيه، ثم ذكرت قول المفكر الأستاذ سيد قطب؛ ليتـضح عمق النظرة الإسلامية الأوسع والأشمل والأرحم. من تلك النظرة. فشتان ما بين من يستنير بنور القرآن. ممـن هـو على غير ذلك.

(2) صبحي، د.أحمد محمود: **في فلسفة التاريخ**. 1مج. الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية. 1975م. ص293.

(3) اشبنغلر: **تدهور الحضارة الغربية**. ج1ص101.

(1) صديقي: **تفسير التاريخ**. ص140.

"فقبل أن يتحال المجتمع تحللاً كلياً يحتل المرض جسده الاجتماعي، في هيئة انفصالات فـي شبكته الاجتماعية،.. قبل أن تبلغ نهايتها في صورة الانحلال التام. وتلك هي مرحلـة التحلـل البطيء الذي يسري في الجسد الاجتماعي"[1].

وقيام الحضارة المادية الغربية، على أسس غير قرآنية، في قيام الحضارات، لا يعني إنكـار وجودها، أو المحاججة في كونها حضارة استحوذت على ألباب الناس، وخطف بريقها الأنظار. فقد حدث القرآن الكريم عن حضارات كثيرة، شبت، وشابت، وقامت، وماتت. ولكن حديث البقاء هو للحضارة الرشيدة التي تأخذ بأسباب قيامها، وتحافظ على ديمومتها، وتتجنّب أسباب الأفول، وعوامل الانهيار.

قد تقوم حضارة على غير تلك الأسس التي أوضحتها، ولكنها ليست الحضارة التي تسعد الإنسان في روحه، وعقله، وجسده." وأي حضارة تنهض بعيداً عن تلك التبصرة القرآنية؛ فإنها تحمل في داخلها بذور ضعفها، وأسباب دمارها"[2].

---

(2) ابن نبي: **ميلاد مجتمع**. ص40.

(3) البوطي: **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**. ص171.

المبحث الثاني

الحضارة الإسلامية هدفها الإنسان وتستمر بحياته

عقدتُ مبحثاً سابقاً، بعنوان الخطاب الإنساني، وعددتُ ذلك مقوماً من مقومات الحضارة، وهنا أُدللُ على استمرارية الحضارة، وتمكينها في الأرض؛ بدليل أنها استهدفتْ الإنسان، فقدمتْ له أسباب السعادة، وغمرته بفيوض خيراتها؛ ليعيش ما كُتب له من حياة في ظل حضارةِ الرغَدِ، والسعد.

وقلما يجد الباحثُ حضارةً، كان الإنسان بكل خصائصه، هدفَها الدائم. وحيثما ييمم الباحثُ وجهه، يمنَةً، ويسرة، أو يقلّب وجهه في السماء؛ فلن يرى سوى قمر الحضارة الإسلامية؛ يتربع بدراً في ليالي الزمن؛ يبعثُ النّور؛ يهدي الإنسان.

فالحضارة التي تستهدف الإنسان وترعاه، من مرحلة النطفة، إلى أن تتمع عيونه برؤية النور، هي الحضارة التي تستمر ببقائه؛ لأنها حضارة الإنسان، والحياة. حضارة من المهد إلى السعد.

وقصة الإنسان، مع الحضارة، بدأت من مرحلة استخلاف الإنسان في الأرض،﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾[سورة البقرة:30].

واهتمام القرآن بمسألة استخلاف الإنسان في الأرض يدلّ على "مدى ثقلها في تصميم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية"(1).

وحملَ الإنسان الأمانةَ الثقيلة التي طأطأت الجبالُ رؤوسها فَرقاً من حملِها، وتناءت الأرض استحياء من أثقالها، ورجفتْ السماواتُ بعظمتها مشفقةً مذهولة، وتصدى لها الإنسان،قال الله ﷻ:﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا

---

(1) خليل، د.عماد الدين: **حول تشكيل العقل المسلم**. 1مج. ط4. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1412هـ/1991م. ص124.

ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾﴾[سورة الأحزاب:72]. والأمانةُ التي رجفَ منها الكون وجـلاً؛ هـي أمانةُ "التكليف"(1)، والقيام بالمهمة الحضارية لبني البشر.

ولقد هيأ الله ﷻ، الإنسان بنفخة الروح بعد الطين؛ كي يحمل تلك الأعباء الثقيلـة؛ فيمخـر عباب الحياةِ المقدرةِ الأجل؛ فيرسو بالذرية البشرية على شواطئها العامرة.

وفي حفل ملائكي غفير، أمر الله ﷻ ملائكتَه أن يسجدوا للإنسان المكـرم الـذي سـيحمل العبء الثقيل؛ ليشيد على الأرض حضارةً، صلاحها صلاح الحياة، وفسادها، فـسادها،﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾[سورة الحجر:28-30].

والآيات الكريمة تشير إلى أن الإنسان، "أصبح القُطْب الوجودي الذي ترنو إليه المخلوقـاتُ جميعاً، وتتحدد قيمتُها بقدر ما تقترب منه، أو تبتعد عنه، وما جاء من سجود الملائكـة لآدم ﷺ وقد كانوا أشرفَ المخلوقات، ونيلهم الرضى الإلهي، ومن امتناع إبليس من السجود؛ ونيله بذلك اللعنةَ والخسران، إنما هو رمزٌ لتحول في قطبية المخلوقات؛ لتكون فـي صـالح هـذا القـادم الجديد"(2).

والإنسان في الحضارة الإسلامية جسدٌ، وروح، لا يطغى جانب علـى آخـر؛ فهـو خلْـقٌ موزون، وكلّ تغليبٍ لجانبٍ على آخر؛ سينتهي إلى اختلالٍ في ميزان الحضارة؛ وميلٍ بكفّتهـا؛ وتطفيفٍ يجلب الويلَ، قال الله ﷻ:﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾[سورة المطففين:1].

وما انتكست الحضاراتُ الهالكة، إلا بسببِ نظرتِها الـشوهاء للإنـسان(3)؛ فـشوهتْ معهـا الحضارةَ، وكانت عاقبةُ أمرها خسراً.

---

(1) الرازي: **التفسير الكبير**. ج25ص234. وقال المفسرون أقوالاً كثيرة في معنى الأمانة تدور في أكثرها علـى معنـى التكليف، فبه يثبت الثواب والعقاب. ينظر في معنى الأمانة: السيوطي، عبد الرحمن: **الدر المنثور**. 8مج. بيروت: دار الفكر. 1993م. ج6ص668-672. لم يذكر رقم الطبعة.

(2) النجار: **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**. ص57.

(1) للتعرف على نظرة الحضارات للإنسان: ينظر: العقاد، عباس محمود: **الإنسان في القرآن**. 1مج. ط2. بيـروت: دار الكتاب العربي. 1969م. ص165-172. عرض العقاد في كتابه، نظرة الحضارات للإنسان، التي عدته حيواناً ناطقاً.

ونظر الإسلام للإنسان نظرةً كُلية، استوعبت جسده، وروحه، وراعتْ جذبةَ الطـين فيـه، وحلّقت به مع أشواق روحه أيضاً. ولم تنظر إليه على أنّه آلةٌ يقاس باستهلاكه المادي(1).

ولهذا لم تنقطع قوافلُ الرسل، تحمل أيديهم مشاعلَ الهدايةِ الربانية؛ ليقيم الإنسان حـضارتَه على أسسٍ صحيحة قوية، وتوضح له دوره في هذه الحياة، فقال ﷻ:﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء:164].

والإنسان هو هدف الحضارة، وحالُه يصلح بالرسالة، وهي الطريقة المثلى، والوحيدة التـي تنهض به، قال ﷻ:﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[سورة الملك:14].

ولما كانت الرسالةُ الإسلامية خاتمةَ الرسالات؛ فقد احتفت بالإنسان احتفـاء بالغـاً؛ فكانـت الرسالةُ للإنسان، وعن الإنسان، وللحضارة، وعوامل بنائها، وأسباب أفول نجمها، فلا غـرو إن استهدف القرآن الإنسان، وكان محل عنايته، فهو لـه، قـال ﷻ:﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الزمر:41].

وبالرسالة يصنع الإنسان الحضارةَ؛ فحيثما كان البشر، كانت الحضارة، ولا حـضارة دون رسالة، ولا رسالة إلا مـن اللهِ الخـالق ﷻ، ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:213].

وتضافرت النّصوص القرآنية تؤكّد مخاطبة الإنسان، واستهدافه، قال ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:138].

كما هو الحال عند أرسطو، وفي الحضارة الغربية. وفي الحضارة الإسلامية، "إن صفة الإنسان في هـذه الحـضارة العربية هي اسمه الذي لا ينفك عنه". **الإنسان في القرآن**. ص166.

(2) كتب الأستاذُ محمد قطب، مبحثين ماتعين بعنوان "الإنسان والآلة" و "الإنسان وحضارة الكيلو واط" بين فيهمـا نظـرة الحضارة المادية للإنسان، على أنّه آلة ويقاس بقدر استهلاكه من الكهرباء. ينظر: قطب، محمد: **في النفس والمجتمع**. 1مج. ط2. القاهرة: مكتبة وهبة. 1962م. ص90،74.

وبين الله ﷻ أن كتابه الكريم، أنزله هدايةً للناس، ودستوراً للحضارة، يؤسسونها عليه، قال ﷻ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [سورة البقرة:185].

والأمة الإسلامية التي نهضت بالحضارة، وحملتها على كاهلها؛ لينهل الناس من نعيمها، هي أمة ذاتُ مهمةٍ رسالية إنسانية، لا تحصرها القيود، ولا تكبحها الحدود، وهي أمةُ الشّهادةِ، والشهود الحضاري، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[سورة البقرة:143].

ومنذ بزوغ الشعاع الأولّ لحضارة الإسلام، حملت هذا العبء الحضاري الثقيل للبشرية، ونالت أوسمة الخيرية، وتزينت بها، وهذه الخيرية ليست خيريةَ مجاملاتٍ، ومظاهر، بل هي خيريةٌ لها شروطُها، ومستلزماتها،﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران:110].

ونبينا محمد ﷺ، حملَ أمانةَ التكليفِ الثقيل في استنهاض النّفس البشرية؛ لتستقبلَ خير الحضارةِ الجديدة الوليدة، وتفتح لها القلوب، والعقول،﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:158].

والحضارة الإسلامية خاطبت النفس الإنسانية، أن تلتفت إلى هذا الحبل الممدود،﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة يونس:57].

وأماكن العبادة في الحضارة الإسلامية؛ هي بؤرٌ إشعاعية للإنسانية، وهذا يدركه كل متدبرٍ للنص القرآني؛ فجعل الله ﷻ بيتَه العتيق منارةَ استقطاب عالمي، يتوجه إليه الناس بقلوبهم وعقولهم؛ بغية الرشاد، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[سورة البقرة:125]. وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران:96].

والنّفس الإنسانية الفائزة هي التي تلتحق بركب الحضارة الحقيقية. وأمـا الـنّفس البـشرية الخاسرة؛ فهي التي يمر عليها قطار الحضارة، ولا تلتحق بقافلتـه،﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [سورة يونس:108].

وفي نص قرآني، يستفز نفس الإنسان، ويهز مشاعرها، ويشد مركز التفكير فيها، يقول الله ﷻ، مخاطباً، وملاطفاً الإنسان، مذكراً له بالحقيقة التي يصلح بها، والمنهج الذي منـه يـستمد إلهامه، وأنّه ﷻ هو الذي ينير ظلمته، ويسدد خطاه:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[سورة الملك:14].

فالإنسان هو باني الحضارة، وصاحب أبجديتها، وهو الذي سيعمر الحياة بها، والسبيل إلـى تحقيق ذلك؛ هو بالتلقي ممن خلقه. فالإنسان، لن تتحقق رؤاه إلا عبر طريق واحد؛ هو طريـق الله جل فـي عـلاه، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[سورة الأنعام:153].

وحيدةُ الإنسان عن المنارة الهادية؛ سيجعل سفينته تغرق في دياجير الظلام، وتتحطّم غريقةً في ظلمـات البحـار. ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾[سورة الأنعام:161].

فالحضارة الإسلامية رحيمة بالإنسان، تكلأه منذ محياه، وترعاه في صباه، وتدعوه في شبابه لحملها؛ لتحقيق رؤاه في الحياة السعيدة، والحضارة الفذّة؛ حضارة الإنسان، والحيـاة.﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة لقمان:22-24].

فهي حضارة وثيقة العرى، تزدان بها الحياة الدنيا، وعاقبتها جنةٌ وحبور في الآخرة. وأمـا أولئك اللاهون عن معينها الرائق، وخيرها الدافق؛ فهم طلاّب متَعٍ آنيةٍ، زين الشيطان بهارجها، وخطفَ لمعانُها الزائف جلالَ الحقيقة.

وخطاب الباري ﷻ للإنسان؛ خطابٌ جلي بين؛ يتغلغل إلى أعماق فطرته السوية المترعة من كأس الحقيقة الإنسانية بكل خصائصها الفريدة في الخلق،﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[سورة الروم:30].

وحينما يرجع الإنسان إلى فطرته السوية الطاهرة البريئة البيضاء؛ فإنه ينحاز بها إلى الجهة التي تبني له حضارته الواعدة،﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ (1) مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾[سورة الروم:43-44].

وحينما تُطمس معالم الفطرة الإنسانية، وتُرضخ بالصخرة المادية الصرفة؛ عندها ينتكس الإنسان؛ ويغلب الطابع الحيواني عليه؛ ويغدو وحشاً ضارياً؛ وعدواً للحضارة.﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ ﴾[سورة الفرقان:44].

---

(1) لشاعر الإسلام محمد إقبال كلمة في ذلك قال: "على أن الدين الذي هو في أرفع مراتبه ليس إلا سعياً وراء حياةٍ أعظم". ينظر: إقبال، محمد: **تجديد الفكر الديني في الإسلام**. 1مج. ط2. ترجمه عباس محمود. القاهرة: لجنة التأليف والنشر والترجمة. 1968م. ص210.

المبحث الثالث

البشائر النصية في مستقبل تمكين الحضارة الإسلامية

التمكين للحضارة للإسلامية في الوجود، أمر مقطوع به، ولا يخامر الباحث شك حوله، والأدلة النقلية، والعقلية، والواقعية(1) تتضافر معاً؛ لتصل إلى هذه النتيجة.

والتمكين فعله الثلاثي مكن، و"المكان عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء"(2). "وسمي موضع الطير مكِنةً؛ لتمكنه فيه، ويقال: إن فلاناً لذو مكنة في السلطان، وتمكّن من الشيء استمكن: ظَفِر"(3).

"والتمكين في الأرض تقوية التصرف في منافع الأرض، والاستظهار بأسباب الدنيا بأن يكون في منعة من العدو، وفي سعة من الرزق، وفي حسن حال"(4).

وجولة في كتاب الله ﷻ حول مصطلح التمكين، تدلنا على معانيه، وهي: الاستقرار والظفر، والتمكّن.

وهذا قمة ما تُعطى الحضارة، أن يقر قرارها، وتوطّد أركانها، ويشمخ بنيانها.﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف10]. أي "جعلنا لكم فيها مكاناً، وقراراً، أو ملّكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها"(5).

وقد ذكر القرآن الكريم التمكين في معرض المنّة، على النبي يوسف ﷺ، فقال ﷻ:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى

---

(1) قسم الدكتور عبد الله عزام المبشّرات في مستقبل الإسلام إلى مبشرات نصية، وواقعية. ينظر: عزام، .د.عبد الله: **الإسلام ومستقبل البشرية**. 1مج. ط1. الأردن: مكتبة المنار. 1400هـ/1980م. ص67،40. وهناك فروق بين العرضين.

(2) الأصفهاني: **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**. ص525.

(3) ابن منظور: **لسان العرب**. ج13. ص113، 114. مادة مكن.

(4) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**. ج7ص138.

(5) الزمخشري: **الكشاف**.ص357.

ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة يوسف:21]. وهذا هو التمكين الأول، ليوسف ﷺ.

وأما التمكين الثاني، فهو قوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة يوسف:54-56].

والمعنى هنا:"مكّنا له في أرض مصر، وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه"(1). فأخذ التمكين هنا ليوسف ﷺ بعداً سياسياً على المستوى العام. "والتمكين في الأرض أعم من التمكين السابق في بيت العزيز، لقد صارت صلاحياته الآن تستغرق القطر المصري كلّه. وإن يوسف لما لم يجعل للشهوات على نفسه تمكّناً؛ مكّنه الله ملك مصر"(2).

وأفصح القرآن الكريم عن ضرورة التمكين للحضارة، فقال ﷻ عن الحضارة التي قادها ذو القرنين:﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[سورة الكهف:83-85]. فقد تمكّنت حضارة ذي القرنين في الأرض، وأوتيت أسباب ذلك، ولعل من هذه الأسباب مقومات الحضارة، وعوامل بقائها، مادياً، ومعنوياً(3).

وتحدث القرآن عن تمكين ذي القرنين أيضاً،﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾﴾[سورة الكهف:95].

واستعرض القرآن الكريم سلسلةً من الحضارات الغابرة التي حازت نعمةَ التمكين، قال ﷻ:﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام:6].

---

(1) الزمخشري: **الكشاف**. ص509.

(2) نوفل، د.أحمد: **سورة يوسف دراسة تحليلية**. 1مج. ط1. عمان: دار الفرقان. 1409هـ/1989م. ص457.

(3) ذكرتُ في هذه الرسالة مقومات الحضارة في الفصل الأول، وفي الثاني ضوابط الأمن في استمرارها. وقد قام الدكتور علي الصلاّبي بدراسة عن التمكين، وذكر أسبابه مادية ومعنوية. والدراسة مفيدة، وفيها تشعب. بيد أنها ليست محل بحث عندي، وما ذكرته يغني. ينظر: الصلاّبي، د. علي محمد: **تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم**. 1مج. ط1. القاهرة: دار الفجر للتراث. 1424هـ/2003م. ص228.

ولم ترع تلك الحضاراتُ هذه النعمة، "لقد أُهلكوا، وغبروا؛ فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء، إنما عمرها جيل آخر، ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان، ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!"(1).

وفي سياق الحديث القرآني عن حضارة عاد، قال ﷻ:﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:26].

فالحضارة لا تستطيع أن تمنح البشرية عطاء ما لم تتمكّن، وتستقر، وهذا يعني أن ٱللَّهُ ﷻ "أعطاهم من الاستقلال في الأرض، وأسباب التصرف فيها"(2). ما يستطيعون به تأسيس حضارتهم؛ وجعل هذه الحضارة معطاءة.

أما الحضارة الإسلامية الرشيدة؛ فقد حظيت بالتمكين الرباني، وتقلّبت في نِعمِه، ونعيمه، قال ﷻ:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ (3) وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة النور:55].

وهذا الوعد الرباني، وقع حقيقة على الأرض، فتم وعد ٱللَّهِ، ومن أصدقُ من ٱللَّهِ قيلاً؟ ومن أصدق من ٱللَّهِ حديثاً؟ "ويعني بقوله: إن مكّنّاهم في الأرض، إن وطّنّا لهم في البلاد"(4).

"والاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم، والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل، والطمأنينة، لا على الظلم والقهر. وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية، والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد، والجماعة، إلى مدارج الحيوان"(5).

---

(1) قطب: **في ظلال القرآن**. ج2ص1037.

(2) رضا: **تفسير المنار**.ج6ص730.

(3) "شرف ٱللَّهُ أتباعه هنا ثلاث مرات:مرة: حين ارتضى لهم الإسلام دينا. ومرة: حين أضاف هذا الدين لهم. والثالثة:حين جعل تمكين هذا الدين لهم." الفرماوي، د.عبد الحي: **المسلمون بين الأزمة والنهضة**. 1مج. دار التوزيع والنشر الإسلامية. ص229. لم يذكر التاريخ ولا بلد النشر ولا الطبعة.

(4) الطبري: **جامع البيان عن تأويل القرآن**. ج 17ص178.

(1) قطب: **في ظلال القرآن**. ج4ص2529.

ووعد ﷻ بالتمكين، " أن يمكّن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام، وتمكينه تثبيته وتوطيده"[1].

والحضارة الإسلامية التي حظيت بالتمكين لها في الأرض؛ لهي الحضارة نفسها التي ستحظى بالتمكين مرة أخرى، في رحلة الإياب في تتويج تاج الحضارة المرصع بالإسلام على الرأس الذي يستحق حمله.

وما اعترى حضارتنا المعاصرة من ضعف، واستلاب لتاجها، تحت وطأة التقهقر في عناصر، ومقومات الحضارة، وتراجع أبنائها تحت تأثير عوامل كثيرة، منها ما يتعلق بسنن التمكين التي لا تحابي أحداً، ومنها بعوامل خارجية.

هذه الحضارة، لهي اليوم أشد ما تكون تصميماً على استعادة دورها في بناء الحياة الإنسانية. وأبناؤها العاملون، يتوثّبون لرؤيتها في حلّل الوقار، والهيبة. والإنسانية حرى عطشاً لسلسبيل نَميرها العذْبِ الفُرات.

والباحث يقر بأن حضارتَنا العملاقة، أصابها ما أصابها؛ بسبب أبنائها، ولكنها على مستوى الفكر، والحضور القلبي، وشواهد لها في الحياة، ما زالت زاخرة بالعطاء، لها قدرة عجيبة في دفع معتقِدِها نحو الصعود، ورفعِه من دركات الانحدار إلى قمم الجبال. فالعقيدة التي قامت عليها حضارتنا، حيوية حركية؛ تستعصي على الخمود؛ وتستثقل القيود، فإذا ما ادلهمت الخطوب؛ سرعان ما تضيء آلافَ الشموع من شجرة لا ينفدُ زيتُها، ولا يخبو ضياؤها، ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾[سورة النور:35].

فحضارتنا بنيتْ على عقيدة؛ فيها وقود هائل، إذا ما انقدحت شرارته في النفس الإنسانية؛ فإن قناديل الضياء ستضيء الحياة من جديد. وذلك ما سيكون بإذن ﷻ تعالى القائل:﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦ ﴾ [سورة القصص:5-6].

(2) الزمخشري: **الكشاف**. ص734.

فهذا وعدٌ نافذٌ للمستضعفين. وستنتهي مرحلةُ الاستضعافِ، وتبدأ مرحلةُ الاستخلاف، وما هي على الله ببعيد. وجيلُ النّصر سيرثُ جيلَ الشهادة، لا محالة.

والوعد القرآني، لا يزال قائماً، لمن تمثّل شرطه المتمثّل بلب الحضارة وجوهرها، وهو الإيمان بالله، والتصور الاعتقادي الصحيح. ثم بعد ذلك تتحقق أمنية البشرية بالحضارة السعيدة؛ فلا تطغى، ولا تظلم، وتقود إلى الهداية،﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج:41].

لقد ضمن القرآن الكريم، الفلاح للحضارة الحق التي اهتدت بالنور الإلهي في شتى مراحلها، منذ ولادتها، وهي يافعة غراء، تشدي تراتيلُها وجيب القلوب، وتروي عيونُها عطشَ الصحارى، وتنهمر بشائرها آياتٍ توطد رهفَ القلبِ الوجل من المستقبل، قال ﷻ:﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف:157].

وتمضي البشائر الإيمانية في طريقها، تأخذ بيدِ بناةِ الحضارة، تأكيداتٍ جازمةً، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[سورة غافر:51]. فهي بشارةٌ، توطّد العزيمةَ، وتستشرف المستقبلَ الوضاء، وتفتّتُ أوهام الهزيمةِ، وتبدد سحائب اليأس قزعاً متفرقة،﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج:15]. فهي قناعةٌ، وعقيدة توازي الجبالَ في ثباتها، وتناطح السحاب في عظمتها، وتهزأ بخصومها المجرمين بما استعدت لهم من حقائق الإيمان، وجلجلته في ثنايا الأنْفُس، والضمائر، وميادين الحياة،﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الروم:47].

فالبشائر بتمكين الحضارة الحقّ، كلمةُ الله ﷻ، التي لا تتغير، وقضاؤه الذي لا يتبدل، وصفحةٌ مسطورةٌ في سجل الكتابِ المكنون في صحائف الغيب الطاهرةِ، وبعد قضاء قضائه النافذ؛ فلا معقب لحكمه. رفعت الأقلام، وجفّت الصحف، وتلاشى وعيد الخصومِ الأغرار، وانتصر قضاء الله الجبار، ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [سورة الصافات:171-182].

وبشائر تمكين الحضارةِ الحقّ، تزينت من مشكاة النبوة أيضاً، وخُطت خطوطُها المتلألئة من محبرةِ الوحي، وانسابت درراً من فم النبي الطهور المعصوم ﷺ، وهي حقائقُ الصدق من الصادق المصدوق، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، غريباً، فطوبى للغرباء"(1). وفي رواية:"فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس"(2).

ولئن انتكس أبناء حضارة الإسلام، أو تقهقر الركب عن قافلةِ الحضارة، وقيادةِ دفّتها؛ فإن نفراً من أبنائها، يظلون فئةً حية، وقلباً نابضاً، يبعث الروح في جسدها؛ فتنهض من جديد؛ لتحمل مشعل النور الحضاري الذي لا يبيد. عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين؛ حتى يأتيهم أمر الله؛ وهم ظاهرون"(3).

---

(1) مسلم: **صحيح مسلم**. رقم الحديث145. كتاب الإيمان. باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وإنه يأرز بين المسجدين. رقم الحديث 232. ج1ص130.

(2) الترمذي: **سنن الترمذي**. كتاب الإيمان. باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. رقم الحديث2630. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. ج5ص18.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**. كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم. رقم الحديث6881. ج6ص2667. مسلم: **صحيح مسلم**. كتاب الإمارة. باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم. رقم الحديث1921. ج3ص1523.

وعن ثوبان[1] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحـق، لا يضرهم من خذلهم؛ حتى يأتي أمر الله؛ وهم كذلك"[2].

وعن ثوبان ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ:"إن الله زوى[3] لـي الأرض؛ فرأيـت مـشارقها، ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر، والأبيض[4]"[5].

والبشائر النصية من النورين؛ نور الكتاب، والسنّة، هما دافعان يدفعان للعمل، والنهـوض، ويلهبان مشاعر المسلمين للمسارعة، والسباق في ميدان الحضارة، وسـاحتها الرحيبـة. وهمـا يعجلان بالمسلمين السير؛ لتسلم الراية الحضارية، وجمع الناس عليها.

---

(1) ثوبان مولى رسول الله ﷺ.مات في سنة 54هـ. ينظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء**. ج3ص15. ابن حجر: **الإصابة**. ج1ص413.

(2) مسلم: **صحيح مـسلم**. كتاب الإمارة. باب قول النبي ﷺ "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مـن خالفهم". رقم الحديث1920. ج3ص1523.

(3) زوى:جمع. والزي: الجمع والقبض. ينظر: الزمخشري، محمود بن عمر: **الفائق في غريب الحديث والأثـر**. 4مـج. ط2. تحقيق علي محمد البجاوي. ومحمد أبو الفضل إبراهيم. لبنان: دار المعرفة. ج2ص128. لم يـذكر الطبعـة ولا التاريخ.

(4) المراد بالكنزين: الذهب والفضة. والمراد: كنزي كسرى وقيصر ملكي العراق الشام. ينظر: النووي: **شـرح صـحيح مسلم**. ج18ص13.

(5) مسلم. **صحيح مسلم**. كتاب الفتن وأشراط الساعة.باب هلاك هذه الأمـة بعـضهم بـبعض. رقـم الحـديث2889. ج4ص2215.

المبحث الرابع

الحضارة الإسلامية وارثة الحضارات

لا يخفى على عاقل، أن الحضارة المادية التي تقود العالم اليوم، قد أشقت الناس، وطحنت المستضعفين في طاحونة الدمار، ونظرت إليهم نظرة أقلّ من الحيوانات، واسترهبتهم بقوتها الغاشمة، وساست الشعوب بالسيف، والعصا، والإرهاب، وأكرهتهم بالإذعان للحضارة المادية بطائرات الشّبح، وقاذفات ب52، وشتى أساليب الدمار الفتّاك.

ولم تخْفِ هذه الحضارة، عداوتها، وحقدها على الحضارة الإسلامية التي بدأت تنمو في نفوس المسلمين، وتزدهر تدريجياً في واقعهم. فقد صرح "جو كالفن" القائد الأعلى السابق لقوات حلف الأطلسي، في كلمته الوداعية في بروكسل: "إننا قد ربحنا الحرب الباردة، وها نحن نعود اليوم بعد 70عاماً من الصراعات الضالة إلى محور الصراع القائم منذ 1300 سنة: إنها المجابهة الكبيرة مع الإسلام"[1]. وشنّت حكومات الحضارة المادية، حروباً وقائية ضد الحضارة الإسلامية القادمة، وأحاطتها بأسوار شاهقة من الأكاذيب، والأراجيف؛ كي تمنع أشعةَ النّور من التسلل إلى قلوب المسلمين، وغيرهم. وهي لا تني في حجب الحقيقة عن أهلها، وعن الناس جميعاً.

واتخذت مؤسسة الحكم في الحضارة المادية هذا الموقف؛ لأنها تعلم علم اليقين، أن المستقبل للإسلام، وحضارته. وإلاّ، ما هو المسوغ لكل هذه الحروب الطاحنة فكرياً، ودموياً على الإسلام، والمسلمين؟

---

(1) الشامي، د.علي: **الحضارة والنظام العالمي أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب**. 1م ج. بيروت: دار الإنسانية. 1995م. ص109. لم تذكر الطبعة. وهذا الكتاب حوى نقولاً مطولة للساسة، والمثقفين الغربيين حول نظرتهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين.

وعودة الحضارة الإسلامية لقيادة الحياة، قَدَرٌ حتمي، أدرك صنّاع الحضارة المادية أمـره، ورأوا ببعد نظرهم، ملامح خيوط النور؛ تقشع الظلمات السوداء التي سودتها حضارتهم الماديـة في الحياة.

قال "غلادستون الذي كان الوزير الأول في بريطانيا:" ما دام هذا القـرآن موجـوداً؛ فلـن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان"[1].

لقد تلقّت الحضارة الإسلامية، ضرباتٍ رهيبةً، وتعرضت لهجومٍ كاسح، وحمـلاتٍ عنيفـةٍ شعواء، ومكائد خبيثة، وحشد طاغوتي حقود، لم تتعرض لمثله حضارة قطّ، ومع ذلـك بقيـت البنية الأساسية لهذه الحضارة قائمة قوية، وبنيتها الإسلام العظيم، وعقيدته الخلاّقـة، التـي مـا زالت قادرة على ضخّ الحضارة في أوردة الحياة، ما التجأ الإنسان إليها، وتفاعل معها.

إن قوة صمود الحضارة الإسلامية، لهو دليل ساطع، وبرهان قاطع، على أن هذه الحضارة، هي الحضارة الوارثة، لما سبقها من حضارات، وهي الحضارة الزاحفة؛ لتطوي تحت أقـدامها كل حضارةٍ عاندت الفطرةَ الإنسانية، وفارقت طريقَ ٱللَّهِ ﷻ.

فالزحفُ يزحفُ لا يثنيه معتقلٌ يطوي برجليه أقزاماً وأصناما

ومن ثَم سيسلخ نهارها ليلَ الحضاراتِ المعتمة، وسيتنفّس ظلام الحضارات إشراقةَ الفجـر القـادم. ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾[سورة آل عمران:27]. "إن القرآن حين يأتي بهذا التشبيه، إنما ينبه إلـى أن الذين تلفّهم ظلماتُ المصائب، والشقاء، لمخرجون من تحت أجنحة الأشباح التي تغطّيهم إلى نور السعادة، والمجد"[2].

---

(1) أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**. ص39. واسم الكاتب قبل إسلامه."ليوبولد فايس". والكتاب رائع في باب الحضارة الغربية، والإسلام، وفيه تحليلات قيمة. أنصح كلّ مثقف بقراءته.

(2) صديقي، عبد الحميد: **تفسير التاريخ**. 1مج. ط1. ترجمة د.كاظم الجوادي. الكويت: دار القلـم. 1400هـ ـ/1980م. ص 147. وهذا الكتاب من أوائل ما كتب في التفسير الإسلامي للتاريخ. وامتاز الكتاب بالعبارة المشرقة.

ومع هذا، فقد أدرك مفكّرون غربيون إدراكاً تاماً أن المستقبل للإسلام، وفي تشخيص حالة المسلمين، والإسلام، والحضارة. قال المفكّر الأمريكي "جورج سارطون، عن علة تأخّر استلام زمام المبادرة، وهي أن الإسلام "أصبح محجوباً عن المسلمين"(1).

وتحدث عن المسلمين، وقيادة الحضارة، فقال:"إن شعوب الشرق الأوسط قد سبق وقادت العالم،... ومن أجل ذلك ليس ثمت ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب، أو البعيد"(2).

فأولئك القادة باتوا على يقين، أن حضارة الإسلام بدأت تبعث الحياة في أبنائها، وأنّهم بدأوا يستيقظون من سباتهم العميق، ففي معرض الحديث عن الإسلام في الشرق الأوسط، قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون: " إن رياح التغيير في العالم الثالث تكتسب قوة العاصفة، ونحن لا نستطيع إيقافها، ولكننا نستطيع أن نساعد في تغيير اتجاهها"(3).

ويطلقون على النور الساطع، "بالخطر الأخضر"(4). والله تعالى، غالب على أمره، وهو القائل:﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝﴾ [سورة الصف:8-9].

وهذا الدين العظيم، لقادر أن يجتاز الحدود، والسدود؛ فقد أودع الله ﷻ فيه، قدرةً عجيبة، إنه قادر على الانتشار، والتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، في فترات الحرب، كما هو قادر على ذلك في كل وقت. وقادر على الحركة في أثناء قوة أبنائه، وفي أثناء ضعفهم، وكم من بلاد

---

(1) سارطون، د.جورج: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**. 1مج. ط1. ترجمة د.عمر فروخ. بيروت: مكتبة المعارف. ص68. وسارطون: مستشرق أمريكي أستاذ في جامعة هارفرد أشهر جامعات العالم، وهي في أمريكا. والكتاب محاضرة طويلة دعت إلى سماعها مكتبة الكونغرس الأمريكي.

(2) المصدر السابق: ص69.

(3) نيكسون: **نصر بلا حرب**. ص308.

(4) القرضاوي، د.يوسف: **أمتنا بين قرنين**. 1مج. ط1. القاهرة: دار الشروق. 1421هـ/2000م. ص257. يكنّون بالخطر الأخضر عن الإسلام. وذلك بعد ما انتهى الخطر الأحمر الشيوعي. وقد أكّد ذلك صمويل هنغتون أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد، والقريب من صناع القرار في أمريكا، في كتابه (صدام الحضارات) أن التفاهم ممكن مع الحضارات الباقية باستثناء الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية. ينظر: ص255.

أشرقت عليها شمس الإسلام، دون حرب، ولا قتال. ولكن ائتوني ببلد واحد، دخل في الحضارة المادية قبل أن تسفك دماء أبنائه بآلة الحرب اللعينة من الحضارة المادية.

فوراثة الحضارة الإسلامية للحضارات كلها، وعلى وجه الخصوص، وراثته الحضارة المادية، هو أمر مجزوم به، فالله تعالى قال:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة التوبة:33]. فلن تحول كراهية المشركين دون انتشار هداية الحضارة الإسلامية.

كما أن وراثة الحضارة الإسلامية للحضارات الظالمة، هي وثيقة قرآنية، وشـهادة ربانيـة، وكفى بالله شـهيداً، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[سورة الفتح:28]. "فهناك تلازم سببي بين نشأة الإسلام، وقيام الحضارة"(1).

ولئن قضت سنُة الله ﷻ أن تنتهي حضارة، وتبدأ أخرى؛ فإن "الحضارات لا تفنى، وإنمـا هي تموت، وتتحال، ويرثها غيرها من الأمم، ويظل الأمر على ذلك حتى [يـرث] الله الأرض ومن عليها، وهو سبحانه خير الوارثين... ويستثنى من ذلك كله حضارة الإسلام، لأن أساسـها ليس عنصراً بشرياً يناله الضعف والبلى، ولكن أساسها العقيدة، وهي لا تزال تتجدد، وتتعاقـب على حمل رايتها الأجيال"(2).

ودورة التاريخ، تبرهن الآيةَ الكريمة ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾[سورة آل عمران:140]. فلـن تبقى الحضارة في يد الدول الغربية تحتكرها؛ لتذيق العالم مرارتها. فسنّة التداول تنـاقض هـذا الوهم. وأما السيطرة العلمية لهذه الحضارة، "فلن يخفى أن المنجزات التكنولوجية أصبحت فـي حركة انتقال متصلة من بلد إلى آخر يتعاظم خطرها يوماً بعد آخر، الأمر الذي أصبح يحد مـن تفوق أوروبا الغربية"(3).

---

(1) فتحي، د. أحمد محمود. وآخرون: **في فلسفة الحضارة اليونانية ـ الإسلامية ـ ـ الغربيـة**. دار المعرفـة الجامعيـة. 2000م. ص57. لم يذكر بلد النشر، ولا الطبعة.

(2) مؤنس: **الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**. ص281،280.

(1) سالم، د. محمد عزيز نظمي: **جدلية التاريخ والحضارة**. 1مج. الاسـكندرية. مؤسـسة شـباب الجامعـة. 1996م. ص154. لم يذكر رقم الطبعة.

والمسلمون اليوم، يعون وعياً تاماً، أثر الأخذ بالأسباب في معركة الحضارة، وإثبات الـذات الصحيحة. ولهذا "فإن مراجعة للتاريخ الحديث الذي تمت فيـه عمليـة الانكـسار أمـام الآلـة الأوروبية العنيفة المتفوقة، يجب ألاّ تدفع إلى الإمساك أكثر فأكثر بطريق الضلالة، بدلاً مـن أن تدرك بدقة تلك القوانين التي تشكّل شروطاً لأسباب القوة، والضعف"(1).

إن مهمة الأمة الإسلامية، مهمة رسالية، وذلك يتمثّل بالحضور الحضاري الذي يقود البشرية كلّها، وهذا أمر إلهي؛ واجب على المسلمين أن ينهضوا به لهذا كانت مسألة وراثـة الحـضارة الإسلامية للحضارات القائمة قدراً مقدوراً، قال الله ﷻ: ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [سورة الحج:78].

لقد أثقلت الحضارة المادية كاهل العالم، وملأته إرهاباً، وخراباً، وحروباً، واستعبدته للمـادة والمتعة، وتركته إنساناً خاوياً. إنها هدمت الإنسان وقضت عليه، بالقضاء على الجانب الروحي، والأخلاقي، والإنساني فيه. وسئمت الإنسانية ظلام هذه الحضارة، وضـاقت ذرعـاً بتـسلطها، وعافت الأنفس غوايتّها، وضلالها؛ إنها حضارة الذئاب، وهل ترعى الذئاب الغنم؟

إن المفارقات الحضارية التي صنعتها الحضارة المادية الغربية؛ لن تصمد طويلاً أمام النفس البشرية التي لم تعد تحتمل ظلمها، وهذه المفارقات "ستشتد خطورة، وخطراً، وستقف عقبـات، ضخمة، متفاقمة في وجه التقدم الحضاري المقبل، مما ينذر بأن المعركة الحـضارية الـضارية المنتشرة التي تخوضها البشرية اليوم؛ ستزداد ضراوة، وانتشاراً في الآونة المقبلة"(2).

---

(2) شفيق، منير: **الإسلام في معركة الحضارة**.1 مج. ط1. القدس: وكالة أبو عرفة. 1982. ص82. لم تـذكر الطبعـة. وقال الأستاذ مالك بن نبي مما يؤخذ على المشغولين عن حضارة الإسلام، ويهتمون بالحضارة المادية، إنهم يعملـون "على جمع أكوام من منتجات الحضارة، أكثر من أن يهدف إلى بناء الحضارة" ينظر: ابن نبـي: **شـروط النهـضة**. ص63.

(1) زريق: **في معركة الحضارة**. ص374.

وعودة الإسلام المظفّرة، لقيادة الحضارة، ووقايتها من شرور الأشرار، هي عودة أكيدة ما دام المسلمون يعملون لتحقيق ذلك. ولا يزال أبناء حضارة الإسلام، يصارعون في كفاح مرير، وجهاد دائم، إلى أن تخفق ألوية الحضارة الإيمانية في الربوع، ويركز اللواء في ساحة الحياة.

وقد ترتجف أوصال رجال، فرقاً من حضارة الغرب المادية؛ وهم يرونها تكتسح بلادنا المباركة، أو ربما تخفق قلوبهم خوفاً؛ وهم يشاهدون تلوث حياتنا من الحضارة المادية؛ أو توجل أفئدتهم؛ وهم يرون عساكر الطغيان الغربي؛ تنشر رائحة الموت في كلّ مكان من أرضنا الطّيبة؛ أو وهم يصولون صولة المستكبر في منابع النّور، والهدى. وهذا كلّه في غير محلّه، وتقديرٌ شائن، وتحليل وجِل. فقد سبق أن اجتاحت جيوش الهمجية التترية البربرية بغداد، والشرق الإسلامي، وسطعت شمس حضارتنا، ونشرت أشعتَها الذهبية من جديد، ونهضت قائمةً حية في الحياة، وحملها الغزاة؛ فغدت عقيدتَهم، وحضارتَهم.

ولقد تلطّخت أرضنا الطهور، بجيوش الزحف الصليبي، وأزهقوا الأرواح، وأفسدوا في البلاد، وقتلوا العباد؛ وما استطاعت قوتهم الطاغية أن تقتل روح الحضارة الإسلامية. "وبالمِثل في أثناء منازلة إسبانيا، والغرب للإسلام في الأندلس، واكتساحهما له حربياً، اكتسحهم علمياً، وحضارياً، وتكونت في شرق أوربا دولة العثمانيين الأتراك الإسلامية العظمى"[(1)].

وهكذا، فحضارتنا حضارة الحياة، وحضارة الإنسان، والكون، وإن حقائق التاريخ، تؤكّد أن حضارتَنا تستعصي على القيد، ولا تقبل الاندحار، وهي قويةٌ شامخةٌ؛ سرعان ما توهب الحياة، والحضارةُ لمن وهبها نفسه، وعقلَه. وهي على موعد قادم بإذن الله،﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[سورة الصافات:61].

---

(2) ضيف، د.شوقي: **الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة**. 1مج. القاهرة: دار المعارف. ص73. بلا تاريخ، ولا طبعة.

لقد استطاع المؤرخ البريطاني توينبي أن ينفذ بنظراته العميقة، إلى مستقبل الحضارة الإسلامية، فقال: "أما المجتمع الإسلامي، فقد يتيسر لنا تمييز نذير أيدلوجي لدولة عالمية تتمثل في حركة الجامعة الإسلامية"(1).

والحضارة الإسلامية، ما زالت آثارها ماثلةً في الحياة، وهناك تمسكٌ بها، ومبشراتُ عودتها للحياة تسعدها، وتزيلُ غاشيةَ الظّلام عنها؛ إلى أن تصل إلى مرحلة التمكين السياسي، "فإن كل الأمم صاحبة النزعات الحضارية..أي تلك التي تريد أن تمنح العالم شيئاً جديداً.. تحرص كل الحرص على نشر لغتِها، ودينِها، وثقافتِها...، وهنا يصبح الجيش العسكري مجرد مساعدٍ لهذا الكسح الحضاري"(2). وليس على أدلّ من ذلك؛ انتشار الحضارة الإسلامية في كثير من بقاع الأرض، فكرياً وثقافياً، دون أدنى علاقة بالسيف، والقتال.

"فغاية الحضارة الارتفاع بالحياة الإنسانية، والحياة الإنسانية معقّدة كثيرة الجوانب، فإن فيها حياة فكرية عقلية، وحياة مادية عملية معاشية، وحياة نفسية خلقية، وحياة اجتماعية، إلى جانب الحياة الفردية. والحضارة الصالحة هي التي ترتفع بهذه الجوانب كلها وتعدل بينها"(3).
وكل جانب من هذه الجوانب، تخطو فيه الحضارة الإسلامية خطوة، هي في الحقيقة تقربها من الأخذ بالزمام، وبسط الرحمة، والعدل، والسكينة، والسعادة لبني البشر.

ووراثة الحضارة الإسلامية للحضارة المادية المعاصرة؛ هو سنّة من سنن الاجتماع؛ فهي الحضارة الوحيدة المؤهلة لهذه المسؤولية. أما أبناؤها، والمؤمنون بها، فهم كلما علموا هذه المسؤولية، وقدروها، وعملوا على تحقيقها؛ كلما قصروا طريق الوصول على السعادة، وفي حالة تخلّيهم عن هذه المسؤولية، فإن سنُة ﷲ تعالى اقتضت التبديل، في مثل هذه الحال، قال ﷻ: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾[سورة محمد:38]. ، فقد شاء ﷲ تعالى أن يدخل المغول الغزاة في دين الإسلام، وأن يحملوا رايتَه، بعدما أتوا زاحفين بالموت، والدمار لديار المسلمين، ومحق حضارتهم.

---

(1) توينبي: **مختصر دراسة التاريخ**. ج3ص410. هذه الجامعة غير موجودة الآن. والمهم هو في النظرة المستقبلية.
(2) عويس: **العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري**. ص107.
(3) المبارك، محمد: **الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية**. 1مج. ط3. بيروت: دار الفكر. 1393هـ/1973م. ص28.

ولا يغتر أحد من سطوة الحضارة المادية، أو ينبهر بعنفوانها، وجرائمها في العالم، وفي بلاد المسلمين على وجه الخصوص؛ فهناك "فرق بين الإعزاز والتسليط.. وأن تنتبه إلى أن علو الغرب بحضارته، وقوته، وعنفوانه على الأمة الإسلامية؛ إنما هو من قبيل علو العصا؛ إذ يهوي بها الجلاد على ظهر من يسومه العذاب، والنكال؛ وليس بحال من الأحوال علو عز، وإكرام"(1).

إن قوة الحضارة المادية كانت في زمن ألم الضعف في أبناء الحضارة الإسلامية، ومع ذلك استطاعت حضارتنا أن تصمد طويلاً، وحاولت الحضارة الغربية أن تنزع أسس الحضارة الإسلامية من صدور أبنائها، وجاهدت في ذلك جهاداً كبيراً. ومع هذا فها هي حضارتنا تنتعش من جديد."ولا شك أن الحضارة الغربية لا تستطيع أن تزاحم الإسلام بمنكبيها، وتقوم أمامه كالنّد"(2).

إننا في رحلة الإياب إلى الصدارة، وقيادة الحضارة؛ فهذا يقين يعمر الصدور. ونحن في هذه العودة المرتقبة نرجو الخير، والرحمة لأنفسنا وللإنسانية جمعاء. ولا نهدف إلى التشفّي، والعدوان، كما فعلت الحضارة المادية الطاغية."لقد اقترب الوقت لأن يدبر أمر الوراثة الأرضية من جديد، وأن يسقط الظالمون المسرفون عن مقام الخلافة الأرضية، وتشرف بها أمة أخرى، لعلها أن تكون من الأمم المستضعفة، فلينظر الناظرون من يقع عليه الانتخاب الإلهي في هذه المرة"(3).

وإن الناظر المتعمق في صروف الدهر، ومجرى الحضارات، يرى بنور الله ﷻ، أن السوسة التي تنخر في شجرة الحضارة المادية؛ قد بدأت تأكل جذورها، وأنّه بجانب هذه الشجرة، الضخمة النخِرة، يرى براعم نامية، وأشتالاً يانعة، تنمو باطّراد، وستصبح دوحة، باسقة، إنها شجرة الإسلام العظيم.﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[سورة إبراهيم:24-26].

---

(1) البوطي: **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**. ص179

(2) المودودي: **نحن والحضارة الغربية**. ص45.

(3) المصدر السابق: ص81.

وسيتحقق قول النبي ﷺ فيما رواه عنه تميم الداري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار. ولا يترك الله بيت مدر، ولا وبر إلا أدخلـه الله هـذا الدين بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر"(1).

---

(1) ينظر: ابن حنبل: **مسند أحمد.** ج4. ص103. ابن حبان: **صحيح ابن حبان.** ج15. ص92. الطبراني: **المعجم الكبير.** ج20. ص254. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. **ينظر:** الهيثمي: **مجمع الزوائد.** ج6. ص14. الحاكم: **المستدرك على الصحيحين.** ج4. ص477. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. البيهقي: **سنن البيهقـي.** ج9. ص181. ابن مندة، محمد بن إسحاق: **الإيمان.** 2مج. ط2. تحقيق د.علي الفقيهي. بيروت: مؤسـسة الرسـالة. 1406 هـ. ج2. ص982. وقال: إسناده صحيح. والحديث مروي عن تميم وعن المقـداد بـن الأسـود. وصـححه الألباني. ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الـصحيحة.** الرياض: مكتبة المعارف. ج1ص32. بلا تـاريخ، ولا طبعة. وله شاهد من حديث أبي ثعلبة الخشني. رواه الطبراني: **المعجم الكبير.**ج22ص225. والحاكم: **المـستدرك على الصحيحين.**ج1 ص664. وقال: هذا حديث رواته مجمع عليهم بأنهم ثقات إلا أبو فروة يزيد بن سنان وله شـاهد من حديث إبراهيم بن قعيس. وله رواية أخرى قال الحاكم عنها: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الخاتمة

وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث

أهم نتيجة، إنّه بدا بوضوح جلي أن القرآن الكريم هو ربان الحضارة، وقائدها، وبانيها، وأي حديث عن الحضارة بمعزل عن القرآن الكريم؛ هو لغوٌ لا قيمة له، أو كمن يتحدث عن الحياة بلا ماء، أو هواء؛ فلا حضارة بلا هدي القرآن الكريم.

وهناك مجموعة من النتائج أسجلها وهي:

1- دراسة الحضارة تقتضي أن يقف الباحث على تعريفها؛ لكي يسهل الوقوف على مقوماتها، وتطورها، فعرفت الحضارة في اللغة، والاصطلاح. وبعد دراسة مستفيضة تبين للباحث، أن التعريف الأصوب للحضارة هو:"الصورة الحاضرة التي يبدعها الإنسان لما يعتقده في الكون والحياة". ويحسب الباحث أنه مصيب في تعريفه.

2- عرفت المدنية في اللغة والاصطلاح، ورجحت تعريف المدنية على أنّه :"الجانب المادي من الحضارة كالحرف والمكاسب والصناعات". وقارنت بين تعريفي المدنية، والحضارة، ورجحت أن الحضارة أعم من المدنية، والمدنية مظهر خلاّب من مظاهر الحضارة.

3- للحضارة مقومات لا تقوم إلا بها، وعلى رأسها، الإيمان بالله تعالى هو الأساس الذي تبنى عليه الحضارة، و منه ينبثق التصور الصحيح للحياة، والكون، والإنسان، فالحضارة وليدة الأفكار والتصورات. والتصور عن الله ﷻ، أنه الخالق، والهادي، والمطاع، خلق الإنسان، وأوضح له ما يسعده في الدارين، وأمره بالطاعة. وأن الإنسان خليفة الله في الأرض، أرسل إليه الرسل هادين. والكون مسخّر للإنسان؛ ليعمره بالخير، ويبني الحضارة الخيرة. كما أن الحياة الدنيا فرصة ذهبية لإحسان العمل، ولا تقف الحياة عند حدود الدنيا، فالدنيا مرحلة ينتقل منها الإنسان إلى الحياة الحقيقية في الآخرة.

4- العلم مفتاح الحضارة الرشيدة، وباب كنوزها، وبه بدأت أبجديات الحضارة الإسلامية، وذلك من "غار حراء". كما أن العلم له هدف، ورسالة، إذا ما حاد عن الإيمان بالله تعالى

والتصور الصحيح؛ فإنه يتحول إلى وبال، ودمار على الحضارة. واحتفت الحضارة الإسلامية بالعلم احتفاء بليغاً.

5- العمل الصالح هو الساحة الفيحاء، التي يتسابق فيها بناة الحضارة، وهذا العمل له مفهوم شامل وعام، يستغرق ميادين البناء، والعبادة.

6- العدل قوام الحضارة، وسبب من أسباب بقائها مزهرة. وأي حضارة مهما زهت ألوانها، ولم تقم على العدل؛ فإن لعنة الله، ودعوة المظلومين ستطاردها.

6- تعد الأخلاق ركيزة من ركائز الحضارة، والروح التي تسري في أوصالها، وهي نبعة صافية تنساب من الإيمان بالله تعالى.

7- الحضارة الرشيدة، هي التي تملك نظرة شمولية، تستغني بها عن غيرها؛ فتحافظ على تميزها، فكراً وعطاء. ولا يمنع ذلك من أن تستفيد الحضارة من غيرها في أمور لا تؤثر على منهجها، وتميزها.

8- الوجه المشرق للحضارة إنسانيتها، وخطابها الإنساني للبشر، ينصهر الناس في بوتقتها، مؤمنين، وتأنف العنصرية البغيضة.

9- كي تحقق الحضارة أهدافها؛ فإن الاقتصاد المزدهر؛ يعد قوة كبرى في دفعها إلى الصعود، ويبسط الرخاء على أهلها. وهناك حالة خادعة من الازدهار الاقتصادي، وهذا ليس من مقومات الحضارة في شيء، بقدر ما هو من علامات انهيارها، ويتلخص هذا الخداع بالتنعم بمظاهر الترف، ويختفي وراءها ركام هائل من الديون.

10- الحضارة لا يمكن لها أنت تستقر إلا بنظام سياسي، يحميها، ويقيم العدل بين أطرافها، ويوفّر لها نعمة الأمن، ويحافظ عليها.

11- الحضارة لها ضوابط، تساهم في استمرارها، وديمومتها، وتقيها شر الاندثار، والأفول. وأهم ما يساعد الحضارة على البقاء والاستمرار، التناصح بين أفرادها على شتى المواقع. فالنصيحة حركة دؤوب، وعين بصيرة تكشف كل خلل قبل استفحاله.

12- المحاسبة أرقى أشكال النصيحة؛ فهي لا محاباة فيها، وضربت الحضارة الإسلامية أروع الصور في المحاسبة؛ حيث طلبها الخلفاء، وأمروا الأمة بها.

13- الأمر بالمعروف والنهي المنكر، ضابطان لاستمرار الحضارة، ويعبـران عـن صـحوة الضمير، والحرص على الحضارة. وهما سياج حفظ الفضائل، ومنع فشو الرذائل.

14- هناك سنَنٌ إلهية، لا تحابي أحداً، وهي قواعد ربانية في صعود الحضارة وهبوطها، وهي نواميس تحكم حركة التاريخ. والحضارة التي تراعي سنن الله ﷻ هي الحضارة المشرقة، والتي ستفلت من شِباك السقوط، والزوال.

15- كما أن هناك مقومات للحضارة، فهناك عوامل تؤدي إلى أفولها، وعلى رأس هذه العوامل الكفر، فإن سلسلة تفكّك عرى الحضارة الذي قد يصل إلى انهيارها؛ يكمن أساساً في لب العقيدة الفاسدة المحركة لعجلة الحضارة.

16- الظلم أبشع صورة تبرز فيها الحضارة الآيلة للسقوط، ويعجل سيرها إلى مـدافنها. وهـو سيف تنتحر به الحضارة مهما بلغ شأوها، وارتفع شأنها.

17- الترف مظهر خلاّب من مظاهر الحضارة، وهو باعث من بواعث الإسـراف، والفـسوق والعصيان، والبطر، ومن ثَم يصل بالحضارة إلى الهلاك، ويدفع نجمها للأفول.

18- الذنوب والفواحش، سوستان ينخران الحضارة، تدريجياً إلى أن تسقط الحضارة صـريعة من ذنوبها. والحضارة المسرفة بالفواحش، والذنوب تتدحرج عن قمة الهرم إلى أوحال الطين.

19- الاستكبار، والطغيان، وغرور القوة، من أسباب تدمير الحـضارة، فـالقوة إذا لـم تهتـد بالتصور الصحيح تنقلب إلى نقمة على الحضارة. وكثير من الحضارات الزاهـرة، تحطّمـت، وتفتّت باستكبارها. والاستكبار علّة قاتلة للحضارة.

20- الاقتصاد الفاسد، ينقض لبنات الحضارة، ويذريها مع الرياح.

21- تتسم الحضارة الرشيدة، بالنظرة المتوازنة للإنسان. والحضارة التي تنظـر إلـى الحيـاة والإنسان نظرة مادية صرفة، هي حضارة فقدت التوازن، وسيجعلها تتأرجح في نهب الريـاح، تؤذن بالتهاوي.

22- المستقبل للحضارة الحقّ، للحضارة الإسلامية. وهذا المستقبل هناك دلائـل تـدلّ عليـه. والبشائر النصية من النورين: القرآن الكريم والسنة الشريفة، تضافرت؛ لتدلّ على هذا المستقبل الواعد، والذي ينتظر المؤمنين العاملين، والبشرية عطشى لمثل ذلك اليوم.

23- الحضارة الإسلامية، هدفها الإنسان، وتستمر بوجوده. وهي الحضارة الوحيدة التي رعت الإنسان منذ كان نطفة إلى أن أصبح بشراً سوياً. وهو خليفة الله تعالى في الأرض. فحيثما كان الإنسان كانت الحضارة، ولا حضارة حقّة دون رسالة، ولا رسالة إلا من الله ﷻ.

24- لا يشاهد الناس اليوم، إلا الحضارة المادية المعاصرة، وهي حضارة قوية، ولكن تختفي وراء قوتها عوامل انهيارها، وأفول نجمها. فقد مرت في حِقب التاريخ حضارات قوية مستبدة، مثل هذه الحضارة المادية، ولكن الأفول كان حليفها، والغضب الرباني هز أركانها، ودعثرها بين أرجل الزمن. وعوامل أفول نجم هذه الحضارة الظالمة الطاغية المستبدة الفاجرة أكثر من أن تحصى، ومع ذلك ذكرتُ أقوال مفكرين ينتسبون لهذه الحضارة، وتحليلات لهم تتنبئ بأفول نجمها، إضافة إلى ما اقترفت من جرائم بحق الإنسان والإنسانية، والتي يأمل الإنسان في الأرض أن يستريح من طغيانها، وتسلطها. وأما إيجابيات هذه الحضارة فهي ثمرة جهد جماعي، ستحافظ عليها الحضارة الوارثة لها.

25- الحقيقة التي تتراءى من بين غيوم الحضارة المادية، هي بواعث الأمل في الحضارة الإسلامية التي تتحفّز للغد المشرق بنورها، وكلما اقترب الناس من مقومات الحضارة الإسلامية، وعملوا لها؛ كلما اقترب يوم الخلاص، والسعادة؛ فهي الحضارة التي ستغمر الناس، والكون رحمة وعدلاً. وسيسلخ نهارها ليلَ الحضارة المادية المعتمة الداكنة. ولئن بدت أشتالُ الحضارة المادية صغيرة؛ فهي تنمو باطراد قوي.

التوصيات

إن كان من توصيات في نهاية المطاف فإني أوصي:

1- أن تدرس مادة الحضارة الإسلامية من متخصصين في الشريعة، لهم اطلاع وافٍ على الحضارات. أما أن يترك تدريس الحضارة والعلم بها، لمن يساهمون في تدمير الحضارة، ولا يعرفون سوى الأكاذيب، تبثّ للنيل من الحضارة الحق، بينما يغضون الطرف عن نقائص، وكبائر حضارة الباطل، فإن هذا شر كبير.

2- أن يساهم المتخصصون بالعلم الشرعي بالكتابة عن الحضارة، وأن يقبلوا على دراسة الحضارات، وألاّ يزهدوا بهذا العلم الهام الذي غدا وسيلة لغزونا، وترويج بضاعة فاسدة تصدر إلينا.

3- إدراج مادة تدرس في قسم التفسير تدرس "علم السنن الإلهية". فهو من أهم العلوم، وأرقاها.

4- أن تختار نماذج لحضارات ذكرها القرآن، وأن تحلل وفق التحليل القرآني. وأن تدرس دراسة معمقة.

5- أن يعنى بالشأن الحضاري نخبة من أهل الفكر وعلماء الإسلام، يظهرون حضارتنا الخالدة، ويبروزن جوانبها الرائعة؛ وذلك بالتداعي إلى مؤتمر إسلامي عالمي، له استقلاليته ونظامه الخاص.

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الرقم	الآية الكريمة	رقمها	السورة	الصفحة
	وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ	30	البقرة	29، 198
	قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم	38	البقرة	29
	وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ	97	البقرة	30
	وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ	36	البقرة	32
	وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ	216	البقرة	56
	ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا	274	البقرة	78
	وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا	126	البقرة	116
	وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ	254	البقرة	122
	وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ	35	البقرة	123
	وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ	49	البقرة	152
	وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ	188	البقرة	162
	ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ	275	البقرة	163
	كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ	213	البقرة	200
	شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ	185	البقرة	201
	وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا	143	البقرة	201

202	البقرة	125	وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ	
188	البقرة	278	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ	
38، 25	آل عمران	18	شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ	
43	آل عمران	136	وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ	
57	آل عمران	195	فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ	
80	آل عمران	133	وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ	
86	آل عمران	159	وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ	
88	آل عمران	159	فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ	
99	آل عمران	104	وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ	
201، 100	آل عمران	110	كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ	
108	آل عمران	137	قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ	
117	آل عمران	196	لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ	
117	آل عمران	56	فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا	
118	آل عمران	10	إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ	
123	آل عمران	108	تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ	
212	آل عمران	27	تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ	
214	آل عمران	140	وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ	

	إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى	96	آل عمران	202
	إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا	58	النساء	51
	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ	135	النساء	54
	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم	124	النساء	66
	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ	174	النساء	68
	إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ	105	النساء	69
	فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ	65	النساء	86
	يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ	26	النساء	111
	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ	40	النساء	123
	وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ	15	النساء	137
	رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ	164	النساء	200
	وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى	102	النساء	143
	وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟	8	المائدة	52
	ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى	3	المائدة	61
	أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ	50	المائدة	63
	وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ	66	المائدة	73
	لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ	79	المائدة	99

	يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ	68	المائدة	180
	إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي	162	الأنعام	26
	مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ	38	الأنعام	60
	وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ	153	الأنعام	62
	قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ	11	الأنعام	64
	وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ	81	الأنعام	84
	ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ	131	الأنعام	123
	وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ	145	الأنعام	126
	إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ	21	الأنعام	127
	أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ	6	الأنعام	205، 137
	وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ	153	الأنعام	202
	قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ	161	الأنعام	202
	أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا	122	الأنعام	174
	أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ	54	الأعراف	24
	وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ	170	الأعراف	31
	أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	185	الأعراف	39
	فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ	6	الأعراف	57

	وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا	96	الأعراف	71
	أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي	68	الأعراف	91
	فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ	79	الأعراف	92
	فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ	93	الأعراف	92
	ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ	157	الأعراف	98
	قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا	164	الأعراف	100
	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ	28	الأعراف	137
	أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا	37	الأعراف	141
	وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ	80	الأعراف	143
	إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ	81	الأعراف	143
	فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ	88	الأعراف	143
	وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ	69	الأعراف	148
	قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ	66	الأعراف	149
	قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ	71	الأعراف	150
	قَال فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ	124	الأعراف	153
	وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا	85	الأعراف	158
	فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ	91	الأعراف	162

200	الأعراف	10	وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ	
208	الأعراف	157	فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ	
201	الأعراف	158	قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ	
183	الأعراف	146	سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ	
40	الأنفال	60	وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ	
58	الأنفال	24	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ	
70	الأنفال	63	لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا	
102	الأنفال	25	وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ	
109	الأنفال	38	قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ	
123	الأنفال	51	ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ	
140	الأنفال	52	كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ	
183	الأنفال	63	وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ	
43	التوبة	120	ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ	
44	التوبة	105	وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ	
75	التوبة	34	وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ	
76	التوبة	103	خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ	
76	التوبة	60	إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ	

	وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ	71	التوبة	98
	ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ	67	التوبة	98
	أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ	109	التوبة	114
	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ	38	التوبة	166
	هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ	33	التوبة	214
	قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ	31	يونس	26
	إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا	7	يونس	31
	وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ	44	يونس	125
	وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ	83	يونس	152
	وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ	90	يونس	154
	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ	57	يونس	201
	قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ	108	يونس	202
	هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا	61	هود	28
	مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ	15	هود	32
	وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ	7	هود	46
	وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ	59	هود	119
	فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا	66	هود	126

	وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ	101	هود	128
	وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ	117	هود	129
	إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ	81	هود	144
	وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ	82	هود	145
	وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ	52	هود	149
	فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ	97	هود	153
	وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ	84	هود	158
	قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ	87	هود	160
	قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ	91	هود	161
	لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ	111	يوسف	4
	مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ	40	يوسف	25
	وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي	21	يوسف	204
	وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي	54	يوسف	205
	ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ	28	الرعد	84
	وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ	32	الرعد	120
	ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ	32	إبراهيم	27
	مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ	18	إبراهيم	47

	الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ	1	إبراهيم	68
	وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ	13	إبراهيم	127
	وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ	42	إبراهيم	128
	أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ	24	إبراهيم	219
	كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ	12	الحجر	109
	فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ	73	الحجر	144
	فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا	74	الحجر	144
	فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ	92	الحجر	155
	وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا	28	الحجر	199
	إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ	9	الحجر	193
	وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَۚ	78	النحل	40
	مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ	97	النحل	43
	إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ	90	النحل	48
	وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ	112	النحل	132
	تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ	44	الإسراء	28
	وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ	70	الإسراء	29
	وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ	36	الإسراء	40

	سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن	77	الإسراء	110
	فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ	69	الإسراء	119
	وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا	16	الإسراء	133
	مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا	18	الإسراء	167
	إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا	7	الكهف	33
	فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ	110	الكهف	44
	قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلاً	103	الكهف	47
	وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ	55	الكهف	109
	وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ	59	الكهف	126
	وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ	83	الكهف	205
	قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي	95	الكهف	205
	يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ	12	مريم	31
	وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ	74	مريم	166
	وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً	124	طه	29
	وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا	114	طه	38
	قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ	50	طه	105
	وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمًا	111	طه	127

152	طه	24	ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ	
153	طه	79	وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ	
27	الأنبياء	25	وَمَا أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا	
134	الأنبياء	11	وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ	
143	الأنبياء	74	وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ	
31	الحج	5	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ	
46	الحج	56	فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ	
69	الحج	78	هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ	
100	الحج	41	ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ	
106	الحج	73	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ	
125	الحج	45	فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ	
208	الحج	15	مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ	
215	الحج	78	وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ	
132	المؤمنون	33	وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ	
147	المؤمنون	31	ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ	
152	المؤمنون	45	ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ	
169	المؤمنون	46	فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ	

62	النور	35	ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ	
82	النور	55	وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ	
117	النور	57	لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ	
28	الفرقان	1	تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ	
203	الفرقان	44	أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَ	
148	الشعراء	128	أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ	
148	الشعراء	131	وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ	
149	الشعراء	130	وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ	
149	الشعراء	136	قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ	
152	الشعراء	29	قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ	
159	الشعراء	181	أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ	
162	الشعراء	187	فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ	
82	النمل	34	قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا	
143	النمل	55	أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ	
176	النمل	66	بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ	
177	النمل	42	وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا	
181	النمل	33	قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ	

	وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ	20	القصص	93
	وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ	39	القصص	129
	وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا	58	القصص	130
	وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ	38	القصص	148
	فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ	40	القصص	150
	إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ	76	القصص	151،152
	وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟	5	القصص	169
	تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ	83	القصص	153
	فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ	79	القصص	161
	وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ	77	القصص	161
	وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ	64	العنكبوت	31،111
	إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ	134	العنكبوت	28
	وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ	38	العنكبوت	136
	أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ	29	العنكبوت	140
	إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ	31	العنكبوت	140
	إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ	34	العنكبوت	140
	وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ	39	العنكبوت	151

	أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ	37	الروم	71
	فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ	30	الروم	178، 112
	أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ	9	الروم	152
	يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا	5	الروم	162
	وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ	47	الروم	170
	فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ	43	الروم	178
	وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ	22	لقمان	177، 60
	يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ	17	لقمان	98
	إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ	13	لقمان	119
	إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ	72	الأحزاب	174، 29
	هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ	11	الأحزاب	43
	سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ	62	الأحزاب	108
	وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ	28	سبأ	66
	لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞ	15	سبأ	116
	فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ	16	سبأ	116
	فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ	34	سبأ	162، 129
	فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ	36	سبأ	162

36	فاطر	28	إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ	
44	فاطر	10	إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ	
108	فاطر	43	فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ	
118	فاطر	39	وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارًا	
119	فاطر	32	فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ	
152	فاطر	44	أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ	
103	يس	38	وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا	
3	الصافات	173	وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ	
29	الصافات	24	وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ	
171	الصافات	171	وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ	
211	الصافات	61	لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ	
160	ص	71	إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ	
36	الزمر	9	قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ	
175	الزمر	41	إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ	
107	غافر	85	فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا	
117	غافر	22	ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ	
149	غافر	29	قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّآ مَآ أَرَىٰ	

	أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ	21	غافر	153
	أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ	82	غافر	153
	إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ	51	غافر	170
	مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ	46	فصلت	29
	سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ	53	فصلت	37
	فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ	15	فصلت	189، 145
	فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ	24	فصلت	152
	وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ	15	الشورى	48
	وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ	38	الشورى	85
	إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ	42	الشورى	119
	وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا	33	الزخرف	132
	وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي	51	الزخرف	149
	فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ	54	الزخرف	105
	وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ	24	الدخان	105
	وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ	35	الجاثية	152
	أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا	20	الأحقاف	128
	وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ	26	الأحقاف	168، 145

	فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ	24	الأحقاف	146
	وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ	28	الأحقاف	185
	فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ	19	محمد	24
	وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ	12	محمد	118، 32
	وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسًا لَّهُمۡ	8	محمد	117
	وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ	13	محمد	153
	وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ	38	محمد	212
	سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ	23	الفتح	109
	هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ	28	الفتح	209
	إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ	10	الحجرات	99، 68
	وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ	56	الذاريات	28
	وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ	19	الذاريات	74
	وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ	53	النجم	140
	وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ	38	القمر	141
	إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا فِي	19	القمر	147
	فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي	21	القمر	147
	ٱلرَّحۡمَٰنُ	1	الرحمن	33

	ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ	20	الحديد	162، 32
	لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا	25	الحديد	84، 46
	يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ	11	المجادلة	36
	لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيۡتَهُۥ	21	الحشر	3
	وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ	9	الحشر	56
	وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ	7	الحشر	77 ، 73
	نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ	19	الحشر	143
	يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ	8	الصف	208
	فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ	10	الجمعة	70
	لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ	1	الطلاق	134
	تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ	1	الملك	27
	ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ	2	الملك	31
	ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ	14	الملك	175، 54
	وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ	9	الحاقة	139
	وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ	6	الحاقة	147
	وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم	16	الجن	71
	مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ	42	المدثر	78

148	النازعات	24	فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ	
54	المطففين	10	كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم	
174	المطففين	1	وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ	
29	الانشقاق	6	يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ	
30	الطارق	13	إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ	
37	الغاشية	17	أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ	
145	الفجر	6	أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ	
54	البلد	10	وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ	
29	الشمس	9	قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا	
54	الشمس	7	وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا	
75	الضحى	11	وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ	
29	التين	4	لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ	
63، 33	العلق	1	ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ	
33	العلق	5	عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ	
31	الزلزلة	7	فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ	
92	العصر	1	وَٱلۡعَصۡرِ	
69	قريش	3	فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ	

17	الكافرون	6	لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ	
24	الإخلاص	1	قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ	

فهرس الأحاديث الشريف

الرقم	طرف الحديث	الصفحة
1.	أظنكم سمعتم أبا عبيدة	163
2.	ألا إن ربي أمرني	112
3.	أنهلك وفينا الصالحون	141
4.	إن قامت الساعة وفي يد	76
5.	إن من أعظم الجهاد	93
6.	إنك لن تنفق نفقة تبتغي	76
7.	إنما أهلك الذين	52
8.	إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	57
9.	إن الله زوى لي الأرض	172
10.	إن الله يحب أن يرى أثر	75
11.	إن المقسطين على منابر	51
12.	إن الناس إذا رأوا الظالم	100
13.	إن دماءكم وأموالكم	83
14.	أيكم يحب أن هذا له	164
15.	الإيمان بضع وسبعون	42

.16	الإيمان بضع وستون	42، 53
.17	بدا الإسلام غريبا	171
.18	تعس عبد الدينار	76
.19	الدنيا ملعونة	34
.20	الدين النصيحة	91
.21	سبعة يظلهم في ظله	51
.22	الظلم ظلمات	114
.23	فهلا جلست في بيت أبيك	94
.24	كان الرجل فيمن قبلكم	81
.25	كان ينقل التراب يوم الخندق	44
.26	لا أعطيكم وأدع أهل الصفة	75
.27	لا تزال طائفة من أمتي	172
.28	لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين	171
.29	لتتبعن سنن من قبلكم	60
.30	ليبلغن هذا الأمر	214
.31	ما أكل أحد طعاماً قط	76
.32	ما آمن بي من بات شبعان	77

.33	ما من عبد يسترعيه	92
.34	ما من مسلم يغرس	79
.35	ما من وال يلي رعية	52
.36	ما يسرني أن عندي مثل أحد	78
.37	مثل المدهن	99
.38	من رأى منكم منكرا	100
.39	والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم	72
.40	والله لا يؤمن والله لا يؤمن	53
.41	وأيما أهل عرصة	77
.42	ومن سلك طريقا	36
.43	يؤتى بأنعم أهل الدنيا	113
.44	اليد العليا خير	77

فهرس الآثار

الرقم	الأثر	الصفحة
1.	أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت	61
2.	من أراد علما	30
3.	اغد عالما	34
4.	ما رأيت أحدا أكثر مشورة	85
5.	قدم عبد الرحمن بن عوف	56
6.	أن عروة بن مسعود	62
7.	بايعت النبي ﷺ	92
8.	فكان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ	92
9.	بايعنا رسول الله ﷺ	94

فهرس الأعلام

الرقم	العلم	الصفحة
.1	ابن خلدون	12
.2	ابن فارس	9
.3	ابن منظور	11
.4	أبو بكر الصديق	11،93، 83
.5	أبو بكرة	82
.6	أبو حميد الساعدي	94
.7	أبو ذر	78
.8	أبو زيد	10
.9	أبو سعيد الخدري	93
.10	أبو هريرة	34،72
.11	الأصفهاني	10
.12	الأصمعي	10
.13	أنس بن مالك	113، 77
.14	بلال بن رباح	63
.15	تميم الداري	91

.16	ثوبان	172
.17	جابر بن عبد ﷺ	164
.18	جبلة بن الأيهم	47
.19	جرير بن عبد ﷺ	92
.20	الجوهري	10
.21	حكيم بن حزام	74، 77
.22	خباب بن الأرت	81
.23	الخليل بن أحمد	9
.24	الزمخشري	8
.25	زنيرة	64
.26	زيد بن ثابت	61
.27	زينب بنت جحش	141
.28	سعد بن أبي وقاص	76
.29	سعد بن الربيع	56
.30	سعد بن مالك	60
.31	سلمان الفارسي	43
.32	سمية	64

.33	شوقي ضيف	5
.34	الصاحب بن عباد	10
.35	صهيب	63
.36	عائشة	52
.37	عبادة بن الصامت	94
.38	عبد الله بن عمر	77، 124
.39	عبد الله بن مسعود	3
.40	عبد الحليم عويس	5
.41	عبد الحميد صديقي	5
.42	عبد الرحمن حبنكة	5
.43	عبد الرحمن بن عوف	56
.44	عثمان بن عفان	64
.45	عروة ين مسعود	62
.46	علي بن أبي طالب	64
.47	عمر بن الخطاب	47
.48	عماد الدين خليل	5
.49	عمر بن عبد العزيز	74

.50	عمرو بن العاص	51، 50
.51	عمرو بن عوف	163
.52	عياض بن حمار	112
53	فاطمة الزهراء	74
.54	القطامي	9
.55	مالك بن نبي	5،14،44
.56	محمد البهي	5
.57	محمد رشاد	5
.58	محمد سعيد رمضان	6
.59	محمود زقزوق	5
.60	معقل بن يسار	92، 51
.61	المغيرة بن سعيد	171
.62	المقداد بن معدي	73
.63	النعمان بن بشير	99

المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

آبادي، محمد شمس الحق العظيم: **عون المعبود**. 13مج. ط2. بيـروت: دار الكتـب العلميـة. 1415هـ.

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد: **مصنف ابن أبي شيبة**. تحقيق كمال الحوت. 7مـج. ط1. بلا تاريخ..

ابن الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد: **النهاية في غريب الحديث**. 5مج. تحقيق محمود الطناحي. المكتبة الإسلامية. لم يذكر الطبعة، ولا بلد النشر، ولا التاريخ.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن: **نزهة الأعين النـواظر فـي علـم الوجـوه والنظائر**. 1مج. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1404هـ/1984م.

ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله: **أحكام القرآن**. 4مج. تحقيق علـي محمـد البجـاوي. بيروت: دار المعرفة. ودار الجيل. 1407هـ/1987م.

ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن الجوزية: **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**. 1مج. قدمـه وراجعه وعلق عليه. بهيج غزاوي. بيروت: دار إحياء العلوم. بلا طبعة، ولا تاريخ.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية: **أعلام الموقعين عن رب العـالمين**. تحقيـق طـه عبـد الرؤوف. 4مج. بيروت: دار الجيل. 1973م.

ابن تيمية، أحمد عبد الحليم: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. 1مج. ط1. تحقيق د.صـلاح الدين المنجد. بيروت: دار الكتاب الجديد. 1396هـ/1976م.

ابن تيمية، أحمد: **الإيمان**. 1ج. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. مكتبـة أنـس بـن مالـك. 1400هـ. بلا طبعة ولا بلد النشر.

ابن تيمية، أحمد: **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيـة**. 1مـج. ط4. بيـروت: دار المعرفة. 1969م.

ابن تيمية، أحمد: **فتاوى ورسائل ابن تيمية**. 17مج. تحقيق عبد الرحمن محمد النجدي. مكتبـة ابن تيمية. بلا ذكر طبعة، ولا بلد النشر..

ابن حبان، محمد: **صحيح ابن حبان**. 18مج. ط2. تحقيق شعيب الأرنؤوط. بيـروت: مؤسـسة الرسالة. 1414هـ/1993م.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة في تمييز الصحابة**. 8مج. ط1. تحقيق محمد علي البجاوي. بيروت: دار الجيل. 1412هـ/1992م.

ابن حجر، أحمد بن علي: **العجاب في بيان الأسباب**. تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس. الدمام: دار ابن الجوزي. 1مج. ط1. 1997م.

ابن حجر، أحمد بن علي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. 13مج. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار المعرفة. 1379هـ.

ابن حميد، عبد: **مسند ابن حميد**.1مج. ط1. تحقيق صبحي السامرائي. القاهرة: مكتبة السنة. 1408هـ/1988م.

ابن حنبل، أحمد: **مسند أحمد**. 6مج. مصر: مؤسسة قرطبة. لم تذكر الطبعة، ولا تاريخها.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **مقدمة ابن خلدون**.1 مج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. لم يذكر رقم الطبعة.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: **جمهرة اللغة**. 4مج. ط1. حيدر أباد. مجلس دائرة المعارف العثمانية. 1345هـ.

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي: **جامع العلوم والحكم**. 2 مج. ط7. تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1417هـ/1997م.

ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد: **حجة القراءات**. 1مج. ط2. تحقيق سعيد الأفغاني. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1399هـ/1979م.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد البصري: **الطبقات الكبرى**. 8مج. بيروت: دار صادر. بلا طبعة، ولا تاريخ.

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل: **المخصص**. 17مج. تحقيق لجنة التراث العربي. مكة المكرمة: دار الباز.

ابن عاشور، محمد الطاهر: **التحرير والتنوير**. 15مج. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ.

ابن عباد، كافي الكفاة إسماعيل الصاحب: **المحيط في اللغة**. 11مج. تحقيق الشيخ محمد حسم آل ياسين. ط1. بيروت: عالم الكتب. 1414هـ/1994م.

ابن عبد الحكم، أبو محمود عبد الله: **سيرة عمر بن عبد العزيز**. 1مج. ط1. دمشق. مصر: المكتبة العربية. 1346هـ/1927م.

ابن عبد الواحد، أبو عبد الله محمد المقدسي: **الأحاديث المختارة**. 10مج. ط1. تحقيق عبد الملك دهيش. مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة. 1410هـ.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. 5مج. ط1. مراجعة عبد السلام عبد الشافي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية. 1413هـ/1993م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**. 6مج. تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الفكر. 1399هـ/1979م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **تفسير القرآن العظيم**. 4مج. بيروت: دار الفكر. 1388هـ/1969م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**. 7مج. ط3. بيروت .الرياض: مكتبة المعارف. مكتبة النصر. 1978م.

ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجة**. 2مج. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار الفكر. بلا تاريخ، ولا طبعة.

ابن مندة، محمد بن إسحاق: **الإيمان**. 2مج. ط2. تحقيق د.علي الفقيهي. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1406 هـ.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**. 15مج. بيروت: دار صادر. مادة حضر. لم يذكر رقم الطبعة.

ابن نبي، مالك: **المسلم في عالم الاقتصاد**. 1مج. بيروت: دار الفكر. بلا طبعة، ولا تاريخ.

ابن نبي، مالك: **شروط النهضة**. 1ج. ط3. ترجمة عمر كامل مسقاوي. وعبد الصبور شاهين. دار الفكر. 1969م .

ابن نبي، مالك: **مشكلة الثقافة**. 1مج. بيروت: دار الفكر. بلا تاريخ، ولا طبعة.

ابن نبي، مالك: **ميلاد مجتمع**. 1مج. ترجمة د.عبد الصبور شاهين. إصدار ندوة مالك بن نبي. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ.

ابن هشام، عبد الملك: **السيرة النبوية**. 6مج. ط1. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد. بيروت: دار الجيل.1411هـ.

أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. 5مج. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة .1401هـ/1981م. لم يذكر الطبعة.

أبو خليل، د.شوقي: **الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات الـسابقة**.1مـج. ط2. بيروت. دمشق: دار الفكر المعاصر. دار الفكر. 1417هـ/1996م.

أبو شهبة، د.محمد بن محمد: **حلول لمشكلة الربا**. 1مج. ط2. القاهرة: مكتبة السنة. 1409هـ.

أبو فارس، د.محمد عبد القادر: **أسس في التصور الإسلامي**. 1مج. ط1. عمان: دار الفرقـان. 1402هـ/1982م.

أبو فارس، د.محمد عبد القادر: **النظام السياسي في الإسـلام**. 1مج. 1980. لم تذكر بلد النشر، ولا الناشر، ولا الطبعة.

أبو فارس، د.محمد عبـد القـادر: **مفـاهيم إسـلامية**. 1مـج. ط1. عمـان: دار الفرقـان. 1414هـ/1994م.

أبو فـارس، محمـد عبـد القـادر: **غـزوة الأحـزاب**. 1مـج. ط1. عمـان: دار الفرقـان. 1403هـ/1983م.

أبو يعلى، أحمد بن علي: **مسند أبي يعلى**. 13مج. ط1. تحقيق حسين أسد. دمشق: دار المأمون للتراث.

أحمد، د.أحمد رمضان: **الخلافة في الحضارة الإسلامية**. 1مج. ط1. جدة: دار البيان العربـي. 1403هـ/1983م.

إسبير، محمد سعيد: **الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها**. 1مـج. ط2. بيـروت: دار العودة. 1985م.

أسد، محمد: **الإسلام على مفترق الطرق**. 1مج. ط3. نقله إلى العربية. د.عمر فروخ. بيـروت: دار العلم للملايين. 1951.

اشبنغلر، أسوالد: **تدهور الحضارة الغربية**. 2مج. ترجمة أحمد الشيباني. بيـروت: دار مكتبـة الحياة.

اشفيتسر، ألبرت: **فلسفة الحـضارة**. ترجمة د.عبد الرحمن بدوي. القاهرة: المؤسسة المـصرية العامة. بلا تاريخ ولا طبعة.

الأشقر، د.عمر سليمان: **أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة**. 1مج. ط3. عمان: دار النفائس.1418 هـ/1997م.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: **معجم مفردات ألفـاظ القرآن الكريم**.1 مج. ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين. ط1. بيـروت: دار الكتـب العلمية. 1418هـ/1997م.

إقبال، محمد: **تجديد الفكر الديني في الإسلام**. 1مج. ط2. ترجمه عباس محمود. القاهرة: لجنـة التأليف والنشر والترجمة. 1968م.

آل الشيخ، عبد الرحمن حسن: **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**. 1مج. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. بلا تاريخ، ولا طبعة.

الألباني، محمد ناصر الدين: **سلسلة الأحاديث الصحيحة**. 7مج. الرياض: مكتبة المعارف. بـلا طبعة، ولا تاريخ.

الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح الجامع الصغير وزياداته**. 3مج. ط3. بيـروت: المكتـب الإسلامي. 1402هـ/1982م.

الآلوسي، محمود أبو الفضل: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. 30مـج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الآمدي، أبو الحسن علي بن محمد. **الإحكام**. 4مج. ط1. تحقيق د.سيد الجميلـي. بيـروت: دار الكتاب العربي. 1404هـ.

البخاري، محمد بن إسماعيل. **الأدب المفرد**. 1مج. ط1. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار البشائر الإسلامية. 1409هـ/1989م.

البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. 6مج. ط3. تحقيق د.مـصطفى ديـب البغـا. بيروت: دار ابن كثير ودار اليمامة. 1407هـ/1987م.

بدوي، عمار توفيق أحمد: **الزواج المبكر مسألة أثارت الجدل عـرض ونقـض**. 1مـج. ط1. فلسطين: مركز نون للأبحاث والدراسات القرآنية. 1421هـ/2001م.

برنامج الأمم المتحدة الإنمائي على شبكة الانترنت: **www.pogar.org**

البزار، أبو بكر محمود بن عمرو: **مسند البزار**. 9مج. ط1. تحقيق د.محفوظ الرحمن زين ﷲ بيروت والمدينة المنورة: مؤسسة علوم القرآن. ومكتبة العلوم والحكم. 1409هـ.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: **معالم التنزيل**. 4مج. ط1. تحقيق خالد العـك. ومـروان سوار. بيروت: دار المعرفة. 1406هـ/1986م.

البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: **نظم الدرر في تناسـب الآيـات والـسور**. 22مج. ط1. دائرة المعارف العثمانية. 1395هـ/1975م. لم تذكر بلد النشر.

بكّار، د.عبد الكريم: **تجديد الوعي**. 1مج. ط1. دمشق: دار القلم. 1421هـ/2000م.

بكّار، د.عبد الكريم: **من أجل انطلاقة حضارية شاملة**. 1مج. ط1. دمشق: دار القلم.

بكّار، عبد الكريم: **فصول في التفكير الموضوعي**. 1مج. ط1. دمشق. بيروت: دار القلم. الدار الشامية. 1413هـ/1993م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **فتوح البلدان**. 1مج. تحقيـق رضـوان محمـد رضـوان. بيروت: دار الكتب العلمية. 1403هـ. لم تذكر الطبعة.

البهي، د.محمد: **الدين والحضارة الإنسانية**. 1مج. ط2. بيروت: دار الفكر. 1394هـ/1974م.

البوطي، د.محمد سعيد رمضان: **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**. 1مج. ط1. دمشق: دار الفكر. 1987م.

بويس، ج.دي: **مستقبل الحضارة**. 1مج. ترجمة لمعى المعطي. القاهرة: دار الكرنك. 1961م.

بيترمان، د.هانس. وآخرون: **فخ العولمة الاعتـداء علـى الديمقراطيـة والرفاهيـة**. 1مـج. ترجمـة.د.عـدنان عبـاس علـي. الكويـت: المجلـس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب.1419هـ/1998م.

البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد ﷲ بن عمر: **أنوار التنزيل وأسـرار التأويـل**. 5مـج. تحقيق عبد القادر حسونة. بيروت: دار الفكر. 1416هـ/1996م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**. 8مج. ط1. تحقيق محمد الـسعيد زغلـول. بيروت: دار الكتب العلمية. 1410هـ.

البيهقي، أحمد بن الحسين: **سنن البيهقي**. 10مج. تحقيق محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمـة: مكتبة دار الباز. 1414هـ/1994م. لم تذكر الطبعة.

التبريزي، محمد بن عبد ﷲ الخطيب: **مشكاة المصابيح**. 3مج. تحقيق محمـد ناصـر الـدين الألباني. ط2. بيروت: المكتب الإسلامي. 1399هـ/1979م.

الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**. 5مج. تحقيق أحمد شاكر. بيروت: دار إحياء التراث العربي. بلا تاريخ، ولا طبعة.

التوحيـدي، أبـو حيـان محمـد بـن يوسـف: **البحـر المحـيط**. 8مـج. ط2. دار الفكـر. 1403هـ/1983م. لم تذكر بلد البشر.

التويجري، د.عبد العزيز بن عثمان: **الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحـضاري**. 1مـج. المغرب: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة. 1419هـ/1998م.

توينبي ،آرنولد: **مختصر دراسة التاريخ**. 4مج. ط2. ترجمه فؤاد محمد شبل. القـاهرة: الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.

توينبي، آرنولد: **تاريخ البشرية**. 2مج. ترجمة د.نقولا زيادة. بيروت: 1986م. لم تـذكر رقـم الطبعة.

الثعالبي، عبد الرحمن: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**. 3مـج. ط1. تحقيـق أبـو محمـد الغُماري الإدريسي. بيروت: دار الكتب العلمية. 1401هـ/1996م.

جارودي، روجيه: **حفّارو القبور الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها**. 1مج. ط1. القاهرة: دار الشروق. 1419هـ/1999م.

جارودي، روجيه: **أمريكا طليعة الانحطاط**. 1مج. ط1. تعريب عمرو زهيـرى. القـاهرة: دار الشروق. 1420هـ/1999م.

جبريل، د.محمود: **الهزيمة الذاتية للأمة العربية**. حلقـة مـن برنـامج بـلا حـدود بتـاريخ 2004/2/2م.

الجرجاني، محمد بن علي: **التعريفات**. 1مج. ط1. تحقيق إبراهيم الأبياري. بيروت: دار الكتاب العربي. 1405هـ.

جريدة القدس. القدس. فلسطين.

الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي: **أحكام القرآن**. 3مـج. مـصر: المطبعـة البهيـة المصرية. 1347هـ.

الجندي، أنور: **أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة والأدب والاجتماع**. 1مج. بيروت: دار الكتاب اللبناني .1982م.

الجوزي، عبد الرحمن بن علي: **زاد المسير في علم التفسير**. 9مـج. ط3. بيـروت: المكتـب الإسلامي.1404 هـ.

الجوهري، إسماعيل بن حماد: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**.6 مج. تحقيق أحمـد عبـد الغفور عطار. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. 1319هـ/1979م.

الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: **المستدرك على الصحيحين.** 4مج. ط1. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية. 1411هـ/1990م.

حبيب، الحسن بن عمر: **المقتفى في سيرة المصطفى.** 1مج. ط1. تحقيق د.مصطفى محمد حسين الذهبي. القاهرة: دار الحديث. 1996م.

حسن، .د.إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.** 4مج. ط7. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. 1964م.

حسين، د.محمد محمد: **الإسلام والحضارة الغربية**.1 مج. ط4. بيروت. 1401هـ/1981م.

حكمي، حافظ أحمد: **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول.** 3مج. ط1. تحقيق عمر بن محمود أبو عمر. الدمام: دار ابن القيم. 1410هـ/1990.

الحلبي، أحمد بن يوسف. **الدر المصون في علم الكتاب المكنون.** 7مج. ط1. تحقيق د.أحمد محمد الخراط. دمشق: دار القلم. 1407هـ/1987م.

الحلبي، علي بن برهان الدين: **السيرة الحلبية.** 3مج. بيروت: دار المعرفة. 1400هـ. بلا طبعة.

الحمد، محمد بن إبراهيم: **الإيمان بالقضاء والقدر.** 1مج. ط2. الرياض: دار الوطن. 1416هـ.

الحموي، ياقوت بن عبد الله: **معجم البلدان**.5 مج. بيروت: دار الفكر. بلا طبعة، ولا تاريخ.

حوى، سعيد: **الأساس في التفسير.** 11مج. ط1. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. 1405هـ/1985م.

الخازن، علاء الدين علي البغدادي: **لباب التأويل في معاني التنزيل.** 4مج. دار الفكر. بلا طبعة، ولا بلد النشر.

الخالدي، د.صلاح: **البيان في إعجاز القرآن.** 1مج. ط3. عمان: دار عمار. 1413هـ/1992م.

الخالدي، د.صلاح: **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث.** 4مج. ط1. دمشق: دار القلم. 1419هـ/1998م.

الخالدي، د.محمود: **قواعد نظام الحكم في الإسلام.** 1مج. ط2. 1983م. لم تذكر بلد النشر، ولا الناشر.

خان، حسن صديق: **فتح البيان في مقاصد القرآن**. 10مج. بيروت: دار الفكر العربي. بلا طبعة، ولا تاريخ.

خضر، د.عبد العليم عبد الرحمن: **المسلمون وكتابة التاريخ**. 1مج. ط1. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1414هـ/1993م.

الخطابي. حمد بن محمد: **غريب الحديث**. 3 مج. تحقيق عبد الكريم العزباوي. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.1402هـ. لم يذكر رقم الطبعة.

الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد: **معالم السنن**. 4مج. ط2. بيروت: المكتبة العلمية. 1401هـ/1981م.

الخطيب، عمر عودة: **نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري**. 1مج. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1398هـ/1978م.

الخطيب، عبد الكريم: **تفسير القرآن بالقرآن**. 30مج. بيروت: دار الفكر العربي. بلا تاريخ، ولا طبعة، ولا بلد النشر.

الخطيب، عمر عودة: **نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري**. مج1. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1398هـ/1978م.

خليل، د.عماد الدين: **التفسير الإسلامي للتاريخ**. 1مج. ط1. بيروت: دار العلم للملايين. 1975م.

خليل، د.عماد الدين: **حول تشكيل العقل المسلم**. 1مج. ط4. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1412هـ/1991م.

خليل، د.عماد الدين: **مدخل إلى إسلامية المعرفة**. 1مج. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. بلا تاريخ، ولا طبعة.

خليل، د.محمد رشاد: **المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره**. 1مج. ط1. القاهرة: دار المنار للنشر والتوزيع. 1404هـ/1984م.

الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن: **سنن الدارمي**. 2مج. ط1. تحقيق فواز زمرلي وخالد العلمي. بيروت: دار الكتاب العربي. 1407هـ.

الدامغاني، الحسين بن محمد: **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**. 1مج. ط2. تحقيق عبد العزيز سيد الأهل. بيروت: دار العلم للملايين. 1977م.

دراز، د.محمد عبد الله: **دستور الأخلاق في القرآن**. 1مج. ط4. تعريب وتحقيق.د.عبد الصبور شاهين. بيروت. الكويت: مؤسسة الرسالة. دار البحوث العلمية. 1402هـ/1982.

الدريني، د.فتحي: **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم**. 1مج. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1402هـ/ 1982م.

الدواليبي، د.محمد معروف: **موقف الإسلام من العلم وأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية**. 1مج. القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري. ودار الكتاب اللبناني. بلا طبعة، ولا تاريخ.

ديورانت، ول: **قصة الحضارة**. ترجمة د.زكي نجيب محمود. 14 مج. ط3. القاهرة: الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. 1965م.

ديورانت، ول: **مباهج الفلسفة**. 2مج. ط2. ترجمه د.أحمد فؤاد الإهواني. مصر: مكتبة الانجلو المصرية. بالتعاون مع مؤسسة فرانكلينز. 1957م.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**. 23مج. تحقيق شعيب الأرنؤوط ونعيم العرقسوسي. ط9. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1413هـ.

الرازي، محمد بن عمر: **التفسير الكبير**. 16مج. ط2. طهران: دار الكتب العلمية. لم يذكر التاريخ.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: **مختار الصحاح**. 1مج. بيروت. دمشق: المكتبة الأموية. 1398هـ/1978م. لم يذكر رقم الطبعة.

رضا، محمد رشيد: **تفسير المنار**. 12مج. ط2. بيروت: دار الفكر. 1393هـ/1973م.

الرماني، علي بن عيسى: **النكت في إعجاز القرآن**. 1مج. ط4. تحقيق محمد خلف الله ود.محمد زغلول سلام. مصر: دار المعارف. مطبوع ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. بلا تاريخ.

الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري: **معاني القرآن وإعرابه**. 5مج. ط1. تحقيق د.عبد الجليل عبده شلبي. بيروت: عالم الكتب. 1408هـ/1988م.

زريق، قسطنطين: **في معركة الحضارة دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري**. 1مج. ط3. بيروت. دار العلم للملايين. 1977م.

زقزوق، د.محمود حمدي: **الحضارة فريضة إسلامية**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة الشروق. 1422هـ/2001م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل**. 1مج. ط1. اعتنى به خليل مأمون شيحا. بيروت: دار المعرفة. 1423هـ/2002م.

الزمخشري، محمود بن عمر: **أساس البلاغة**.1 مج. بيروت: دار صادر ودار بيروت. 1385هـ/1965م. لم يذكر رقم الطبعة.

الزمخشري، محمود بن عمر: **الفائق في غريب الحديث والأثر**. 4مج. ط2. تحقيق علي محمد البجاوي. ومحمد أبو الفضل إبراهيم. لبنان: دار المعرفة. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ.

زيدان، د.عبد الكريم: **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**. 1مج. ط3. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1414هـ/1994م.

سارطون، د.جورج: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**. 1مج. ط1. ترجمة د.عمر فروخ. بيروت: مكتبة المعارف.

سالم، د. محمد عزيز نظمي.**جدلية التاريخ والحضارة**. 1مج. الاسكندرية. مؤسسة شباب الجامعة. 1996م. لم يذكر رقم الطبعة.

السامرائي، د.فاضل: **التعبير القرآني**. 1مج. ط2. عمان: دار عمار. 1422هـ/2002م.

السباعي، د.مصطفى: **التكافل الاجتماعي في الإسلام**. 1مج. ط1. بيروت: المكتب الإسلامي. 1419هـ/1998م.

السباعي، د.مصطفى: **من روائع حضارتنا**. 1مج. بلا تاريخ، ولا طبعة، ولا بلد النشر.

السرخسي، محمد بن أحمد: **أصول السرخسي**. 2مج. تحقيق أبو الوفا الأفغاني. بيروت: دار المعرفة. لم تذكر الطبعة.

سعيد، جودت: **التغيير مفهومه وطرائقه**. 1مج. ط1. بيروت. دمشق: دار الفكر المعاصر. دار الفكر. 1417هـ-1996م.

سعيد، جودت: **حتى يغيروا ما بأنفسهم**. 1مج. ط5. دمشق: دار الثقافة للجميع. 1400هـ/1980م.

سعيد، د.صبحي عبده: **التنظيم الاقتصادي الإسلامي**. 1مج. القاهرة: دار النهضة العربية. 1417هـ/1997م. لم تذكر الطبعة.

السلمان، عبد العزيز المحمد: **الكواشف الجلية عن معاني الواسطية**. 1مج. ط1. السعودية: نشر شركة الراجحي للصرافة. 1401هـ/1981م.

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد: **بحر العلوم**. 4مج. ط1. تحقيق علي معوض وآخـرون. بيروت: دار الكتب العلمية. 1403هـ/1993م.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: **تاريخ الخلفاء**. 1مج. ط1. تحقيق محمد محيي الدين عبـد الحميد. مصر: دار السعادة. 1371هـ/1952م.

السيوطي، عبد الرحمن: **الدر المنثور**. 8مج. بيروت: دار الفكر. 1993م. لم يذكر رقم الطبعة.

شابرا، د.محمد عمر: **الإسلام والتحدي الاقتـصادي**. 1مـج. ط1. ترجمـة د.محمـد زهيـر السمهوري. فرجينيا. عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. والمعهد العربي للدراسـات المالية والمصرفية. 1416هـ/1996م.

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: **الموافقات**. 6مج. ط1. تحقيق أبو عبيدة مـشهور بـن حسن. السعودية: دار ابن عفان. 1417هـ/1997.

الشامي، د.علي: **الحضارة والنظام العالمي أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب**. 1مج. بيروت: دار الإنسانية. 1995م.

شبيب، محمد نجاح: **الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط**. 1مج. دمـشق: دار الفكـر. 1996م. لم تذكر الطبعة.

الشعراوي، محمد متولي: **تفسير الـشعراوي**.9مج. أخبار اليوم. لم يذكر الطبعة ولا التاريخ ولا بلد النشر

الشعراوي، محمد متولي: **قـصص الأنبيـاء**. 5مـج. القـاهرة: مكتبـة التـراث الإسـلامي. 1416هـ/1996م.

شفيق، منير: **الإسلام في معركة الحضارة**.1 مج. ط1. القدس: وكالة أبو عرفة. 1982.

الشكعة، د مصطفى: **معالم الحضارة الإسلامية**.1ج. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. 1975م.

الشوكاني، محمد بن علي: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية**. 5مـج. بيـروت: دار الفكر. لم يذكر التاريخ، ولا الطبعة.

الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**. 3مج. ط9. القاهرة: دار الصابوني. بلا تاريخ.

الصابوني، محمد علي: **قبس من نور القرآن الكريم**. 16مج. ط1. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. 1418هـ/1997م.

صبحي، د.أحمد محمود: **في فلسفة التاريخ**. 1مج. الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية. 1975م.

الصدر، محمد باقر: **اقتصادنا**.1 مج. ط4. بيروت: دار الفكر. 1393هـ/1973م.

صديقي، عبد الحميد: **تفسير التاريخ**. 1مج. ط1. ترجمة د.كاظم الجوادي. الكويت: دار القلم. 1400هـ/1980م.

الصلاّبي، د. علي محمد: **تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم**. 1مج. ط1. القاهرة: دار الفجر للتراث. 1424هـ/2003م.

ضيف، د.شوقي: **الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة**. 1مج. القاهرة: دار المعارف. بلا تاريخ ولا طبعة.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**. 20مج. ط2. تحقيق حمدي السلفي. الموصل: مكتبة العلوم والحكم. 1404هـ 1983م.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**. 10مج. تحقيق طارق بن عوض. وعبد المحسن بن إبراهيم. القاهرة: دار الحرمين. 1415هـ. لم يذكر الطبعة.

الطبري: محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**. 5مج. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1407هـ.

الطبري، محمد بن جرير: **جامع البيان في تفسير القرآن**. 30مج. بيروت: دار الفكر. 1405هـ. بلا طبعة.

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة: **شرح العقيدة الطحاوية**. 1مج. ط8. تحقيق جماعة من العلماء. خرجها محمد ناصر الدين الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي. 1404هـ/1984م.

الطحاوي، أحمد بن محمد. **شرح معاني الآثار**. 4مج. تحقيق محمد زهري النجار. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1399هـ.

الطنطاوي: علي وناجي: **أخبار عمر**.1 مج. ط8. بيروت: المكتب الإسلامي. 1403هـ/1983م.

الطويل، د.توفيق: **الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية**. 1مج. القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي.

عارف، نصر محمد: **الحضارة - الثقافة - المدنية**. 1مج. ط1. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1414هـ/1994م.

عباس، د.فضل حسن: **إعجاز القرآن الكريم**. 1مج. عمان: دار الفرقان. 1991م. بلا طبعة.

عباس، د.فضل حسن: **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**. 1مـج. ط1. عمـان: دار الفرقـان. 1407هـ/1987م.

عبد العزيز، د.أمير: **التفسير الشامل للقرآن الكريم**. 6مج. ط1. القاهرة: دار السلام للطباعـة والنشر والتوزيع. 1420هـ/2000م.

عبده، د.عيسى. ويحيى. أحمد: **العمل في الإسلام**. 1مج. مصر: دار المعارف. بلا طبعـة، ولا تاريخ.

عبده، د.عيسى: **وضع الربا في البنـاء الاقتـصادي**. 1مـج. ط2. القـاهرة: دار الاعتـصام. 1397هـ/1977م.

عثمان، عبد الكريم: **معالم الثقافة الإسـلامية**. 1مج. ط2. بيروت. ليبيا: مؤسسة الرسالة. مكتبة النور. 1392هـ/ 1972م.

العثيمين، محمد بن صالح: **كتاب العلم**. 1مج. الإسكندرية: دار البصيرة. بلا طبعة، ولا تاريخ.

عرجون، محمد الصادق: **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**. 1مـج. ط3. جـدة: الـدار السعودية للنشر والتوزيع. 1404هـ/1984م.

عزام، .د.عبـد الله: **الإسـلام ومـستقبل البـشرية**. 1مـج. ط1. الأردن: مكتبـة المنـار. 1400هـ/1980م.

عزام، د.عبد الله: **العقيدة وأثرها في بناء الجيل**. 1مج. القدس: منشورات دار الحديث الشريف. بلا طبعة، ولا تاريخ.

العسال، د.أحمد محمد. وآخرون: **النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافـه**.1 مـج. ط2. مصر: مكتبة وهبة.

العشماوي، محمد سعيد: **حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني**. 1مج. ط1. بيـروت: دار الكتاب اللبناني. 1974م.

العقاد، عباس محمود: **الإسلام في القرن العشرين حاضره ومـستقبله**. 1مـج. القـاهرة: دار الهلال. بلا طبعة، ولا تاريخ.

العقاد، عباس محمود: **الإنسان في القرآن**. 1مج. ط2. بيروت: دار الكتاب العربي. 1969م.

العقاد، عباس محمود: **التفكير فريضة إسلامية**. 1مـج. ط2. بيـروت: دار الكتـاب العربـي. 1391هـ/1971م.

العقاد، عباس محمود: **مطلع النور**. 1مج. ط1. بيروت: دار الكتاب العربي. 1969م.

العقاد، محمود عباس: **حقائق الإسلام وأباطيل خـصومه**. 1مـج. ط3. بيـروت: دار الكتـاب العربي. 1368هـ/1966م.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**.4 مج. بيروت: دار الكتـب العلمية. لم يذكر رقم الطبعة.

علي، د.عصام الدين علي: **آفاق الحضارة الإسلامية والأوروبية**. 1مج. الاسـكندرية: منـشأة المعارف.

عويس، د.عبد الحليم: **العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكـري**. 1مـج. ط2. القـاهرة: دار الصحوة الإسلامية. 1420هـ/1999م.

عويس، د.عبد الحليم: **تفسير التاريخ علـم إسـلامي**. 1مـج. ط1. المنـصورة: دار الوفـاء. 1418هـ/1998م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الدين**. 5مج. ج1. دار الرشاد. بلا بلد النـشر، ولا طبعة، ولا تاريخ.

الغزالي، محمد: **الإسلام والاستبداد السياسي**. 1مـج. ط2. القـاهرة: دار الكتـب الإسـلامية. 1404هـ/1984م.

الغزالي، محمد: **خلق المسلم**. مج1. دمشق: دار القلم. 1400هـ/1980م. بلا ذكر الطبعة.

الغزالي، محمد: **كيف نتعامل مع القرآن**. 1مج. ط1. فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1414هـ/1991م.

الغلاييني، مصطفى: **الإسلام روح المدنية**. 1مج. ط3. بيروت: المكتبة الأهلية. 1348هـ.

الغمراوي، محمد أحمد: **في سنن الله الكونية**. 1مج. ط1. مصر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1355هـ/1936م.

فتحي، د. أحمد محمود: **في فلسفة الحضارة اليونانية ـ الإسلامية ـ ـ الغربيـة**. دار المعرفـة الجامعية. 2000م. لم يذكر بلد النشر، ولا الطبعة.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد: **معاني القرآن**. 3مج. ط2. تحقيق أحمد يوسف نجاتي. ومحمد علي النجار. 1980م. لم تذكر الطبعة، ولا التاريخ، ولا بلد النشر.

الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين: **الأحكام السلطانية**.1 مج. ط3. إندونيسيا: شركة مكتبة أحمد نبهان. 1394هـ/1974م.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: **كتاب العين**. 8مج. تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي. ط1. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. 1408هـ/1988م.

فرحات، د أحمد حسن: **الأمة في دلالتها العربية والقرآنية**. 1مج. ط1. عمان: دار عمار. 1403هـ/1983م.

الفرماوي، د.عبد الحي: **المسلمون بين الأزمة والنهضة**. 1مج. دار التوزيع والنشر الإسلامية. لم يذكر التاريخ، ولا بلد النشر، ولا الطبعة.

فروخ، د.عمر: **العرب في حضارتهم وثقافتهم**. 1مج. ط2. بيروت: دار العلم للملايين. لم يذكر تاريخ الطبعة.

الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. 6مج. تحقيق محمد علي النجار. بيروت: دار الكتب العلمية. لم يذكر الطبعة، ولا التاريخ.

القاسمي، محمد جمال الدين. **محاسن التأويل**. 17مج. ط2. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار الفكر. 1398هـ/1978م.

القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب: **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**. 1مج. تحقيق علي محمد البجاوي. لم تذكر الطبعة، ولا التاريخ، ولا بلد النشر.

القرضاوي، د. يوسف: **الإسلام وحضارة الغد**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة وهبة. 1416هـ/1995م.

القرضاوي، د.يوسف: **الخصائص العامة للإسلام**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة وهبة. 1397هـ/1977م.

القرضاوي، د.يوسف: **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة**. 1مج. ط1. بيروت: دار الشروق. 1417هـ/1997م.

القرضاوي، د.يوسف: **أمتنا بين قرنين**. 1مج. ط1. القاهرة: دار الشروق. 1421هـ/2000م.

القرضاوي، د.يوسف: **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**. 1مج. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1417هـ/1996م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن**. 11مج. ط1. بيروت: دار الفكر. ضبطه صدقي جميل العطار. وخرج أحاديثه الشيخ عرفان العشا. 1419هـ/1999م.

قطب، سيد: **الإسلام ومشكلات الحضارة**. 1مج. بيروت: دار الشروق. لم يذكر الطبعة.

قطب، سيد: **العدالة الاجتماعية في الإسلام**. 1مج. ط6. بيروت.القاهرة: دار الشروق. 1399هـ/1979م.

قطب، سيد: **خصائص التصور الإسلامي**. 1مج. ط2. مصر: دار إحياء الكتب العربية. 1965م.

قطب، سيد: **دراسات إسلامية**. 1مج. القاهرة: دار الشروق. بلا طبعة، ولا تاريخ.

قطب، سيد: **في ظلال القرآن**. 6مج. ط9. بيروت. القاهرة: دار الشروق. 1400هـ/1980م.

قطب، محمد: **الإنسان بين المادية والإسلام**. 1مج. ط5. بيروت: دار الشروق. 1398هـ/1978م.

قطب، محمد: **التطور والثبات في حياة البشرية**. 1مج. القاهرة: مكتبة وهبة. لم تذكر الطبعة، ولا التاريخ.

قطب، محمد: **رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر**. 1مج. ط1. القاهرة: مكتبة السنة.1411هـ/1991م.

قطب، محمد: **في النفس والمجتمع**. 1مج. ط2. القاهرة: مكتبة وهبة. 1962م.

القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **العمدة في غريب القرآن**. 1مج. ط2. تحقيق د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1404هـ/1984م.

كاريل، د.ألكسيس: **الإنسان ذلك المجهول**. 1مج. تعريب شفيق أسعد فريد. بيروت: دار المعارف. 1974م.

الكاندهلوي، محمد يوسف: **حياة الصحابة**. 3مج. بيروت: دار المعرفة. بلا ذكر الطبعة.

الكروي، د.إبراهيم سلمان: **المرجع في الحضارة العربية الإسلامية**. 1مج. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب. 1999م. لم يذكر تاريخ الطبعة.

الكيلاني، د.إبراهيم زيد: **دراسات في الفكر العربي الإسلامي**. 1مج. ط3. عمان:1991م.

الكيلاني، نجيب: **إقبال الشاعر الثائر**. 1مج. ط3. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1400هـ/1980م.

لاوند، رمضان: **الحرب العالمية الثانية**.1 مج. بيروت: دار العلم للملايين. لم يذكر التاريخ، ولا الطبعة.

لوبون، د.غوستاف: **حضارة العرب**: 1مج. ط3. ترجمة عادل زعيتر. بيروت: دار إحياء التراث العربي. 1399هـ/1979م.

لوبون، غوستاف: **السنن النفسية لتطور الأمم**. 1مج. ط2. ترجمة عادل زعيتر. مصر: دار المعارف. 1957م.

لوبون: غوستاف: **سر تطور الأمم**. 1مج. ط2. ترجمة أحمد فتحي زغلول. القاهرة: المكتبة التجارية. بلا تاريخ.

مؤنس، د.حسين: **الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**. 1مج. ط2. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 1998م.

المالكي، عبد الرحمن: **السياسة الاقتصادية المثلى**. 1383هـ/1963م. لم يذكر بلد النشر. ولا الناشر. ولا الطبعة.

الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب: **الأحكام السلطانية**. 1مج. دار الفكر. بلا تاريخ، ولا طبعة، ولا بلد النشر.

الماوردي، أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب: **أدب الدنيا والدين**. 1مج. ط1. شرح وتعليق محمد كريم راجح. بيروت: دار اقرأ. 1401هـ/1981م.

المبارك، محمد. **نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد**. 1مج. ط3. بيروت: دار الفكر. 1400هـ/1980م.

المبارك، محمد: **العقيدة في القرآن الكريم**. 1مج. ط2. بيروت: دار الفكر. 1394هـ/1974م.

المبارك، محمد: **الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية**. 1مج. ط3. بيروت: دار الفكر. 1393هـ/1973م.

المبارك، محمد**: دراسة أدبية لنصوص من القرآن**. مج1. ط4. دار الفكر. 1392هـ/1973م. لم تذكر بلد النشر.

المتقي، علي بن حسام الدين: **منتخب كنز العمال**. 6مج. بيروت: دار الفكر.. بلا تاريخ.

مجمع اللغة العربية القاهري، **المعجم الوسيط**. 2مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي. لم يذكر رقم الطبعة.

مخلوف، حسنين محمد: **صفوة البيان لمعاني القرآن**. 2مج. بيـروت: دار الفكـر. لـم تـذكر الطبعة، ولا التاريخ.

مدني: د.عباسي. **أزمة الفكر الحديث ومبررات الحل الإسلامي**. 1مج. مكة المكرمـة: مكتبـة المنارة. بلا تاريخ، ولا طبعة.

المراغي، أحمد مصطفى: **تفسير المراغي**. 15مج. ط5. مصر: شركة مكتبة ومطبعة عيـسى مصطفى الحلبي. 1394هـ/1974.

المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. 4مج. تحقيـق محمـد محي الدين عبد الحميد. بيروت: دار المعرفة. 1403هـ/1983م.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**. 5مج. تحقيـق محمـد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. بلا تاريخ، ولا طبعة.

مطران، خليل: **ديوان الخليل**. 3مج. ط1. بيروت: دار مارون عبود. 1975م.

المناوي، عبد الرؤوف: **فيض القدير**. 6مج. ط1. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. 1356هـ.

المناوي، محمد عبد الرؤوف: **التعاريف**. 1مج. ط1. تحقيق د.محمد رضوان الدايـة. بيـروت. دمشق: دار الفكر المعاصر.دار الفكر. 1410هـ.

المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي: **الترغيب والترهيب**. 4مج. تحقيق إبراهيم شـمس الـدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1417هـ.

منظمة اليونسف. في نشرة لمنظمة UNICEF تحمل عنوان الحقوق الإنجابية والجنسية.

المهيامي، علي بن أحمد: **تبصير الرحمن وتيسير المنان**. 2مج. ط2. بيروت: عـالم الكتـب. 1403هـ/1983م.

المودودي، أبو الأعلى: **الخلافة والملك**. 1مج. ط1. الكويت: دار القلم. 1398هـ/1978م.

المودودي، أبو الأعلى: **المصطلحات الأربعة في القرآن**. 1مج. القاهرة: دار التراث العربي. بلا تاريخ، ولا طبعة.

المودودي، أبو الأعلى: **نحـن والحـضارة الغربيـة**. 1مـج. بيـروت: مؤسـسة الرسـالة. 1403هـ/1983م.

موقع الجزيرة نت. على شبكة الانترنت.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: **العقيدة الإسلامية وأسسها**. 1مج. ط3. دمشق. دار القلـم: 1403هـ/1983م.

الميداني، عبد الرحمن حسن: **الحضارة الإسلامية أسسها ووسـائلها وصـور مـن تطبيقـات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمـم**. 1مـج. ط1. دمـشق. دار القلـم. 1418هـ/1998م.

النجار، د.عبد المجيد: **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**. 1مج. ط2. فيرجينيا: المعهد العـالمي للفكر الإسلامي.1413 هـ/1993م.

الندوي، أبو الحسن علي الحسني: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**. 1مج. ط6. بيروت: دار الكتاب العربي. 1385هـ/1965م.

النسائي، أحمد بن شعيب: **سنن النسائي**. 8مج. ط2. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. حلب: مكتبـة المطبوعات الإسلامية. 1406هـ/1986م.

النسفي، أبو البركات عبد الله: **مدار التنزيل وحقائق التأويل**. 4مج. بيروت: دار الفكر. بلا ذكر الطبعة، ولا التاريخ.

نصحي، د.إبراهيم: **تاريخ الرومان**. 2مج. مكتبة الانجلو المصرية. لم تذكر الطبعـة، ولا بلـد النشر.

نوفـل، د.أحمـد: **سـورة يوسـف دراسـة تحليليـة**. 1مـج. ط1. عمـان: دار الفرقـان. 1409هـ/1989م.

النووي، يحي بن شرف: **شرح النووي على صحيح مسلم**. 18مج. ط2. بيـروت: دار إحيـاء التراث العربي.

نيكسون، ريتشارد: **نصر بلا حرب**. 1مج. ط1. إعداد وتقديم المشير محمد أبو غزالة. القـاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر. 1409هـ/ 1988م.

هونكة، زيغرد: **شمس العرب تسطع على الغرب**. 1مج. ط10. ترجمه فاروق بيضون وكمـال دسوقي. بيروت: دار صادر. 1423هـ/2002م.

الهيثمي، علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. 10مج. القاهرة. بيروت: دار الريـان للتراث. دار الكتاب العربي. 1407هـ.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: **الوجيز في تفسير الكتاب العزيـز**. 2مـج. ط1. تحقيـق صفوان عدنان داوودي. دمشق. بيروت: دار القلم. دار الشامية. 1415هـ.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**. 4مج. ط1. تحقيق عادل عبد الموجود. بيروت: دار الكتب العلمية. 1415هـ/1994م.

وجدي، محمد فريد: **دائرة معارف القرن العشرين**. 10 مج. ط3. بيروت: دار المعرفة. 1971م.

الوزير، إبراهيم بن علي: **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري. دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**.1مج. ط1. بيروت: دار الشروق. 1399هـ/1979م.

ياسين، د.محمد نعيم: **الإيمان أركانه حقيقته نواقضه**. 1مج. ط1. عمان: 1398هـ/1978م.

يس، د.عماد محمد عمارة: **النظام الرقابي في الإدارة الإسلامية وأثره في الدعوة إلى الله**. 1مج. ط1. مصر. والسعودية: دار اليقين. ودار القبلتين. 1414هـ/2003م.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

Bases of Civilization, and the Elements of its Disappearance from the Point of View of the Holly Quran

Prepared by
Ammar Tawfiq Ahmed Badawi

Supervised by
Dr. Mohsin Sameeh Al-Khaldi

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements of the Degree of Master of Islamic Law (Shari'a) in Usol Ad-Din, Faculty of Graduate Studies, at An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2005

Bases of Civilization, and the Elements of its Disappearance
from the Point of View of the Holly Quran

Prepared by
Ammar Tawfiq Ahmed Badawi
Supervised by
Dr. Mohsin Sameeh Al-Khaldi

Abstract

I've divided my thesis into a preface and four chapters. In the preface, I illustrated the lingual and idiomatic definitions of civilization and culture and showed the differences between them.

In the first chapter, I talked about the elements of civilization and its bases and substructures only on which a perfect civilization is based. These bases are : belief in God, right dogmatic imagination, science and education, good deeds, morals, comprehensiveness, addressing all people, prosperous economy, peace and static political discipline.

In the second chapter, I discussed the safety criteria for the continuity of civilization. These criteria protect civilization from deviation and protect it from vanishing and downfall. These appear in exhortation and calling to account, enjoining right conduct and forbidding indecency, and the consideration of God legislations.

In the third chapter, I explained the elements that destroy civilization and cause it vanish such as disbelief (apostasy), injustice, indulging in luxury, misdeeds and sins, superiority complex and oppression, inclination to materialism, and economical corruption.

In the fourth chapter, I talked about the future consolidation of Islamic civilization, and I explained the truthful omens for this consolidation. Then I showed how The Islamic civilization is concerned with mankind and it continues through his existence. I dealt with the marks of the downfall of

contemporary materialistic civilization. Finally I discussed how the Islamic civilization is the inheritor of all civilizations.

God is the Lord of success